# التيسير في أحاديث التفسير

من إملاء

سماحة الشيخ محمد المكي الناصري

الجزء الخامس

دار الغرب الإسلامي

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

دار الغرب الإسلامي
ص. ب: ١١٣/٥٧٨٧
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

التيسير
في
أحاديث التفسير

# الربع الأول من الحزب الواحد والأربعين في المصحف الكريم

وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا
وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾
وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ
يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ
إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ
وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ
ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ
بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ
مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ
مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ

يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ
يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا
بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾
وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ
وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ
وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ
فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾
يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾
كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ
صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ
رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِنْ
سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ

مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم
مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا
لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾
وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ
لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟
ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾
لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۙ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟
أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ
يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾
وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ
بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ
مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ
ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾

وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾
يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ
غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى
وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾

# الربع الأول من الحزب الواحد والأربعين في المصحف الكريم

**عبـــاد الله**

في حصة هذا اليوم نتناول تفسير الربع الأول من الحزب الحادي والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا أَهْلَ الْكِتَـٰبِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إلى قوله تعالى في سورة الروم: ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ﴾.

لقد سبق في علم الله أن دين الحق الذي هو دين الإسلام، رغماً عن ظهوره وانتشاره في أطراف الأرض، وإقبال مختلف السلالات على الدخول فيه أفواجاً، سوف لا ينفرد وحده بالبقاء في العالم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، بل إنه ستعايشه باستمرار أديان أخرى، وستحاول أن تنافسه وتتحداه، كلما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، ولا سيما «الأديان الكتابية» التي ينتمي إليها اليهود والنصارى.

ومعايشة الإسلام لغيره من الأديان، تفرض على أهله أن يدافعوا عنه في وجه الهجمات المضادة بالحجة والبرهان، وحتى

يتم القيام بهذه المهمة على أحسن وجه، وجَّه كتاب الله في بداية هذا الربع الخطاب لكافة المومنين، ولا سيما المسلحين منهم بسلاح العلم والدين، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ وبذلك أفهمَ المسلمين أولاً أن الإسلام لا يخشى من مواجهة خصومه، وأنه لا بد للمسلمين من أن يجادلوا عن دينهم، ويبطلوا ما يوجَّه إليه من الشبه الزائفة والتهم الباطلة، وأفهمهم ثانياً أن مجادلة المسلمين لمخالفيهم في العقيدة والدين لا تكون بأي شكل كان، بل لا بد أن تكون على شكل يؤدي بالخصم إلى الاقتناع والإذعان، وهذا المعنى هو ما عبرت عنه الآية الكريمة إذ قالت: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

و﴿ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ وصفٌ للطريقة التي يجب أن يتبعها المجادل عن دينه في الدفاع عنه، حيث يختار لجداله طريقة مطبوعة بطابع الرفق واللين، لا تُشَمُّ منها رائحة الغلظة والجفاء، و﴿ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ هي كذلك وصف للحجة التي ينبغي أن يحتج بها المجادل عن دينه للدفاع عنه، بحيث يختار من بين الحجج التي بين يديه أوضحها وأقواها، وأسرعها إيصالاً للمقصود والمطلوب، وبذلك ينصر دينه، ويبَرُّ يمينه. قال القاضي أبو بكر (ابن العربي) المعافري: «لكن يكون الجدال بما يحسن من الأدلة ويجمل من الكلام، بأن يكون منك للخصم تمكين، وفي خطابك له لين، وأن تستعمل من الأدلة أظهرها وأنورها، وإذا لم يفهم الخصم أعاد عليه المجادل الحجة وكررها».

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ معناه أن مَن

تصدَّى للمسلمين بالظلم والعدوان لا يُجادَل بالرفق واللين، وإنما يُعامَل معاملة الظالمين، فيُحَدُّ من ظلمه بما يناسبهُ من الجدال أو الجلاد، إلى أن يرتدع عن ظلمه ويرجع إلى السداد، ومن الظلم الاعتداء على الحرمات والتهجم على المقدسات، وغدر العهود والالتزامات.

وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ يتضمن مثالاً تطبيقياً لمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، قال ابن كثير: «فإذا أُخبرُوا بما لا نعلم صدقه ولا كذبه لا نُقدِم على تكذيبه، لأنه قد يكون حقاً، ولا نُقدم على تصديقه لأنه قد يكون باطلاً، ولكن نومن به إيماناً مجملاً، شريطة أن يكون أمراً منزلاً، لا مبدلاً ولا مؤولاً، وتفرد البخاري في صحيحه برواية حديث عن أبي هُرَيْرة قال: «كان أهلُ الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «لا تُصدِّقوا أهل الكتاب ولا تُكذِّبوهم، وقولوا آمَنَّا بالذي أُنْزِلَ إلينا وأُنْزِل إليكم الآية»».

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ﴾ معناه أن الخلق كلهم عيال الله، وأن رب العالمين الذي خلقهم ورزقهم إلَهٌ واحدٌ، وإن كانت عقيدة التوحيد في الإسلام بالنسبة لغيرها من العقائد هي العقيدة الوحيدة الصحيحة والسليمة من كل الشوائب، مِصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى (١٠٩/ ٦): ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾، ولذلك قال تعالى هنا: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ أي على خلاف ما عليه أهل الكتاب.

ثم اتجه الخطاب الإلٓهيّ إلى الرسول الأعظم، مذكراً إياه بأنه كما مَنَّ على الأنبياء السابقين بإنزال الكتب إليهم، ها هو يكرمه ويمنّ عليه بالكتاب الذي أُنزل إليه، مؤكداً، لمن لا يزال في شك من أمره، أن منصب النبوة والرسالة وتلقي الوحي الذي رشحته له العناية الإلٓهية، لم يكن يدور من قبلُ في خَلَده، ولم يكن له يد في اكتسابه، ولا تشوُّف إلى تلقي مدده، وإنما هو هبة من الله منحه إياها، ليثبت صدق رسالته إلى الخلق، حتى يُقلِعوا عن الباطل ويومنوا بالحق، وذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَٰبَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يُومِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَٰؤُلَآءِ مَنْ يُومِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا الْكَٰفِرُونَ﴾ أَيْ الموغلون في الكفر والراسخون فيه، ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ، إِذًا لَّأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي: وكان لهم في ارتيابهم متعلق.

ثم قال تعالى في وصف كتابه العزيز: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌ بَيِّنَٰتٌ﴾، أي: أن آيات الكتاب العزيز بلغت الغاية في قوة الدلالة ووضوح المعنى وبلاغة القول، بحيث يكفي أن يسمعها الإنسان لينشرح صدره، ويطمئن قلبه، ويقتنع بها فكره ولبه: ﴿وَمَنَ اَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ ومن ثَم كان لا يجحدها ولا يتنكّر لها إلاَّ الإنسان الذي قضى على نفسه بالظلم والحرمان: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَا إِلَّا الظَّٰلِمُونَ﴾.

وقد يسر الله آيات الذكر الحكيم، فجعلها في متناول العقول والأذهان، وحفظَها لفظاً ومعنى، نصاً وروحاً، في صدور

الذين آتاهم علم القرآن، فآمنوا بها وقاموا بحقها، حفظاً وتلاوة وتفسيراً وتلقيناً إلى آخر الزمان، وذلك معنى قوله تعالى هنا: ﴿ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوْتُوا العِلْمَ ﴾ مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى(٣/ ٧) : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ ، وقوله تعالى في آية ثانية (١٥ : ٩) : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَـٰفِظُونَ ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى وصف مزاعم المتعنتين، الجاحدين لآياته، الذين ينتحلون لأنفسهم الأعذار، عسى أن لا يقعوا تحت طائلة الإنذار والإعذار، فقال تعالى حكايةً عنهم أولاً، ومبطلاً لمزاعمهم ثانياً: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّنْ رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَـٰتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

والآيات التي يقصدونها ويطالبون النبي بها هي من نوع «المعجزات المادية» التي رافقت رسالة بعض الرسل السابقين، مثل ناقة صالح، وعصا موسى، ومائدة عيسى، مما كان سَنَداً لهم في دعوى الرسالة، وبرهاناً على صدقهم لدى من أُرسلوا إليه، لكنّ كتاب الله رَدَّ على أولئك الجاحدين بأنّ إنزال مثل تلك «الآيات المادية والوقتية» مردّه إلى الله وبيده وحده، لا دخل فيه لنبي ولا رسول.

على أن الله تعالى قد وهب خاتم أنبيائه ورسله كتاباً معجزاً: ﴿ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ﴾ يعدل بجميع تلك المعجزات، ولا يقتصر أثره على فَتْرَةٍ محدودة من

الأوقات، بل سيظل إعجازه قائماً، وأثره سارياً في كل زمان، وسيزداد إعجابُ الإنسان بما فيه من علم وحكمة، وما يدعو إليه من إحسان ورحمة، كلما ارتفع مستوى الإنسان، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ اَلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِم، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُومِنُونَ ﴾.

ويشهد لتفسير هذه الآية من الحديث الصحيح قوله ﷺ: «مَا مِنَ الأنبياء من نبي إلّا قد أُعْطِي من الآيات ما مِثْلهُ آمَنَ عليه البشرُ، وإنما كان الذي أُوتيتُه وحياً أَوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»، ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِـاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً، يَعْلَمُ مَا فِي اِلسَّمَـٰوَٰتِ وَالاَرْضِ، وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ بِالْبَـٰطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْخَـٰسِرُونَ ﴾.

وَوَصَفَ كتابُ الله ما عليه أولئك الجاحدون من عناد وغرور وتَحَدٍّ للقدرة الإلٓهية وللرسالة المحمدية، فقال تعالى في وصفهم: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ، وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمّىً لَّجَآءَهُمُ الْعَذَابُ، وَلَيَاتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَـٰفِرِينَ يَوْمَ يَغْشَيٰهُمُ الْعَـذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَـا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾، لكن العذاب الـذي يستعجلون به، ويتحَدَّوْن الرسول بطلبه، لا يأذن الله به إلّا عند استِنْفاد جميع الوسائل لهدايتهم، وإصْـرارهم على ضلالتهم: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ ( ٢١ : ١٠٧ )، ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ ( ٧ : ١٥٦ )، وفي الحديث القـدسي: « رحمتي سبقت غضبي ».

واتجه كتاب الله بالخطاب إلى المومنين الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، وملأت عليهم أفئدتهم، وعَرَّفهم أن أرضه الواسعة مفتوحة في وجوههم، مُيَسَّرة الأسباب من أجلهم: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ (٢ : ٢٩)، كما أن رحمته الواسعة محيطة بهم من كل جانب، فما عليهم إلّا أن يعتزوا بإيمانهم ويتمسكوا بدينهم، ولا يضيقوا ذرعاً بكيد الكائدين، وَمَكر الماكرين، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿ يَـٰعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّـٰيَ فَاعْبُدُونِ ﴾. وهذه الآية كما فَتَحت الباب أمام المومنين للتفكير في الخلاص من أَذَى المشركين، والهجرة من مكة إلى المدينة، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ أَلَمْ تَكُنَ اَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فيها﴾(٤ : ٩٧) فَتَحت الباب أيضاً في وجه المسلمين أجمعين، للسير في أرض الله، والتعرف على صنع الله، والقيام بالدعوة إلى الله، وذلك هو ما قام به المسلمون الأولون، عند ما جابوا أَكْنَاف الأرض، طولها والعرض، فانشأوا «دار الإسلام»، وآخوا في دين الله بين مختلف السلالات والأقوام.

ونظراً لما تؤدي إلَيْه مسيرة «إيمانية» عالَمية كبرى من هذا النوع، وما يمكن أن يتعرض له المومنون القائمون بها من متاعب وَأخطار، عقب كتاب الله على ذلك بِمَا يُطمِئنُ نفوسهم، ويؤكد ثقتهم بالله وبحسن جزائه في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ، وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ﴾.

ثم أشار كتاب الله إلى أن سر النجاح في هذه المسيرة الإنسانية العظمى يَكْمُنُ في مواصلة العمل، لا في الجُمود والكسل، وفي التزام الصبر، لَا في الجَزَع والملل، وفي التوكل على الله بعد اتخاذ الأسباب، وطَرْق أبواب رزقه التي ليس عليها أيّ حجاب، فقال تعالى: ﴿ نِعْمَ أَجْرُ الْعَـٰمِلِينَ، الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، وَكَأَيِّنْ مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا، اَللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى وصف طائفة متناقضة مع نفسها كل التناقض، وُجِدت في القرون الخالية، ويوجد مثلها في العهود الحالية، أَلَا وهي تلك الطائفة التي تدَّعي أنها تقر بوجود الله، لكنها لا تومن برسله ولا بكتبه ولا باليوم الآخر، ولا تَدِين لخالقها ورازقها بالعبادة والطاعة لا في قليل ولا كثير، بل تقضي حياتَها مستغرقة في المُتَع والشهوات، ولا تلتفت إلى ما أنزل الله من الآيات البينات، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوٰتِ وَالْأَرْضَ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، لَيَقُولُنَّ اَللَّهُ فَأَنَّىٰ يُوفَكُونَ، اَللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّن نَّزَّلَ مِنَ اَلسَّمَاءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اَللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّـهِ بَلَ اَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ، وَمَا هَـٰذِهِ اِلْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ، وَإِنَّ اَلدَّارَ اَلْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ أي: الحياة الكاملة والدائمة، ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ، فَإِذَا رَكِبُواْ فِي اِلْفُلْكِ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، فَلَمَّا نَجَّيٰهُمْ إِلَى اَلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ، لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ، وَلِيَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾، الوارد استطراداً في سياق هذه الآيات، خطابٌ لرسوله الأعظم، يدعوه إلى حمد الله وشكره، على ما أوضح من الحجج الساطعة، والبراهين القاطعة، وإن عَمِيَ عنها الجاحدون، وتَنكّر لها المعاندون.

وأورد كتاب الله في هذا السياق آية تَصِفُ جحود رؤوساء الشرك ـ قبل أن يسلم منهم من أسلم ـ لنعمة الله التي أنعم بها على سكان مكة كافة، إذ جعل بلدهم ـ بفضله وكرمه ـ «حَرَماً آمِناً» يتمتع بالقداسة والاحترام، ومأْمناً لهم وللوافدين عليهم من كل عدوان وانتقام، وكان من حقهم، بل من واجبهم، أن يشكروا نعمة الله، ويدخلوا في دِيـن الله، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ، أَفَبِالْبَـٰطِلِ يُومِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ اَلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ اَللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ اَلْبَوارِ ﴾ (١٤: ٢٨).

وحيث أن المُعَارِضين للحق، والمضللين للخلق، لا يخلو الواحد منهم من أحد أمرين: إما أن يكون «كاذباً» يعمل على ترويج الباطل، وإما أن يكون «مُكذِّباً» يعمل على إبطال الحق، وقد يجمع الواحد منهم بين الأمرين فيكون كاذباً ومكذِّباً، فقد تصدى لهم كتاب الله بما هم أهله، وأشار من طرف خفي إلى أن ما هم عليه من كِبْر واستعلاء له أثر كبير فيما ينشرونه وينصرونه من الكذب والهُراء، فقال تعالى: ﴿وَمَنَ اَظْلَمُ مِمَّنِ اِفْتَرَىٰ عَلَى اَللَّهِ كَذِباً، اَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾.

لكنّ من آمنوا بالحق وصدَّقوا بالرسالة، وجاهدوا في نشرها ونصرتها والدفاع عنها، سيسلك بهم ربُّهم مسالك النجاة والنجاح، وستصحبهم العناية الإلٓهية في الغدوّ والرواح، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في ختام سورة العنكبوت: ﴿ وَالَّذِينَ جَٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اَللَّهَ لَمَعَ اَلْمُحْسِنِينَ ﴾.

ومن هنا ننتقل بعون الله وتسديده إلى «سورة الروم» المكية أيضاً، وقد جاءت مبدوأة بحروف الهجاء المقطَّعة، وهي خامس سورة وردت على هذا الشكل على التوالي في نسق واحد، وإنما سميت «سورة الروم» لقوله تعالى في فاتحتها ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . أَلَمٓ غُلِبَتُ الرُّومُ فِي أَدْنَى اَلاَرْضِ ﴾ الآية، وورد في سنن الترِّمذي ما خلاصته: أن الفرس كانوا يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم، لأنهم وإياهم «أهل كتاب» وفي ذلك ورد قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُومِنُونَ بِنَصْرِ اِللَّهِ، يَنصُرُ مَنْ يَّشَآءُ وَهُوَ اَلْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ بينما كان مشركو قريش يحبون ظهور فارس، لأنهم وإياهم «ليسوا بأهل كتاب» ولا إيمانٍ ببَعْث، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح في نواحي مكة: ﴿ اَلَمٓ. غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى اَلاَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ وعندما مضت سبعُ سِنين ظهرت الروم على فارس، فأسلم عند ذلك ناس كثير، قال الترِّمذي: هذا حديث حسن صحيح، وكان ذلك تصديقاً لقول الله تعالى: ﴿ وَعْدَ اَللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ (٣٠: ٦).

ثم نبّه كتاب الله إلى أن أكثر الناس يكتفون بالقشر بدل اللباب، وبالظاهر السطحي دون التعمق فيما وراء الحجاب، بينما الواجب يقتضي بذل الطاقة والجهد في التفكير العميق، والبحث الدّقيق، حتى يدرك الإنسان حقائق الأمور، ما ظهر منها وما بطن، ويكشف عن جوهرها المكنون والمستور، فيستوي في نظره السرّ والعَلَن، وذلك قوله تعالى في ختام هذا الربع: ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْـثَرَ اَلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ، يَعْلَمُونَ ظَـٰهِراً مِّنَ اَلْحَيَوٰةِ اِلدُّنْيَـا، وَهُمْ عَنِ اِلْآخِـرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ، أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِي أَنْفُسِهِمْ، مَّا خَلَقَ اَللَّهُ اُلسَّمَـٰوٰتِ وَالْاَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى، وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ اَلنَّاسِ بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ﴾.

# الربع الثاني من الحزب الواحد والأربعين في المصحف الكريم

أَوَلَمْ يَسِيرُواْ
فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ
مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ
لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ
عَٰقِبَةَ الَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ السُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَكَانُواْ
بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ
يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾
وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾
وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ الْأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ

فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ
تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا
وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ
مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾
وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ
تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ
أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ
خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم
بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ
خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾
وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ
دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا
مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا
رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ
كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ
أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾

# الربع الثاني من الحزب الواحد والأربعين في المصحف الكريم

## عبــاد الله

موعدنا في هذه الحصة مع الربع الثاني من الحزب الواحد والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُواْ فِي اِلَارْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ إلى قولهِ تعـالى: ﴿فَمَنْ يَّهْدِي مَنَ اَضَـلَّ اَللَّهُ، وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾.

مما يستلفت النظر ويثير الانتباه ما يدعـو إليه كتـاب الله ويحض عليه في غير ما آية، من السير في أكناف الأرض طولاً وعـرضاً، وكتـاب الله ينوّع الأسـاليب المتبعة في هـذه الدعـوة الملّحة، كما ينوّع الأهداف المرجوة منها، فأحياناً يدعو إلى السير في الأرض دعوة عامة، على أن يكون السير فيها بعقل متبصر، وأذن واعية، وعين متفتحة، كقوله تعالى فيما سبق من سـورة الحج (٤٦): ﴿اَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الَارْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ، أَوَ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فإِنَّهَا لَا تَعْمَى اَلابْصَـٰرُ وَلَكِنْ تَعْمَى اَلْقُلُوبُ اَلَّتِي فِي اِلصُّدُورِ﴾. وأَحْيَاناً يدعو إلى النظر فيها للتعرف على ما أودعه في طياتها من أسرار الخلق وبدائع المخلوقات، وخزائن

المُلك والملكوت، كقوله تعالى فيما سبق من سورة الأعراف: ﴿أَوَ لَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ اِلسَّمَـٰوَاتِ وَالاَرْضِ وَمَا خَلَقَ اَللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ (الآية: ١٨٥). وقوله تعالى فيما سبق من سورة العنكبوت: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي اِلاَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ اَلْخَلْقَ﴾ (الآية: ٢٠)، وأحياناً يدعو إلى التنقل في الأرض والسير فيها للبحث عن وسائل العيش وطلب الرزق، كقوله تعالى فيما يأتي من سورة الجمعة: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ اِلصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُواْ فِي اِلاَرْضِ وَابْتَغُواْ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾، وأحياناً يدعو إلى السير في الأرض والنظر فيما تعاقب عليها من عمارة وخراب، وحضارات عظمى لم يحسن أهلها الخلافة عن الله في الأرض، فَكَانَ تدميرهم وتدْمير حضارتهم أعدل جزاءٍ وأوفى عقاب، كقوله تعالى فيما سبق من سورة النمل: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي اِلاَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (الآية: ٦٩)، وقوله تعالى في بداية هذا الربع من سورة الروم: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي اِلاَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

ثم يَعقِد كتاب الله مقارنة بين الحال التي وجد الإسلامُ عليها الناسَ عند نزول القرآن، والحالة التي عرفتها البشرية قبل ذلك، في القرون الخالية والأمم البائدة، مشيراً إلى أن الحضارات السابقة كانت أقوى، وأن الأرض كانت أكثر ازدهاراً وعمراناً، لكن لما أساء أهلها التصرف فيما آتاهم الله من قوة وثروة وعمران، ولم يهتدوا بالمنهج الإلٓهي في تدبير شؤونهم، ورَمَوا بِكُتُب الله ورسالاته عرض الحائط، أُفلت من يدهم الزمام،

وحَكَم عليهم لسان القدرة بالاعدام، وذلك قوله تعالى في نفس السياق: ﴿ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً، وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ ﴾، أي حرثوها واستثمرها إلى أقصى حد، ﴿ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ، فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ، وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ، ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ ﴾، ولما كانت السوأى (وهي تأنيث الأسوأ) هي عاقبة الذين أساؤوا كانت الحُسْنى (وهي تأنيث الأحسن) هي عاقبة الذين أحسنوا، كما قال تعالى في حقهم: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾.

وبين كتاب الله السبب فيما نال الذين أساؤوا من عقاب ودمار، فقال: ﴿ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾.

وقد أكد كتاب الله هذه المعاني مجتمعة مرة أخرى عند قوله تعالى فيما يأتي من سورة غافر(٨٢): ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ، كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ، وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلۡأَرۡضِ، فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾. ثم قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ، ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾، ومِمَّا يدخل تحت هذا المعنى ويتصل به أوثق اتصال قولُه تعالى في آية أخرى (٤: ١٣٣): ﴿ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَ ﴾، وقولُه تعالى في آية ثانية (٦: ٣٣٣): ﴿ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ ﴾، وقولُه تعالى في آية ثالثة (٣٥: ١٦): ﴿ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴾.

وذكّر كتابُ الله بالحقيقة الكبرى التي أجمعتْ عليها كافة

النبوات والرسالات، وإن أنكرها المنكرون وجحدها الجاحدون، ألا وهي «قيام الساعة» وما يرافقها من انقلاب شامل وعام في الكون، وما يُوَاكِبُها من نشر وحشر، وتصنيف للبشر في صنفين اثنين: صنف المومنين الذين عملوا الصالحات، ولهم النعيم المقيم، وصنف الكافرين الذين عملوا السيئات ولهم العذاب الأليم، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أي تصيبهم الحيرة والذهول، لأنهم لم يكونوا يتوقعون قيام الساعة أبداً، يقال: «أَبْلَسَ الرجل» إذا سكت وانقطعت حجته ولم يؤمل أن تكون له حجة» ثم قال تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَـٰؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ،وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتفَرَّقُونَ، فَأَمَّا الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُون ﴾ من «الحبور» وهو السرور والفرح، ﴿ وَأَمَّا الذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ الآخِرَةِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحضَرُونَ ﴾ أي يساقون إليه قهراً وقسراً، وقولُه تعالى هنا: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتفَرَّقُونَ ﴾ عقِب قوله أيضاً: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى (٣٦: ٥٩): ﴿ وَامْتَـٰزُواْ الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾.

وبعد أن وصف كتاب الله مظاهر قدرته وحكمته، ودلائل وحدانيته وعظمته، البارزة في ملكوت السماوات والأرض، ووصَفَ تصرُّفَه المطلق في الكون، والتجاء الخلق إليه بَدْءاً وإعادة، إذْ هُو القاهر فوق عباده، بَيَّن أن كل إنسان عاقل لَمَسَ جلال الله وجماله، وعظمته وكماله، في نفسه التي بين جنبيه، وفي الكون الباهر من حوله المتجلى أمام عينيه، لا يسعه إلاّ أن

يتوجه إلى الله بتنزيهه عن كل نقص، وتمجيده بكل كمال، إقراراً بفضله وكرمه، وشكراً على مَدَده ونِعَمه، وذلك ما يقتضيه قوله تعالى تلقيناً لعباده: ﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ، وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ، وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾.

وَواضحُ أن تنزيه العبد لربه يتناول تنزيهه بالقلب، عن طريق الاعتقاد الصحيح الجازم، وتنزيهَه باللسان، عن طريق ذكره الحسن بأسمائه الحسنى، وتنزيهه بالجوارح، عن طرِيق الأَعمال الصالحة، وعلى رأسها الصلاة التي هي عماد الدين، لكونها هي الصلة القائمة والدائمة بين العبد وربه، ﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ ﴾ لفظ عام يشمل كافة وجوه التنزيه، ويدخل فيه من باب أُولى وأَحْرى إقامة الصلوات الخمسِ التي يُجدد فيها المومن عهده مع الله خمس مَرات في اليوم والليلة، قيل لابن عباس رضي الله عنه: «هل تجدُ الصلوات الخمس في القرآن؟» قال نعم، وتلا هذه الآية: ﴿ تُمْسُونَ ﴾ صلاة المغرب وصلاة العشاء، و﴿ تُصْبِحُونَ ﴾ صلاة الفجر، ﴿ وَعَشِيًّا ﴾ صلاة العصر، و﴿ تُظْهِرُونَ ﴾ صلاة الظهر.

ولا شك أن مواقيت الصلاة المتعاقبة ترافقها ظواهر كونية يومية عظمى، تتجلى فيها قدرة الله وعظمته، وعلمه وحكمته، وجلاله وجماله، فتكون أنسب الأوقات لإعلان العبد عن تعلقه بالله، وإيمانه بوحدانيته وربوبيته، وتمسكه بعبادته وطاعته.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ بَيْن قولِه قبلها: ﴿ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ وقولِه بعدها:

﴿ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ تنبيهٌ إلى أن تنزيه العبد لرَبِّه لا يكون تنزيهاً حقيقياً وتاماً إلّا إذا صاحبه القيام بحمد الله وشكره على الدوام، إذ هو المحمود سبحانه وتعالى بكل لسان، بلسان الحال ولسان المقال، من كافة الأنام: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ، وَإِنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ (١٧ : ٤٤).

وكيف لا يُنزِّهُ العاقلُ رَبَّهُ سبحانه وهو المنفرد بالإيجاد والامْداد، وهو الذي ينفخ الروح في الكائنات فتسري فيها الحياة متى شاء، ويقبض روحها متى شاء، وإذا كان الله سبحانه قادراً على إخراج الحي من الميت، وإخراج الميت من الحي في النبات والحيوان والإنسان، فكيف لا يكون قادراً على إحياء الميت، قدرتَهُ على إماتة الحي، وذلك ما ينطق به قوله تعالى: ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾.

وأبرزُ مثالٍ لما ورد في الكتاب، إخراج نَوْع الإنسان ـ وهو سيد الأحياء ـ من بين الطين والتراب، وذلك ما يشير إليه في نفس السياق قولُه تعالى هنا: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ، ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ وقولُه تعالى في آية أخرى (٢٠ : ٥٥): ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ، وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ، وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾.

ومضى كتاب الله يصف آياته الباهرة، المبثوثة في الأنفس

والآفاق، معرفاً ببالغ حكمته، وكامل قدرته، فقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾.

ويلاحَظ أنّ كتاب الله أَتْبع خَلق الإنسان بخلق الزوجة، لأن بها يتم الأُنس وينتظم العيش ويزدهر العمران، فهل أَحدٌ غير الله يستطيع أن يجعل من الزوج والزوجة، رغم اختلاف طبيعة تكوينهمَا العُضويّ والنفسيّ والعاطفي، شخصيةً واحدة متكاملة، في ازدواجها سرُّ وحدتها، وهذاالمعنى هو الذي يوحي به قوله تعالى هنا في تأكيد الوحدة والألفة بين الزوج والزوجة: ﴿ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ الآية (٧: ١٨٩)، ويوحي به قولُه تعالى أيضاً في التعريف بسر الزوجية الدَّفِين، حيث يصبح الفرد زوجاً، والزوجُ فرداً، عندما يقول: ﴿ لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾، و«السكينة» طمأنينة القلب، وراحة البال، ومفتاح السعادة، كما يوحي به قولُه تعالى هنا في تحديد نوع العلاقة العاطفية بين الزوج والزوجة: ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾، و«المودة» شعور هادىء نبيل، متسم بالعمق والصدق والدوام، لا شعور سطحي ثائر وعابر، كالهشيم تَذْروه الرياح، و«الرحمة» هي العروة الوثقى التي تربط بين الزوجين بعضهما مع بعض، وتربط بينهما وبين من له عليهما أوْ لَهُمَا عليه حَقٌّ من الحقوق: حقوق الأبوة وحقوق البنوة، فبالرحمة المتبادلة والتعاطف المزدوج يشتد التلاحم، لمواجهة الشدائد والملمات، ويسهل تَخطِّي العقبات، والتغلب على الأزمات.

ونظراً لما يتوقف عليه استيعاب هذه المعاني الرئيسية التي تَنْبَنِي عليها الحياة الزوجية، من تأملٍ وتدبر وتعمق، جاء التعقيب عليها بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

ثم عرض كتاب الله آية أخرى من آياته الكونية الباهرة، وهذه الآية تبدو لكل ذي عينين في خلق السماوات والأرض، واختلاف أَلْسِنة البشر، واختلاف ألوانهم، فالشخصُ العادِيّ مَتَى سَرَّح طرفه وأجال فكره في ملكوت السماوات والأرض لا بد أن يومن بأن وراء هذا الكون خالقاً مبدعاً حكيماً: ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾، وَمَتَى نظر إلى تكوين الإنسان عضويّاً ونفسيّاً وعقليّاً وجَد أنه في خصائصه العامة واحد لا تعدد فيه ولا اختلاف، ولكنه مع ذلك مختلف اللغات واللهجات، مختلف الألوان والصفات، بل إنه حتى عند استعمال اللغة الواحدة يختلف في أشكال النطق والأصوات، فمن الذي جعل من النوع الإنساني نوعاً واحداً، ومن الذي جعل من هذه الوحدة أصنافاً لا حد لها ولا حصر، سوى الحق سبحانه وتعالى الذي له الخلق والأمر. أما الشخص الذي بلغ من العلم درجة كافية، فإنه يجد المجال أمامه فسيحاً لاستكشاف أسرار الكون ونواميس الخليقة، مِمَّا يؤهله أكثر فأكثر، لتذوق لطائف الحكمة وعلم الحقيقة، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ـايَـٰتِهِ خَلْقُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

وحسب قراءة ﴿الْعَـٰلَمِينَ﴾ بفتح اللام كما في قراءة ورش عندنا يكون المعنى أن التعرف على هذه الآيات الكونية والبشرية

في متناول عموم الخلق، لا يختص به فريق دون فريق، لأنه على مرأى ومسمع منهم جميعاً، وتُروَى فيه قراءة أخرى بكسر اللام، وطبقاً لهذه القراءة الثانية يكون المعنى: إن الذين يدْركون أسرار هذه الآيات ويستخلصُون منها النتائج القريبة والبعيدة، الجامعة بين العلم والإيمان، هم الذين بلغوا درجة كافية من العلم، ويشهد لهذه القراءة قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا الْعَـٰلِمُونَ ﴾.

وإذا كان اختلاف الألسنة واختلاف الألوان عند دعاة «العنصرية والشعوبية» مصدراً للتمييز بين السلالات البشرية، ومبرراً لتصنيفها طبقات عليا وسفلى، فإن كتاب الله أزال عن هذه الظاهرة كل ما تشم منه رائحة التمييز العنصري بين البشر، واعتبر اختلاف الألسنة والألوان في النوع البشري، مع وحدته الأصلية، آية من آيات الله الكبرى، ودليلاً من دلائل قدرته وبالغ حكمته.

وانتقل كتاب الله إلى آية أخرى من آيات الله في الأنفس، وهي ظاهرة النوم بعد اليقظة، والسكون بعد الحركة، التي أكرم الله بها الإنسان، ليستطيع مواصلة الكد والسعي بِنشاط وفعالية وإتقان، إذ لو لم يمنح الحقُّ سبحانه عبادَه حق «الراحة اليومية» بعد التعب، لتعطلت طاقات الجسم والعقل عن العمل، ولما استطاع الإنسان القيام بخلافته عن الله في الأرض على أحسن وجه وأنفع أسلوب، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ءَايَـٰتِهِ مَنَامُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهارِ وَابْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أي يسمعون القرآن فيصدقونه، والحق فيتبعونه.

فراحة الاستغراق في النوم خصص لها الحق سبحانه وتعالى فترة الليل، المناسبة للهدوء والسكون، والسعي المتواصل للعمل وكسب الرزق خصص له الحق سبحانه وتعالى فترة النهار، المناسبة للحركة والنشاط، على أن القليل من الاسترخاء والنوم الخفيف خلال بعض فترات النهار كالقيلولة، مِما يساعد على تهدئة الأعصاب، وتجديد النشاط، ومضاعفة الإنتاج، حسبما دلت عليه الأبحاث الحديثة، وبذلك نفهم السر في قوله تعالى: ﴿ مَنَامُكُم بالَّيْلِ وَالنَّهارِ ﴾، قال جار الله الزمخشري: «ويجوز أن يراد منامكم في الزمانَيْن وابتغاؤكم فيهما»، إذ من الناس من ينام في الليل ومنهم من ينام في النهار، ومن الناس من يسعى لكسب رزقه في النهار، ومنهم من يسعى لكسب رزقة في الليل، حسب ظروف كل واحد ونوع عمله، وهذا هو ما عليه الحال في عصرنا الحاضر، ومقتضى هذه الآية وما شابهها أنّ الإنسان مطالب من ربه بالكد والعمل على مر الأيام، مُعترَفٌ له في نفس الوقت بحق الراحة والاستجمام.

واستعرض كتاب الله آية أخرى من آيات الله في الآفاق، وهي آية الغيث والمطر، الذي يُنزله من سَمْت السماء على الأرض، عَذْباً زلالاً، فيُحيي به الإنسان والحيوان والنبات، ويختزنه بقدرته وحكمته في خزائن أرضه لصالح الأحياء كافة، فيُجْريه عيوناً وينابيع وأنهاراً تسد حاجاتهم باستمرار ودون انقطاع، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ءَايَـٰتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

وحيث أن البرق والرعد وتحريك الرياح وتسخير السحاب من الظواهر التي تسبق أو ترافق نزول المطر، طبقاً لسنّة الله المنظِّمة للكون، نجد كتاب الله في غير ما آية يَلْفِت إليها الأنظار، لما تحتوي عليه من حكم وأسرار، جديرة بالدرس والتحليل والتأمل والاعتبار.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾، إشارةٌ إلى ما يتقلب فيه الإنسان بطبعه من الخوف والرجاء، فالإنسان عندما يشاهد وَمِيض البرق، أو يسمع هدير الرعد، يخشى أن يكون البرق برقاً خُلَّباً لا مطر فيه، أو يكونَ نذيراً بالصواعق المُزَمْجِرة، والزلازل المدمرة، أو يكونَ مصحوباً بأمطار طوفانية تهلك الحرث والنسل، كما أنه يأمُل ويرجو أن يكون البرق مصحوباً بالغيث النافع، فيغاث به الإنسان والحيوان، وتحيا به الأرض بعد موتها، فتنبت من كل زوج بهيج، وسبق بهذا المعنى في سورة الرعد قوله تعالى مع مزيد من البيان: (١٢ : ١٣): ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً، وَيُنشِىءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ، وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ، وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَّشَآءُ، وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾.

أما محاولة «استمطار» السحاب بطريقة صناعية فهي محاولة قاصرة، إذ لا بد من توافر الرياح الصاعدة التي تلقح السحاب ببخار الماء حتى يَجُود بالمطر، واللَّهُ تعالى وحده القادر على أن يرسل الرياح نُشُراً بين يدي رحمته، لأن إرسال الرياح وتصريفها يحتاج إلى طاقة عظمى وتدبير كبير هما

فوق طاقة الإنسان وقدرته المحدودة.

ثم جاء كتاب الله بآية أُخرى تَبْهَر الأبصار والبصائر، وتثير في الإنسان أعجب الخواطر وأعمق المشاعر، أَلَا وَهِيَ آية قيام الكرة الأرضية في الفضاء، في موقعها المحدد لها بأمر الله، واستمرار أجرام السماء سابحةً في الفضاء، في نفس الأماكن والمَدَارات المقدرة لها من عند الله، دون أن تزيغ عن مسارها، أو يصطدمَ بعضُها ببعض في فضاء الكون الفسيح، ودون أن تعتمد على أعمدة أو دعائم، مما اعتاده الإنسان في كل بناء قائم، وذلك ما يفصح عنه كتاب الله هنا في إيجاز وإعجاز، إذ يقول: ﴿ وَمِنَ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ﴾.. ويزيد هذا المعنى توضيحاً وتفصيلاً قوله تعالى فيما سبق من سورة الرعد (٢): ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ ، وقولُه تعالى فيما سبق من سورة الحج ( ٦٥ ) : ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾ ، وقولُه تعالى فيما سيأتي من سورة فاطر (٤١) : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ، وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ .

وهذه الظاهرة الكونية هي التي اصطلح العلم الحديث فيما وصل إليه حتى الآن من بحث واستطلاع، على تسميتها «بقوة الجاذبية» وهذه الجاذبية قائمة بين الأرض وما عليها، وبين الأرض وما عداها من الكواكب، وبين كل كوكب وآخر.

ومن وصف آيات الله في الأنفس والآفاق اتجه كتاب الله

إلى تذكير الغافلين والجاحدين بحقيقة البعث التي لا مجال للشك فيها، وحقيقة السطوة الآلهية المبسوطة على خلقه، الأحياء منهم والأموات، ولو كان بعض المتكبرين منهم لها كارهين، وذَلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ وَلَهُ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ، كُلٌّ لَّهُ قَٰنِتُونَ ﴾ أي خاضعون لأمره المطاع: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ، وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.

وإنما قال: ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ تقريباً للفهم، وجرياً على المُعتاد بَيْن الناس، من أن إنشاء الشيء لأول مرة يكون أصعب من إعادته، وإعادته تكون أسهل من إنشائه، وإلّا فالحق سبحانه وتعالى قادر على كل شيء بدءاً وإعادة: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٣٦: ٨٢)، وهذا التنزيه عن التشبيه هو المراد بقوله تعالى في نفس السياق: ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ﴾، أي هو فوق تصورات الخلق وتخيلاتهم، وله الوصف الأعلى الذي ليس لغيره مثله إذ: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾.

ثم تصدى كتاب الله للاعتراض على المشركين البسطاء، الذين يشركون بالله الأوثان والأصنام، إذ يقولون: «لَبَّيْك لا شريك لك» إلّا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك»، مبيّناً تناقضهم وتهافتهم في منطقهم الساذج البسيط، عندما لا يقبلون أن يكون مماليكهم شركاء لهم في شيء، نظراً للفرق الشاسع الذي يعتقدونه قائماً بين الفئتين، بينما هم يعتبرون أصنامهم مملوكين لله

وشركاء له في وقت واحد، الأمر الذي لا يرضَوْنه لأنفسهم بالنسبة لمماليكهم، وذلك قوله تعالى خطاباً للمشريكن ﴿ضَرَبَ لكم مَّثَلاً مِّنْ أنفُسِكُمْ، هَلْ لَكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتَ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ، تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمُ أَنفُسَكُمْ﴾. وواضح أن كتاب الله يجعل الرزق مشتركاً ومشاعاً بين جميع الفئات، ولا يرضى بأن تحتكره طبقة من الطبقات، وإلى ذلك يشير قوله تعالى هنا: ﴿ فِي مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ﴾.

وبعد أن استوفى كتاب الله في هذا الربع وصف عدد من آيات الله في الأنفس والآفاق عقَّب على ذلك كله قائلاً: ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يِعْقِلُونَ ﴾ فجعل ملكة العقل هي مفتاح الإقناع والاقتناع، مَتَى استعملها الإنسان استعمالاً موضوعياً ومنهجياً سليماً، وكان باحثاً عن الحق الصراح والحقيقة المجردة دون هوى سابق، ولا تعصب لاحق، وتأكيداً لهذا المعنى قال تعالى في ختام هذا الربع: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَمَنْ يَّهْدِي مَنَ اَضَلَّ اَللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾.

# الربع الثالث من الحزب الواحد والأربعين في المصحف الكريم

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ
لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ
وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾
وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم
مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ
ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا
فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً
فَرِحُوا۟ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا
هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ

وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَآتِ ذَا
الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ
يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْتُم مِّن
رِّبًا لِّتُرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم
مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾
اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ
مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ
عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي
النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾
قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ
كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن
يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ
كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾
وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ
الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِالْبَيِّنَٰتِ
فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ
فِى السَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ
مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ
يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ
لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ الْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾
وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾
فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟
مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ الْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ
إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

# الربع الثالث من الحزب الواحد والأربعين في المصحف الكريم

## عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول تفسير الربع الثالث من الحزب الواحد والأربعين في المصحف الكريم، ابتداء من قوله تعالى: ﴿ فَـأَقِمْ وَجْهَـكَ لِلدِّينِ حَنِيفـاً، فِـطْرَتَ اَللَّهِ اِلتِي فَـطَرَ اَلنَّـاسَ عَلَيْهَا ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُّومِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾.

في بداية هذا الربع وجه كتاب الله الخطاب إلى خـاتم الأنبياء والمرسلين، وعن طريقهِ إلى كافة المومنين، يثبّت فؤادهم على الـدّين الحنيف، ويدعـوهم إلى التفاني في التمسـك بـه والثبات عليه، دون التفاتٍ لما سواه، ويُذكِّرهم بأن الإسلام هو «دين الفطرة» القيّم، الذي لا تناقض في عقيدته، ولا إعوجاج في شريعته، فهو الملائم للفطرة المنسجمُ معها منذ البدايـة، وهو الموافقُ للنظر الصحيح، والمطابقُ للعقـل السليم في النهايـة، وكيـف لا وهو الدين الوحيد الذي يُعلِن وحدة النوع الإنساني على اختلاف ألسنته وألوانه وأقوامه، ويعلن وحدة الكون على اختلاف أجـزائه وتنـوع أجرامـه، ويعلن وحدة المكـوِّن المدبِّـر للكـون

والمهيمن على قيامه ووحدة نظامه، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اَللَّهِ اِلتِي فَطَرَ اَلنَّاسَ عَلَيْهَا، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اِللَّهِ، ذَٰلِكَ اَلدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ اَلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، قال جار الله الزمخشري موضحاً لمعنى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾: «من اهتم بالشيء عقد عليه طَرْفه، وسدَّد إليه نظره، وقوَّم له وجهَهُ مقبلاً عليه» وقال أبو حيان في توضيح معنى «الفطرة»: «رَجَّح الحذّاق أن الفطرة هي القابلية التي في الطفل للنظر في مصنوعات الله، والاستدلال بها على وُجوده، فيومن به ويتَّبع شرائعه، لكن قد تَعْرِض له عوارض تَصْرفه عن ذلك، كتهويد أبويه له وتنصيرهما، وإغوَاء شياطين الإنس والجن»، ونقل القرطبي عن شيخه أبي العباس قوله في تحليل معنى الفطرة: «إن الله تعالى خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق، كما خلق أعينهمْ وأسماعهم قابلة للمرئيات والمسموعات، فما دامت باقية على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية أدركت الحق، ودينُ الإسلام هو الدين الحق».

وقولُه تعالى هنا: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اِللَّهِ ﴾ إمَّا أن يكون خبراً بمعنى الطلب، وإمَّا أن يكون خبراً على بابه، فعلى الوجه الأول يكون معناه النهيَ عن إفساد الفطرة وتغييرها بالتربية الفاسدة، والقدوة السيئة، والاعتقاد الباطل، والإبقاءَ على الفطرة كما خلقها الله، مع توجيهها في نفس الاتجاه، وعلى الوجه الثاني يكون معناه الإخبار بأنه لا تبديل للقابلية التي توجد في الطفل من قِبَل الخالق، فقد ساوى بين الناس في الفطرة السَّلِيمة وجعلهم فيها سواسية.

ثم أمر الحقُّ سبحانه وتعالى عباده المومنين بالإنابة إليه وتقواه، وإقامة الصلاة والاعتصام بحبل الله، وحذَّرهم مما كان عليه غيرهم من الفرقة والاختلاف، حتى يظلوا في أخوة وائتلاف، وذلك قوله تعالى: ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ، وَاتَّقُوهُ، وَأَقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ، وَلَا تَكُونُواْ مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ مِنَ اَلذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً، كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى وصف بعض الحالات النفسية التي يكون عليها ضعفاء النفوس وضعفاء الإيمان، عندما تنزل بهم نائبة من النوائب، فيضطرهم الخوف والجزع، إلى أن يتوجهوا إلى الله بالدعاء، حتى إذا تخلصوا من أزماتهم أشركوا بالله غيره، ومن الشرك أن يتخذ الواحد منهم إِلَهَهُ هواه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ اَلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ، ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً اِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾، و«الضر» هنا الشدة، و«الرحمة» الخلاص منها ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُم﴾، أي: ليُمعِنوا في تجاهل نعمتنا والكفر بإحساننا، ﴿ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾: هذا إشعار لهم بِأن العذاب ينتظرهم، ﴿ أَمَ اَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰناً ﴾، أي: كتاباً فيه حجة لهم وبرهان، ﴿ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِ، يُشْرِكُونَ ﴾.

وكذلك الأمر إذا نالوا حسنة انبسطت لها أسارير وجوههم غبطة وسروراً، وإذا نزلت بهم سيئة أصابهم اليأس والقنوط، واعتبرُوا مَا نزل بساحتهم لعنة وثبورا، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا اَلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا، وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةُۢ بِمَا

قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾.

ثم عقَّب كتاب الله على ذلك بما يفيد أنّ سَعة الرزق لا تتعلق بإرادة الإنسان وحده، بل تتدخل فيها عدة عوامل، ومردها في النهاية كما في البداية إلى الله، ولذلك وُجِد بين الناس موسر ومعسر، ووُجد في البلدان بَلَد يزخر بالثروات الطبيعية، وبلد يكاد يكون قاعاً صفصفاً، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اَللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَّشَآءُ وَيَقْدِرُ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِقَوْمٍ يُومِنُونَ ﴾.

لكِنَّ كتاب الله بادر في الحين بالتوجه إلى كُلّ من وسَّع الله رزقه، فعَرَّفه بأن عليه في ماله حقوقاً للغير، وطالبه بأداء تلك الحقوق لأصحابها كفايةً لحاجتهم، وذكَر على سبيل المثال ذوي القربى، والمساكين، وعابري السبيل، ممن تنقطع بهم الأسباب وهم في سفر، ولا يجدون ما ينفقون، وذلك قوله تعالى في نفس السياق: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا اَلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ اَلسَّبِيلِ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اَللَّهِ، وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وقدم «ذا القربى»، لأن بره فيه صدقة وصلة للرحم.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ لِّلذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اَللَّهِ ﴾، إشارةٌ إلى أن الاعتبار بالنية والقصد، لا بمجرد الفعل وحده، ومعنى ﴿ وَجْهَ اَللَّهِ ﴾ أن يكون العطاء خالصاً لله، وسعياً في رضاه، نظير قوله تعالى في آية أخرى (٩٢: ٢٠): ﴿ إِلَّا اَبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ اِلَاعْلَىٰ ﴾.

ثم انتقل كتاب الله إلى الموازنة بين الربا والزكاة، وما يحُلّ بساحة المرابين من نقص مادي ونفسي، وما يناله المُزَكُّون من نَماء مادي وروحي، فقال تعالى مخاطباً للفريق الأول: ﴿وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن رِّباً لِّيَرْبُوا فِي أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وقال تعالىٰ مخاطباً للفريق الثاني: ﴿وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾.

وهكذا أنذر الله المرابين الذين يُمارسون الربا لتنمو أموالهم على حساب الآخرين، بأن أموالهم لا بد أن تؤول إلى نقصان، وإن كانت في الظاهر تنمو وتزداد باستمرار، والأعمال والأمور بخواتيمها، أما النقصان النفسي الذي يصيبهم فقد تضمَّنه قول الله تعالى فيما سبق من سورة البقرة (٢٧٥): ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ، وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾، وعلى العكس من ذلك بشّر الله الذين لا يستغلون الخلق، بل يتبادلون النفع معهم، ويزكون أَمْوالهم ابتغاء مَرضاته، بنماء أرزاقهم، ومضاعفة ثوابهم، وهذا معنى قوله تعالى هنا: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى (٢ : ٢٤٥): ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَـٰعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾، وفي آية ثالثة: (٢ : ٢٧٦): ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾، أي: يُنمّيها ويضاعفها.

ولتذكير الأشِحَّاء والبخلاء من الأغنياء، المقصِّرين في أداء حقوق المعوِزين والفقراء، بأنهم مدينون لله سبحانه بنعمة الإيجاد

ونعمة الإمداد، قال تعالى: ﴿ اَللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾، فالخلق كله من صنع الله، والرّزق كله من عند الله، والحياة والموت بيد الله، وما على الإنسان إذا كان عاقلاً إلّا أن يتذكر هذه الحقائق البديهية، ويستخلص نتائجها الحتمية، ثم قال تعالى رداً على المشركين: ﴿ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّنْ يَّفْعَلُ مِّن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ، سُبْحَـٰنَهُ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

وتصدَّى كتاب الله بعد ذلك للكشف عن حقيقة اجتماعية وأخلاقية بعيدة الأثر، أَلَا وهي أَن الإنسان وحده هو العنصر الأساسي في كل فساد يقع في الأرض، وكل انحِرافٍ يصيب المجتمع، وأنه هو المسؤول مباشرة عن نتائج فساده وإفساده مادياً وروحياً، فما عليه إلّا أن يتحمل نتائج عمله انحلالاً واختلالاً، خراباً وزوالاً، ولو وقف الإنسان في سلوكه عندَ حد الصلاح والإصلاح، اللذين من أجلهما تَوَّجَهُ اللَّهُ بالخلافة عنه في عمارة الأرض، لما وقع في الأرض فساد، ولسعدت البلاد والعباد، وذلك ما ينطق به قوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ اَلْفَسَادُ فِي اِلْبَرِّ وَالْبَحْرِ، بِمَا كَسَبَتَ اَيْدِي اِلنَّاسِ، لِيُذِيقَهُم بَعْضَ اَلذِي عَمِلُواْ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ، قُلْ سِيرُواْ فِي اِلَارْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الذِينَ مِن قَبْلُ، كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾.

ومن مظاهر الفساد في الأرض الإباحيةُ التي تتحدَّى كل القيم والأخلاق، واحتكار الثروات والأرزاق، والتنكرُ لدين الحق، وتجاهلُ الخالق واحتقار الخلق، ومن آثار الفساد زوالُ الطمأنينة، وانتشار الخوف، وفقدان الثقة بين الأفراد والدول، والتلوث

الساري في مختلف الأجواء والأرجاء، والنقص من الأموال والأنفس والثمرات. وإلى ما يتعرض له الإنسان من الابتلاء والامتحان، يشير قوله تعالى هنا: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾.

وقولُه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، إشارةٌ إلى أن الله تعالى لا يريد الانتقام من عباده، عند ما يسلط عليهم آثار أعمالهم، وإنما هي بمنزلة السَّوْط يؤدبُهم به، عسى أن يغيِّروا ما بأنفسهم، ويعودوا إلى صراط الله الحميد، فيبسُط لهم من جديد بساط نعمته، ويخلع عليهم ردَاء رحمته، وبنفس هذا المعنى جاء قوله تعالى في آية أخرى (٧: ١٦٨): ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وقولُه تعالى هنا: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ دليل على أن الذين عاقبهم الله على الفساد والإفساد لم يكونوا كلهم مشركين، بل بعضهم مشرك، وبعضهم ليس بمشرك، ولكنه من عُصاة المومنين المصرين على المعصية، وإذن فما دون الشرك من المعاصي يؤدي إلى نفس النتيجة، ويكون سبباً فيما ينزل بالخلق من الشدائد والأزمات، والنوائب والمُلِمَّات.

ووَجَّهَ كتابُ الله الخطاب إلى كل إنسان عاقل يريد تحقيق إنسانيته، مع السلامة في الدنيا من الآفات، والنجاة في الآخرة من الأهوال والشدائد، داعياً إلى الإقبال على دين الله الذي هو الدين القيِّم، والتعلق به، وعدم الالتفات إلى غيره، فقال تعالى:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ، يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾، أي: يتفرقون: فريق في الجنة وفريق في السعير، ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحاً فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾، من «المَهْد والمهاد» بمعنى الفراش، أي: يوطِّئون لأنفسهم في القبر مضجعاً مُريحاً، وفي الجنة مقراً فسيحاً، ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَٰفِرِينَ ﴾.

ثم لَفَت كتابُ الله أنظار البشر جميعاً إلى ما مَنَّ عليهم به من تحريك الرياح وتصريفها، طبقاً لنواميس كَوْنِية محكمة، تسهّل عليهم الوصول إلى تحصيل منافعهم، وتحقيق مصالحهم في البر والبحر، فقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ءَايَٰتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾، أي: مبشرات بالمطر، لأنها تسبقة وتتقدمه، ﴿ وَلِيُذِيقَكُمْ مِّنْ رَّحْمَتِهِ ﴾، وهي رحمة الغيث والخصب، ﴿ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ ﴾، أي: عند هبوب الرياح وغيرها من الوسائل المُلَائِمة للملاحة في البحر ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾، والمراد «بالفضل» هنا الحصول على الرزق من طريق الكسب والتجارة ونحوِهَا، ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾، أي: تتوجهون بالشكر لله على نعمه، الظاهرة والباطنة.

وانتقل كتاب الله إلى مخاطبة خاتم أنبيائه ورسله، مذكِّراً إياه بالمآل الذي يصير إليه المجرمون المكذبون برسالات الله، ومعرفاً له بمصير رسله والمومنين، وأنه نصر مؤزر من عند الله وفتح مبين، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ

قَوْمِهِمْ، فَجَآءُوهُم بِالبَيِّنَـٰتِ، فَانتَقَمْنَا مِنَ الذِينَ أَجْرَمُواْ، وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُومِنِينَ ﴾.

وعاد كتاب الله مرة أخرى إلى الكشف عن أسرار الرياح التي ينفرد بتحريكها وإرسالها مَنْ لَه الخلق والأمر، والدَّورِ الذي تقوم به في إثارة السحب وإنزال الأمطار، إغاثة للعباد ورفقاً بهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ اَللَّهُ الذِي يُرْسِلُ الرِيَـٰحَ، فَتُثِيرُ سَحَاباً، فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾، والإشارة هنا إلى السحاب عندما يكون متصلاً يملأ أرجاء الأفق: ﴿وَيَجْعَلَهُ كِسَفاً﴾، أي: قطعاً، والإشارة هنا إلى السحاب عندما يكون متقطعاً، ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ ﴾، أي: المطر، ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِ ﴾، أي: من خلال السحاب، ﴿ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِ مَنْ يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾، فرحاً منهم بنزول الغيث، لحاجتهم إليه، وتوقفهم عليه، ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَنْ يُّنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾، أي: كانوا قبل نزول المطر في ذهول وحيرة، قانطين من نزوله، لطول عهدهم بالجدب، مكتئبين خوفاً من القحط والمجاعة التي تهدد حياتهم، ولهذا كان استبشارهم على قدر إبْلاَسِهم واغتمامهم.

وكون الرياح هي التي تثير السحاب وتُلَقِّحه ببخار الماء لكي يمطر، حقيقة علمية كبرى كشف الستار عنها عالِمُ الغيب الذي يعلم السر في السماوات والأرض، منذ انزل كتابه العزيز قبل أربعة عشر قرناً، عندما قال هنا: ﴿ يُرْسِلُ الرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً ﴾، وقال في آية أخرى سبقت في سورة الحجر: (٢٢):

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾، ولم يهتد العلم الحديث لإدراك هذه الحقيقة، ودراسة دورات الرياح العامة والخاصة إلّا في العهد الأخير. ثم قال تعالى مذكِّراً ومعقّباً: ﴿ فَانظُرِ إِلَىٰ أَثَرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ، إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

ووصَف كتابُ الله حال الزرّاع الذين تتعرض مزارعهم أحياناً لريح تجعل زرعهم يابساً مصفرّاً، وبدلاً من الرضى بالقضاء والقَدَر يُظهِرون السخط والامتعاض، ناسين ما أنعم الله عليهم به من قبل، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً ﴾، أي: رَأَوْا زرعهم مصفراً، ﴿ لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾.

وخُتِم هذا الربع بخطاب إلّهي رقيق، موجّه إلى الرسول الأعظم، حتى لا يضيق صدره ولا يحزن، بعدما بلغ الرسالة وأدّى الأمانة: ﴿ فَمِنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ (١٠: ١٠٨)، ولا مسؤولية على الرسول بعد ذلك، ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ (٥: ٩٩)، وذلك قوله تعالى مبرِّئاً لرسوله من كل تقصير أو إهمال: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ اذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ، وَمَا أَنْتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ، إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُومِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

# الربع الأخير من الحزب الواحد والأربعين في المصحف الكريم

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن
ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ
ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ
تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ
كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ
لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ
وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ
ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا
لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ
لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ
يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ

وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾

ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ

يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ

وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ

ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ

ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن

تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً

فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا

خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا

يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ

لُقْمَٰنُ لِابْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ
لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ
أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي
وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي
مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا
وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن
فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ
لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ
الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾
وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ
اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ
وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾
أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ
عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ
عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ

ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ
يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٢١

# الربع الأخير من الحزب الواحد والأربعين في المصحف الكريم

## عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول تفسير الربع الأخير من الحزب الواحد والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة الروم: ﴿ اَللَّهُ الذِي خَلَقَكُم مِّن ضُعْفٍۢ، ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضُعْفٍ قُوَّةً ﴾، إلى قوله تعالى في سورة لقمان المكية: ﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا، أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَـٰنُ يَدْعُوهُمُ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾.

في أواخر الربع الماضي تحدث كتاب الله عن تصريف الرياح وإثارة السحب وإنزال الأمطار، ونبَّه كلَّ إنسان متبصر إلى آثارها الحميدة في الأرض، مما يستوجب شكر الله والاعتراف بفضله وكرمه، إذ قال تعالى: ﴿ فَانظُرِ اِلَىٰ أَثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ اِلَارْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾، وهذه الظواهر الطبيعية كلها من آيات الله في الآفاق.

وفي بداية هذا الربع أورد كتاب الله آية أخرى من آياته في الأنفس، فتحدث عن خلق الإنسان والمراحل التي يتقلب فيها من ضعف إلى قوة، ومن قوة إلى ضعف، منذ عهد الطفولة إلى عهد

الشَّيْخوخة، مما يمر به النوع الإنساني في حياته الطبيعية، وذلك قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الذي خَلَقَكُمْ مِّن ضُعْفٍ، ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضُعْفٍ قُوَّةً، ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضُعْفاً وَشَيْبَةً، يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ، وَهُوَ اَلْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾.

وواضح أن أمام الإنسان في كل مرحلة من تلك المراحل مجالاً واسعاً للتأمل والاعتبار، وفرصةً مناسبة للتعمق فيما يحيط بنشأته وتكوين بِنْيته، وأجهزة جسمه، من لطائف وأسرار، مما يساعده على اكتشاف أثر رحمة الله وبالغ حكمته، ويحمله على الاقتناع التام بواسع علم خالقه وعظيم قدرته: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِي أَنْفُسِهِم ﴾ (٣٠: ٨)، ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٥١: ٢١)، وقد شغلت الدراسات والبحوث المتعلقة بالإنسان حيزاً كبيراً من العلوم والمعارف، التي تحاول أن تكشف عما في الإنسان من عجائب خَلْقِ الله وبدائع صنعه، عضوياً ونفسياً، عقلياً وروحياً، لكن لا تزال جوانب عديدة من هذا الكائن المعلوم وَ«المجهول» في آن واحد، الذي هو الإنسان، لغزاً من ألغاز الخليقة، وسرّاً من أسرار الطبيعة، إلى الآن وحتى الآن: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ اَلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (١٧: ٨٥).

وكما وصف كتاب الله الإنسان بكونه مخلوقاً من عَجَل عندما قال (٢١: ٣٧): ﴿ خُلِقَ اَلِانْسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾، ليلتزم الأناة في مساعيه، والتؤدة في تصرفاته، وصفه هنا بكونه مخلوقاً من ضعف: ﴿ خَلَقَكُم مِّن ضُعْفٍ ﴾، رغماً عما منحه من قوة فكرية، ولياقة بدنية، تنبيهاً له على التماس أسباب القوة المادية

والروحية، حتى يُعوّض النقص الذي يعانيه في كل مرحلة من مراحل حياته المتتالية.

وكما قال تعالى في الربع الماضي في شأن السحاب الذي تثيره الرياح: ﴿ فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾، قال هنا في هذا الربع، عقِب ذكره للمراحل التي يمر بها الإنسان: ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ رداً على الجاحدين، وتنبيهاً للغافلين وتذكيراً للناس أجمعين، بأن إرادة الله «الخالق البارىء المصور» مهيمنة على الكون بصفة مستمرة، وأن مشيئة الله التي لا تحدها حدود هي التي تحدد النواميس لتكوين الإنسان، وغيرِهِ من بقية الأكوان، فلا شيء من سُنن الكون خارجٌ عن إرادته، بل الكل متعلق بتدبيره وجارٍ وفق مشيئته، ولذلك جاء التعقيب بقوله تعالى في نفس السياق: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾، الذي أحاط بكل شيء علماً، وهو على كل شيء قدير.

وانتقل كتاب الله إلى وصف حال المُعَانِدين البسطاء، المكذبين بالبعث، عندما يُفاجَأون بقيام الساعة، فيحاولون الاعتذار عن كفرهم، زاعمين أنهم لم يتمكنوا من معرفة الحق خلال حياتهم القصيرة: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ، كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤفَكُونَ ﴾، أي: كما كانوا يمارسون الأفك والكذب في الدنيا ها هم يحاولون أن يمارسوه من جديد في نفس الآخرة، مؤكدين كذبهم بالقَسَم واليمين، ﴿ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى (٥٨ : ١٨): ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ، وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ،

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَـٰذِبُونَ ﴾، لكن لا يلبث «أُولُو العِلم وَالإِيمان» أن يتصدَّوْا في الآخرة لزعمهم بالرد، ولكذبهم بالرفض، كما تصدّوا لذلك في الدنيا: ﴿ وَقَالَ الذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ وَالإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَـٰبِ اِللَّهِ إِلَى يَوْمِ اِلْبَعْثِ، فَهَـٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ، وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

وبيَّنَ كتابُ الله أنه عندما تقوم الساعة لا يُقبَل من الظالمين أيُّ اعتذار، لانصرام الآجال المحدّدة للإعذار، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ، وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾، إذْ لا مجال للتوبة والتلاوم والعتاب، بعد أن حَقت عليهم كلمة العذاب.

ثم جدَّدَ كتابُ الله التعريف برسالة القرآن، مؤكداً أنه جعل هذه الرسالة مُيَسَّرة للفهم والإدراك في متناول الناس أجمعين، وأن كتاب الله قد وضَّح مَعَالِمَها، بما لا يدع مجالاً للشك فيها، ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا اَلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (٥٤: ١٧)، فلا غموض ولا إبهام في الرسالة، ولا تقصير ولا إهمال من جانب الرسول، واللومُ كل اللوم يقع على عاتق المعاندين المبطلين، الذين يجادلون في الله بغير علم، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَّرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا اَلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَل، وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ اَلذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنَ اَنتُمُ إِلَّا مُبْطِلُون، كَذَ ٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ اِلذِينَ لَايَعْلَمُونَ ﴾، أي: يطبع الله على قلوب الجهلة المعاندين عندما تقسو وتصدأ، ولا يرجى منهم قبول للحق ولا انقياد إليه، وكيف لا وهم يُسَمُّون المحِقين «مبطلين» متحدِّينَ الله

ورسوله والمومنين، ﴿ لَّيَقُولَنَّ اَلذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنَ اَنتُمُ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾، بينما هم في الواقع أعْرَقُ الناس في الباطل.

وأخيراً وجَّه كتابُ الله الخطاب إلى الرسول الأعظم، وإلى كل مومن بصدق رسالته، آمراً رسوله ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين، بالصبر على أذى المخالفين، والثبات أمام استفزاز الجاحدين، مؤكداً له ولمن اهتدى بهديه أنَّ وعد الله بالنصر المكين، والفتح المبين، وعدٌ لا يتخلف، لأنه وعد حَق، صادر عن الحق، ﴿ وَعْدَ اللَّهِ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ (٣٠: ٦)، وذلك قوله تعالى في ختام سورة الروم المكية: ﴿ فَاصْبِرِ اِنَّ وَعْدَ اَللَّهِ حَقٌّ، وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ اَلذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾.

ومن سورة الروم المكية ننتقل إلى سورة لقمان المكية أيضاً سائلين من الله الإعانة والمدد، وهذه السورة هي سادس سورة وردت مبدوءة بالحروف الهجائية المقطعة، المتعارفة «بفواتح السور» في نسق واحد وسلسلة واحدة، ابتداءً من فاتحة سورة الشعراء ﴿ طسم ﴾ فسورة النمل ﴿ طس ﴾ فسورة القصص ﴿ طسم ﴾ فسورة العنكبوت ﴿ الم ﴾ فسورة الروم ﴿ الم ﴾ فسورة لقمان التي نحن بصدد تفسيرها ﴿ الم ﴾ وقد بينّا في عدة مناسبات ما ترمز إليه هذه الحروف، وكونَها تأتي متبوعة بالحديث عن الذكر الحكيم، والتعريف به والانتصار له، إمَّا تلويحاً وإمَّا تصريحاً كما في هذه السورة: ﴿ أَلَٓمِّ، تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْحَكِيمِ ﴾ إشارةً إلى أن الحروف العادية التي ينطق بها الناس تنقلب إلى وحي سماويّ بالغ الحكمة والإعجاز، عندما ينفخ فيها

الحق سبحانه وتعالى من سر علمه وحكمته، ويَنزِل بها على قلب رسوله «الروحُ الأمين»، ومِثْل ذلك يجري في العناصر الطبيعية التي هي مُلْقاة بين أيدي الناس، لَكنهم لا يستطيعون أن يخلقوا منها كائناً حَيّاً يضاهون به صنع الله ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾.

وإنما سميت هذه السورة «سورة لقمان» لورود اسمه فيها مقروناً بجملة من الوصايا النافعة التي وعظ بها ابنه، حيث قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ ﴾ الآية.

وكما قال تعالى فيما سبق من «سورة يونس» عقِبَ الافتتاح بالحروف الهجائية: ﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ الحكيم ﴾ قال تعالى هنا في «سورة لقمان»: ﴿ الٓمٓ. تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ وسبقهما في سورة آل عمران قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾.

وإنما وُصِف الكتابُ بكونه «حكيماً» أي: ذا حكمة، لأن الحكمة هي إصابة الحق في الاعتقاد والقول والفعل، والسلوك الخاص والعام، لِلأفراد والجماعات، وما تضمنه كتاب الله في هذه المجالات صادر عن أحكم الحاكمين، العليم الحكيم، الذي لا يَضِل ولا يَنسَى، والذي يعلم السر والخفي: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (٢٥ : ٦)، ومن أجل ذلك كان عِيَاراً على ما سواه، ومهيمناً على ما عداه، فما وافقه حق، وما خالفه باطل، سواء كان سابقاً أو لاحقاً.

ووصَف الحقُّ سبحانه وتعالى كتابَه بكونه: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ و«المحسنون» هم الذين أحسنوا فهمه، وأحسنوا تطبيقه، وأحسنوا الدفاع عنه، وراقبوا مُنزِل الكتاب، فلم يهجروا الكتاب، وبذلك يكون «هدى لهم» فلا تختلط عليهم السبل، ولا يعمهم الجهل والضلال، ويكون «رحمة لهم» فلا تصيبهم الشرور والآفات، ولا تحل بساحتهم الأزمات تلو الأزمات، وإنما يَنْدَرجون في عداد المحسنين، فينعموا بهداية الله ورحمته، إذا أدوا ما عليهم من حقوق الله وحقوق العباد، وحق الله الأول: هو إقامة الصلاة على الوجه الأكمل ظاهراً وباطناً، والدوام عليها في أوقاتها دون انقطاع، وحق العباد الأول: هو إيتاء الزكاة للمعسرين، وحصولهم على ما يَكفي حَاجَتهم من مال إخوانهم الموسرين، وهذان الحقان متلازمان لا يفترق أحدهما عن الآخر، ولا يغني أحدهما عن الآخر، ولذلك وصف كتاب الله المحسنين بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ على غرار قوله تعالى في فاتحة سورة البقرة: ﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾، إشارةً إلى أن الإيمان لا يكون تاماً وكاملاً إلّا إذا انْدَرَج فيه الإيمانُ بعالَم الشهادة وعالَم الغيب، والإيمانُ بالنَّشأة الأولى والنشأة الآخرة، لأنهما متلازمان تلازم المقدمة والنتيجة. والإيمان بالآخرة يتضمن الإيمان بجزاء الله، لمن ابتغى بعمله وجه الله، أما الإيمان بالشهادة دون الإيمان بالغيب فلا فضل فيه لأحد، إذْ يستوي فيه المومن والكافر، والبَرُّ والفاجر ثم نوَّهَ كتابُ الله

بالمومنين المحسنين فقال: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، وبهذه الصيغة نفسها، نوَّه كتاب الله في بداية سورة البقرة، بالمومنين المتقين.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن المُتْرَفين المتكبرين في الأرض، الذين يُضِلون الناس بغير علم، ووصَف تفننَهم في أساليب التَّرَف والتمويه والتضليل، وسخاءَهم ببذل المال في هذا السبيل، واستعمالهم لمختلِف وجوه الإغراء والإغواء، حتى يُعوِّدوا الناس على حياة اللهو والعبث وعدم المبالاة، وخَلْع بُرْقُع الحَياء، فينصرف الناس عن سماع الحق واستيعابه، ولا يَطرُقون بعد ذلك باباً من أبوابه، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اَلنَّاسِ مَنْ يَّشْتَرِي لَهْوَ اَلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اِللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَيَتَّخِذَهَا﴾، أي: يتخذ سبيل الله، ﴿هُزُؤاً، اوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ، وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَّمْ يَسْمَعْهَا، كَأَنَّ فِيٓ أُذْنَيْهِ وَقْراً﴾، أي: ثِقلاً وَصمماً، ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ اَلِيمٍ﴾، وجزاء الكِبْر الإهانة، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (٣: ١٧٨)، إذِ الجزاءُ من جنس العمل، وعلى العكس من ذلك يكون جزاء الصالحين من المومنين، الذين يمارسون الصالحات، فينفعون وينتفعون، وذلك قوله تعالى: ﴿اِنَّ اَلذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتُ النَّعِيمِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا، وَعْدَ اَللَّهِ حَقّاً﴾، أي: لا خُلْفَ فيه ولا تراجع، ﴿وَهُوَ اَلْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وأعاد كتاب الله في هذا المقام الحديثَ عن جُملة من الظواهر الكونية في السماء والأرض، ليَلْفِت إليها الأنظار، عسى

أن تهتدي بها البصائر والأبصار.

الظاهرة الأولى: قيام السماوات، وثباتها في أماكنها دون استناد إلى عَمَد.

والظاهرة الثانية: استقرار الأرض، وتوازنها بالجبال الرواسي مِنْ فوقها، حتى لا تضطرب بمَن عليها من الإنسان والحيوان، وَمَا عليها من معالم الحضارة والعمران.

والظاهرة الثالثة: عمارة الأرض بسلالات الإنسان، وغيره من أصناف الحيوان، على اختلاف الصور والأحجام والألوان.

والظاهرة الرابعة: إنزال المطر من السماء، أي: إنزاله من جهتها وسَمْتها، وإنبات النبات في الأرض بعد موتها.

وذلك قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا، وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾، أي: حتى لا تهتز ولا تضطرب، ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾.

ولا يَسَعُ الإنسان العادي أمام كل ظاهرة من هذه الظواهر الكونية، فضلاً عن الباحث المتطلع إلى معرفة أسرار الكون، والمعنِيِّ بالكشف عن نواميس الطبيعة، إلاّ أن يقف مبهوراً أمامها، مأخوذاً بعظمة مُبدعها وصانعها، هاتفاً من أعماق قلبه مع كتاب الله إذ يقول: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ، فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِ، بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(٣١: ١١).

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن لقمان الحكيم ووصاياه الخالدة التي وجهها إلى ابنه وهو يعظه، حتى يسلكَ مسلكَه كلُّ أب رشيد، وقد سجل كتاب الله من بينها خمس وصايا:

**الوصية الأولى**: أن يومن بوجود الله ووحدانيته وربوبيته، ولا يشرك به أحداً، ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ، إِنَّ اَلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

**الوصية الثانية**: أن يراقب الله في حركاته وسكناته، وخواطره ومتمَنَّيَاته، لأن الله تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ، فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ اَوْ فِي اِلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي اِلْاَرْضِ يَاتِ بِهَا اَللَّهُ، إِنَّ اَللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

**الوصية الثالثة**: أن يقيم الصلاة ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، ويوطِّنَ نفسه على تحمل الأذى في هذا السبيل، ﴿يَٰبُنَيِّ أَقِمِ اِلصَّلَوٰةَ، وَامُرْ بِالْمَعْرُوفِ، وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ، إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْاُمُورِ﴾.

**الوصية الرابعة**: أن يتواضع لعباد الله، ويقبل عليهم بوجهه مستأنساً، وأن يبتعد عن مظاهر الكِبْر والخُيَلاء في حديثه معهم، ومِشْيته بينهم، ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ، وَلَا تَمْشِ فِي اِلْاَرْضِ مَرَحاً، اِنَّ اَللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ، وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾.

**الوصية الخامسة**: أن لا يجهَرَ بِأكثر من الحاجة ولا يرفع صوته على الناس، فضلاً عن أن ينهَرَهم مهدداً متوعداً، أو

ساخطاً وغاضباً، ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ، إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾.

وبتسجيل هذه الوصايا الخمس من وصايا لقمان «الحكيم»، في آيات الذكر الحكيم، فتَحَ كتابُ الله الباب على مصراعيه في وجه «حكمة» الحكماء، وبين أنَّ الحكمة تؤخذ من كلِ أحد إذا كانت حكمة صحيحة موافقة للدين والأخلاق، وليست مجرد مُهاترة أو هُراء، كما هو الشأن في المتطفلين على الحكمة من الأدعياء.

وتخللت الحديثَ عن لقمان ووصاياه الخمس عِدَّةُ آيات كريمة، في طليعتها آية تحدثت عن تلقين الله الحكمةَ للقمان، ودعوته إلى شكر الله على نعمه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنُ اشْكُرْ لِلَّهِ، وَمَنْ يَّشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، ثم آيتان في التذكير بحقوق الوالدين والبرور بهما فيما لا معصية فيه، وإبرازِ الأهمية الخاصة لدور الأمّ في حياة الأسرة، ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَالِدَيْهِ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَىٰ وَهْنٍ، وَفِصَـٰلُهُ فِي عَامَيْنِ، أَنُ اشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ، إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ الآية، ثمَّ آية أخرى تَوجَّه فيها الخطابُ الإلٓهي إلى كافة البشر، ممتناً عليهم بنعمه الظاهرة والباطنة، وتسخير ما في الكون من الطاقات والثروات لمنفعتهم، ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾.

وخُتِمَ هذا الربع بآيتين كريمتين كشف فيهما كتاب الله الستار عن عناد الذين استولى عليهم التقليد الأعمى، فأخذوا

يجادلون في الحق دون حجة ولا برهان، وسَنَدُهم الوحيد هو التمسك بالهوى ومتابعةُ الشيطان، وذلك قوله تعالى في نهاية هذا الربع: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُجَـٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدىً وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾.

# الربع الأول من الحزب الثاني والأربعين
# في المصحف الكريم

وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ
وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ
ٱلۡأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ
فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمۡ
قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم
مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ
بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ
إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن
شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ
مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلۡقُكُمۡ
وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾
أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي

ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى
وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ
مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٠﴾
أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم
مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٣١﴾ وَإِذَا
غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا
نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا
كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ
وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ
جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ
ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ
ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ
مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ
وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴿٣٤﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ
أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ اللَّهُ الَّذِي
خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ
عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾
يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَآءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ
مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ
الْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ
مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ
السَّمْعَ وَالْأَبْصَٰرَ وَالْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓا أَءِذَا ضَلَلْنَا
فِي الْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾

# الربع الأول من الحزب الثاني والأربعين في المصحف الكريم

## عبــاد الله

في هذه الحصة نشرع في تفسير الحزب الثاني والأربعين بالمصحف الكريم، وبداية الربع الأول منه قوله تعالى في سورة لقمان المكية: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اَللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اِسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾، ونهاية هذا الربع قوله تعالى في سورة السجدة المكية أيضاً: ﴿وَقَالُوٓاْ أَ.ذَا ضَلَلْنَا فِي اِلَارْضِ، إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ، بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾.

تتحدث الآيات الأولى في هذا الربع عمن أسلم وتمسك بالإسلام، وعمن كفر وأصرَّ على الكفر، فالمسلم عندما يسخِّر مواهبه لِطَاعة الله، ويتصرف في حياته طبقاً لمنهج الله، يأوى إلى ركن ركين، وينال الفوز المبين، لأنه انسجم مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ومع التعاليم الإلَهية التي أرشدهم إليها، ومَن كانت حياته في وئام وانسجام، مع نواميس الطبيعة والنظام الخُلُقي العام، كان أهلاً لكل عون ورعاية وإكرام، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اَللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اِسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ اِلْوُثْقَىٰ، وَإِلَى اَللَّهِ عَٰقِبَةُ الأُمُورِ﴾، وكما قال

تعالى هنا: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، لتوقف الطاعة على «الإحسان»، قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُومِنٌ﴾، لتوقف العمل الصالح، نيةً وثواباً، على «الإيمان»، و«العروة الوثقى» مِن باب التمثيل، فكما أن من أراد التَّدلِّي من شاهق مَثَلاً مع ضمان النجاة من السقوط لا يَسَعُه إلاّ أن يستمسك بأَوثق عروة في أَمتن حبل، كذلك من أَراد النجاة لنفسه في الدنيا والآخرة لا يجد عروة يستمسك بها أوثق من الإسلام، أما من كفر وأصرّ على كفره فسيقضي فترة حياته القصيرة في المُتَع والشهوات، لكنه سيعاقَب على استهتاره وتهاونه عقاباً لا يجد منه خَلاصاً ولا انفكاكاً، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يُحْزِنكَ كُفْرُهُ، إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ، إِنَّ اَللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ، نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمُ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

ونبَّهَ كتابُ الله إلى أن فريقاً من الكافرين والجاحدين عندما يُوجَّهُ إليهم السؤال عن خلق السماوات والأرض لايجدون مَناصاً من الإقرار بربوبية الله وخلقه للكون، لكنهم لا يستخلصون النتائج الحتمية لهذا الإقرار، فيطيعوا الله ورسوله، بل يصرون على أن ينكروا فروع الدين وأصوله، وذلك قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ اَلسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضَ لَيَقُولُنَّ اَللَّهُ، قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ، بَلَ اَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: يقفون عند حد «القول» دون العمل، ويتجاهلون قواعد الدين، لتعوُّدهم على الإهمال والخمول والكسل، وقولُه تعالى في وسط هذه الآية: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تلقين لكل مومن أن يحمد الله ويشكره على ما هداه

إليه من نعمة الإيمان، إذ لا نعمة تعادلها بالنسبة لسعادة الإنسان، ثم جاءت الآية التالية تؤكد إيمان المومنين، وتمسكهم بالحق المبين، ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

وبعد أن تحدث كتاب الله عن خلق السماوات والأرض، وانفراد الحق سبحانه وتعالى بتخطيط الكون وتدبيره، وتنظيمه وتسييره، أشار إلى أن «كتاب الكون» الفسيح لا تقف الكتابة فيه أبداً، بل إن الأوامر الإلٓهية بشأنه لا تقف عن الصدور، ولا يسع كلماتِه كتابٌ مسطور، ولا رَقّ منشور، وكما أنه لا نهاية لقدرته ولا لمقدوراته، فلا نهاية لعلمه ولا لكلماته، إذ «ألَابديّ لَا يتناهَى» وهذا معنى قوله تعالى الوارد هنا على وجه التمثيل والتقريب: ﴿وَلَوَ اَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ اَقْلَٰمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنۢ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، قال القفال: «لما ذكر الله تعالى أنه سخر لهم ما في السماوات وما في الأرض، وأنه أسبغ عليهم النعم، نبه على أن الأشجار لو كانت أقلاماً، والبحار مِداداً، فكُتِبَتْ بها عجائبُ صنع الله، الدالةُ على قدرته ووحدانيته، لم تنفَدْ تلك العجائب»، وقال القرطبي: «وإنما قرَّب الأمر على أُفهام البشر بما يتناهى، لأنه غاية ما يعهده البشرُ من الكثرة، لا أَنَّ كلماتِه تنفدُ بأكثرَ مِن هذه الأقلام والبحور».

وإقناعاً لمن لا يزال في شك من أمر البعث، قال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌۢ

بَصِيرٌ﴾، وما دامَت عمليّةُ الخلق ونفخِ روح الحياة في الأَحياء متجددة في كل لحظة وكل ساعة، فما الذي يمنع من تجديد الحياة في الموتى وبعثهم عند «قيام الساعة»؟.

ثم أشار كتاب الله إلى تعاقب الليل والنهار والشمس والقمر، مذكِّراً بما وراء هذا التخطيط الإلّهي الحكيم، الملائم لِحياة الإنسان والحيوان والنبات، من منافع ومصالح، لولاها لما عرفت الأرض عمراناً ولا ازدهاراً، ولما استطاع أحد من الأحياء عيشاً فوقها ولا استقراراً، وذلك قوله تعالى موجِّهاً الخطاب إلى كل إنسان: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اَللَّهَ يُولِجُ الَّيْلَ فِي اِلنَّهارِ، وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اِلَّيْلِ، وَسَخَّرَ اَلشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، كُلٌّ يَجْرِيَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى، وَأَنَّ اَللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

و«إيلاج الليل في النهار» يقع عند طول الأول وقصر الثاني، كما يقع «إيلاج النهار في الليل» عندما يصبح النهار طويلاً والليل قصيراً، وهكذا يتبادلان القِصَر والطول، تبعاً لاختلاف الفصول، أما جَرَيان الشمس والقمر فلا يقف إلّا بانتهاء أجلهما المحدود، عند حلول اليوم الموعود.

وتعقيباً على هذه الظواهر الكونية التي سخرها الله لكافة الخلق، ولا يستطيع تدبيرها وتسييرها إلّا الإلّه الخالق الحق، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اَللَّهَ هُوَ اَلْحَقُّ، وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِ اِلْبَٰطِلُ، وَأَنَّ اَللَّهَ هُوَ اَلْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ فالعاجز عن الإيجاد والإمْداد، ليس له من ذاته أيُّ اعتبار ولا اعتداد، وصدق الشاعر القائل: «ألَا كلُّ شيء ما خلا اللّهَ باطل».

وأضاف كتابُ الله إلى ما سبق من ظواهر الطبيعة ظاهرة كونية أخرى هي ظاهرة المِلاحة، التي تقوم بها السفن في البحر فتطفو على سطح الماء، فلولا أن الله تعالى خلق الماء في البحر على الصفة التي يمكن معها جَرَيان السفن، ولولا أن الله هدى الإنسان إلى الطريقة الصالحة لبناء السفن، وهداه إلى الكشف عن العلاقة القائمة بين كثافتها وكَثافة الماء، ولولا أن الله هداه إلى معرفة التيارات المائية والهوائية المنتظمة، لبقيت البشرية، بسبب تعذر المواصلات البحرية، في قطيعة تامة، طيلةَ قرون وأجيال، ولما انتظم بين أبنائها تبادل ولا اتصال. قال الحسن البصري: «مفتاح البحار السُّفُن، ومفتاح الأرض الطُّرُق، ومفتاح السماء الدُّعاء»، وإلى هذه الظاهرة يشير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اَلْفُلْكَ تَجْرِي فِي اِلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اِللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنَ ـايَٰتِهِ﴾، و«نعمة الله» هنا تصدق بلطفه وتسخيره للسفن في البحر، كما تصدق بما تَحمِله السفن من صادرات وواردات، وما تقوم به من مبادلات تجارية نافعة. وذِكْرُ «الصبر والشكر» في هذا السياق مناسب للمقام غاية المناسبة، فالملاحة البحرية لا يقوم بها ولا يتحمل مسؤوليتها إلّا من تحلوا بالصبر، وَمَن جَنَى ثمارها وعرف قدرها لا يسعه إلّا التوجه إلى الله بالحمد والشكر، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

وفي نطاق الملاحة بالبحر، وما يعرض لها من شدائد وأهوال، تولى كتاب الله وصف بعض الحالات التي قد يتعرض لها رُكَّاب السفن، وما يصيبهم من انزعاج وهَلَع، عندما تحيط

بهم أمواج البحر العاتية من كل جانب، فيُحسون بالخطر الداهم، ويلجأون إلى الله خاشعين، داعين أن ينجيهم من الغرق، حتى إذا هدأت الأمواج وزال شبح الخطر، وانتهى السفر، عاد كل واحد إلى حالته التي كان عليها من قبل، ونسي الخطر والنجاة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، فَلَمَّا نَجَّيٰهُمْ إِلَى الْبَرِّ، فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ، وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾، و«الظُّلَل» هنا جمع ظُلَّة، وهي كل ما أظلك من جبل أو سحاب أو غيرهما، فقد ترتفع الأمواج في البحر حتى تشبه الجبال، وقد تشبه في لونها وكثافتها «السَّحاب الثقال».

ومعنى قوله تعالى هنا: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾، أي: مِن الذين نجوا من الغرق مَن بقي متوسطاً في عمله، رغم ما شاهده من أهوال كانت حَريَّة بِأن تدفعه إلى المزيد من طاعة الله، شكراً على الخلاص والنجاة، وتفسير لفظ ﴿مُّقْتَصِدٌ﴾ هنا بمعنى المتوسط في العمل مطابق لتفسيره في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ (٣٥: ٣٢)، على أنَّ مِن الذين نجوا من خطر الغرق مَن عاهد الله، ثم نقض عهده وغَدَر، فكان «ختاراً»، ولم يشكر الله على نجاته، بل جحد وكفر، فكان «كفوراً» كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.

ووجَّهَ كتابُ الله الخطاب إلى الناس كافة، داعياً إياهم إلى تقوى الله والاستعداد لليوم الآخر، و«التقوى» هي السبيل الوحيد «لوقايتهم» من الآفات والعاهات، والشدائد والأزمات، فحول هذه

«الوقاية» تدور الأوامر والنواهي والوصايا والمواعظ، مبيّناً أنّ كل فرد سيقف أمام الله مسؤولاً عن نفسه وعمله، فلا والد ينفع يوم الفصل ولده، ولا مولود ينفع والده، رغماً عما بينهما من قرابة وتعاطف وشفقة، ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (٢٣ : ١٠١)، ناهياً لهم عن الغرور بالحياة الدنيا وطول الأمل، منبّهاً إلى أن العبرة كلها بالتقوى وصالح العمل، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمْ، وَاخْشَوْاْ يَوْماً لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَّلَدِهِ، وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَّالِدِهِ شَيْئاً، اِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ وهو الموت والبعث والحساب والجزاء، ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا، وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾، والمراد «بالغرور» هنا هو الشيطان، الذي يطيل حبل الأمل للإنسان، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُوراً ﴾ (النساء: ١٢٠).

وخُتمت سورة لقمان بذكر «مفاتح الغيب» الخمس التي لا يعلمها على وجه التحقيق إلاّ الله، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾، والمراد بالساعة هنا الساعة التي ياذن الله فيها بحدوث انقلاب شامل في الكون، فتُبدَّل الأرضُ غير الأرض والسماوات، فالعلم الجازم بموعدها، والمحيطُ بكيفية حدوثها، خاصٌّ بالله تعالى وحده ﴿ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ (٧ : ١٨٧).

ثم قال تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾، والغيث هنا هو المطر الذي يُحيي الله به الأرض بعد موتها، عندما يأذن بتحريك الرياح وإثارة السحب، فيكرم به البشر أجمعين، على النطاق العالمي

كله، دون تفريق بين بلد وبلد وجنس وجنس، ودون تكاليف ولا مصاريف. وتحريكُ الرياح في الكرة الأرضية، الذي هو العامل الأكبر في إثارة السحب ونزول الأمطار، لا يَقوَى عليه إلاّ الله تعالى وحده، ولا يعْلم مواعيده ومواعيد نُزول المطر، ومبلغ كَمِّياته قبل أن ينزل، على وَجْهِ التحقيق والتدقيق، إلاّ خالق الخلق ورازقهم.

ثم قال تعالى: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي اِلاَرْحَامِ ﴾، وكلمة (ما) لفظ عامّ يشمل أولاً تصويرَ الله للأجِنَّة في الأرحام، ﴿ هُوَ الَذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي اِلاَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ (٣: ٦)، والعلمَ بما يستقر في الأرحام وما يسقطُ، ﴿ وَنُقِرُّ فِي اِلاَرْحَامِ مَا نَشَآءُ اِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ (٢٢ : ٥)، والعلمَ بكون ما في الرحم ذكراً أو أنثى، واحداً أو متعدداً، أبيض أو أشقر أو ملوّناً، ذكياً أو غبياً، سعيداً أو شقياً، طويلاً أو قصيراً، غنياً أو فقيراً، معمَّراً أو قصير العمر، ويشمل العلمَ بمدة حمله هل تنقص عن المعتاد أم تزداد، أو تنتهي في الوقت المعتاد، على أن قوله تعالى: ﴿ مَا فِي اِلاَرْحَامِ ﴾، لا يخص أرحام النساء وحدهن، بل يشمل أرحام الحوامل من كل الإناث، سواء في ذلك إناث الإنسان وأناث غيره من الحيوان، فعلم الله تعالى محيط شامل، وإحصاؤه لخلقه إحصاء كامل، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ اِللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الاَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ (١٣ : ٨)، وصدق الله العظيم إذ قال (٥٣ : ٣٢): ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمُ إِذَ اَنشَأَكُم مِّنَ اَلاَرْضِ ، وَإِذَ اَنتُمُ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً ﴾، فقد يعزم الإنسان على عمل الخير ثم لا يُوفَّقُ إليه ويتورط في الشر، وقد ينوي القيام بمشروع مهمّ فتحول دونه الموانع، وقد يكون مُعْوِزاً فيُفاجأ بهبة من صديق، أو وصية من قريب، وقد يكون معتمِداً على راتبه من الوظيف الذي يشغله، فيفاجأ بالطرد من الوظيف والتعرض للخَصاصة والفقر، وقد يكون منتظراً لربح عظيم، فتنزل به خَسارة عظمى، أو يقبض الله روحه فجأة، فتنتقل مكاسبه في الحين إلى ورثته، وهكذا دَوَالَيْك.

ثم قال تعالى: ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾، فقد يكون الإنسان مصراً على أن يقضي حياته ببلده إلى الموت، ثم تَرمي به الأقدَار خارج بلده لسياحة أو تجارة أو علاج، أو طلب علم، أو صلة رحم، فإذا به يلقَى الموت في بلد لم يخطر له ببال، ويموت ويُقبَر حيث يشاء الله، ﴿ إِنَّ اَللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾.

والآن وقد انتهينا من تفسير سورة لقمان ننتقل إلى سورة السجدة المكية أيضاً، وهي آخر سورة في سلسلة السور المبدوءة بالحروف الهجائية المقطعة، التي وردت متتابعة على التوالي، ابتداءً من سورة الشعراء، وانتهاءً عند هذه السورة. وسميت «سورة السجدة» أَخْذاً من قوله تعالى في الآية الخامسة عشرة: ﴿ إِنَّمَا يُومِنُ بِئَايَٰتِنَا اَلذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّداً، وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾.

وقد تصدى كتاب الله في بداية هذه السورة للرد على خصوم القرآن، وتبيين الرسالة العُظمى التي جاء بها لهداية الخلق،

فقال تعالى: ﴿ بِسْمِ اِللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ . اَلَمٓ. تَنزِيلُ الْكِتَـٰبِ، لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ اِلْعَـٰلَمِينَ، أَمْ يَقُولُونَ اَفْتَرِيهُ، بَلْ هُوَ اَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ، لِتُنْذِرَ قَوْماً مَّآ أَتِيهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ، لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾.

ثم تحدث كتاب الله عن خلق السماوات والأرض، وتدبير الخالق الحكيم للكون، وعلمه المحيط بكل شيء، فقال تعالى: ﴿ اَللَّهُ الذِي خَلَقَ اَلسَّمَـٰوَاتِ وَالَارْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ اَسْتَوىٰ عَلَى اَلْعَرْشِ ، مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِنْ وَّلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ ، اَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ، يُدَبِّرُ الاَمْرَ مِنَ اَلسَّمَآءِ إِلَى اَلَارْضِ ﴾، وحتى لا يظن ظانٌّ أن «الأيام الستة» التي تم فيها خلق الكون من جنس أيامِنا القصيرة المحدودة، قال تعالى في نفس السياق: ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ، ذَٰلِكَ عَـٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَـٰدَةِ اِلْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

وبيَّنَ كتابُ الله ما في خلق الله وصنعه من إحكام وإتقان، وضـرَب المثل بـالمراحـل التي مـر بهـا نـوع الإنسـان، ونَـوَّهَ بالخصائص الممتازة التي ميّزه بها على سائـر الحيوان، فقـال تعالى: ﴿ الذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ اَلِانسَـٰنِ مِن طِينٍ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَاءٍ مَّهِينٍ، ثُمَّ سَوّيٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِـهِ، وَجَعَـلَ لَكُمُ السَّمْـعَ وَالَابْصَـٰرَ وَالَافْـِٕدَةَ، قَلِيـلاً مَّـا تَشْكُرُونَ ﴾.

وخُتِم هذا الربع بالإشارة إلى ما يستغربه منكرو البعث من أن يُبعثوا بعد موتهم، وقد تحللت أجسامُهم إلى تراب، واختلطت بتراب الأرض، حتى لم يَعُدْ من الممكن التمييز بين الاثنين،

نَاسِين أن الله تعالى الذي خلق الإنسان عند نشأته الأولى من تراب، قادر على أن يبعثه عند نشأته الثانية أيضاً من تراب، وذلك قوله تعالى في نهاية هذا الربع: ﴿وَقَالُوٓاْ أَ.ذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: اختلط تراب أجسامنا بترابها، ﴿إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍم، بَلْ هُمْ بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ﴾.

# الربع الثاني من الحزب الثاني والأربعين في المصحف الكريم

قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ
تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ
رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا
مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ
حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ
أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ
إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا
خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ ۩
تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا
وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ

مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ١٧ أَفَمَن كَانَ مُومِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ
لَّا يَسۡتَوُۥنَ ١٨ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٩
وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ
أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ
تُكَذِّبُونَ ٢٠ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ
ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢١ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ
ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ٢٢ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا
مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى
لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٢٣ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا
صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ
يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٢٥ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ
كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ ٢٦ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ
إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا تَاكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۚ

أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ
يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

# الربع الثاني من الحزب الثاني والأربعين في المصحف الكريم

## عبـــاد الله

موعدنا في هذه الحصة مع الربع الثاني من الحزب الثاني والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَتَوَفّيْكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾، إلى قوله تعالى في ختام سورة السجدة: ﴿ فَأَعرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرِ، اِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾.

في بداية هذا الربع خاطب الحق سبحَانه وتعالى رسولَه الأمين، آمراً له أن ينـذر الذين كفـروا بلقاء الله، بـأنهم مهمَا تَرددوا، وعاندوا وتمردوا، فلن يفلتوا من قبضة الله، الذي خلق الموت والحياة، وأنهم في النهاية راجعون إليه، وواقفُون وقفة الذلة والضراعة بين يديه، ووقتئذ يُصَدِّقُ الخُبْرُ الخَبَر، ولا يبقى مجال لما اعتادوا التفوه به من الهراء والهَذَر، أَمَّا ما يُعبِّرون عنه بعد فوات الوقت من مظاهر الإيمان والندم، فلا عبرة به، لأنه بمنزلة العدم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَتَوَفّيْكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الذِي وُكِّلَ بِكُمْ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ، وَلَوْ تَرىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ، رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا

نَعْمَلْ صَٰلِحاً، إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾، ومعنى ﴿ يَتَوَفَّيْكُم ﴾ سيتوفى روحكم وينتزعها من الجسم، فتنتقل إلى عالم الأرواح، ومعنى ﴿ وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ أن مَلَك الموت لا يغفل عنكم، فإذا جاء أجلكم لا يؤخرُكم لحظة واحدة، ومعنى ﴿ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ ﴾ أنهم يكونون مطأطِئي الرؤوس من الذل والخزي الذي يلحقهم، والندم والغم الذي يصيبهم، ومعنى ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾، أي: عند محاسبة ربهم لهم على كفرهم بلقاء الله، ومعنى قوله: ﴿ إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾، أي: زالت عنا الشكوك الآن، وآمَنَّا بالبعث الذي كنا ننكره، وقَبْضُ الروح وتَوَفِّي الأنفس مَرَدُّه في الحقيقة إلى الله سبحانه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ (الزمر: ٤٢)، وقوله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ (الجاثية: ٢٦)، وقوله تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوٰةَ ﴾ (الملك: ٢)، ويُنسَب «التوفى» مَجازاً إلى الملائكة عموماً، كما في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ (الأنعام: ٦١)، وإلى مَلَك الموت خصوصاً، كما في آية هذا الربع: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ ﴾، إشارةً إلى أن الملائكة يتولون قبض الأرواح بأمر الله.

وجواباً عما قد يدور في الأذهان، أو يجري على اللسان، لماذا وُجد الضالّ إلى جانب المهتدى، والفاجر إلى جانب المتقى، والكافر إلى جانب المؤمن، والشقيّ إلى جانب السعيد، قال تعالى في نفس السياق: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَأٓتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَيٰهَا ﴾، أي: لو أراد الله أن يخلق الإنسان على نمط الملائكة

المسخَّرين، الذين لا يعصُون الله ما أمرهم ويفعلون ما يومرون، لتمت كلمته، وتحققت إرادته، لكنَّ الله تعالى شاءت حكمته أن يخلق الإنسان حراً مختاراً، وأن يُجهّزه بملَكات وطاقات يستطيع أن يستعملها في الخير أو الشر، وتَبَعا لما آتاه من حرية واختيار وضع على عاتقه أمانة التكليف، وحَدَّدَ لَهُ المنهج الذي يتبعه في حياته دون زيغ ولا تحريف، فكان بذلك مسؤولاً عن تصرفاته، لكونه شخصيّة حرة مُدبِّرة، لا آلة صماءَ مُسخَّرة، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى: (٩١: ٨): ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾، وقوله تعالى في آية ثانية: ﴿ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَاسْتَحَبُّواْ الْعَمَىٰ عَلَى اَلْهُدَىٰ ﴾ (فصلت: ١٧)، وقولِه تعالى في آية ثالثة: ﴿ لِمَن شَآءَ منكُمُ أَنْ يَّسْتَقِيمَ﴾ (التكوير: ٢٨)، وكما قال تعالى هنا: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا ءَلَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَيٰهَا ﴾، وقال تعالى فيما سبق في سورة (الانعام: ٣٥)، ﴿ وَلَوْ شَآءَ اَللَّهَ لَجَمَعَهُمْ عَلَى اَلْهُدَىٰ ﴾، وقال تعالى فيما سبق من سورة (يونس: ٩٩)، ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأَمَنَ مَن فِي اِلَارْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وَلَـٰكِنْ حَقَّ اَلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾، إشارة إلى مصير الذين اختاروا الضلالة على الهدى والكفر على الإيمان، من عصاة الجن والأنس، وأنهم سيلقون ما يستحقونه من العقاب.

وانتقل كتاب الله إلى مخاطبة المكذِّبين بلقائه وباليوم الآخر، فاخبرهم أن الله تعالى سيعاملهم في الآخرة بالإهمال، فلا

يمُنُّ عليهم بعفوه ورحمته، ولا بدخول جنته، جزاءَ إهمالهم في الدنيا لعبادته وطاعته، وإصرارهم على متابعة الباطل بدلاً من اتّباع هدايته، وذلك معنى قوله تعالى هنا «على وجه المقابلة»: ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَآ، إِنَّا نَسِينَـٰكُمْ، وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

وكما يُستعمَل «الذوق» في الإحساس بالمطعوم يستعمل فيما تحس به النفس من مختلِف الإحساسات وإن لم يكن شيئاً مطعوماً، ومن الاستعمال الثاني قولُه تعالى هنا: ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ. . . وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ ﴾، وقولُه في آية أخرى: ﴿ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ ، و«عَذَابَ الخُلْدِ»، هو العذاب الدائم الذي لا ينقطع.

وبعدما تحدث كتاب الله عن الفئة الغافلة المستكبرة، المصرَّة على التمسك بضلالها وإهمالها، أخذ يتحدث عن الفئة الواعية المومنة، الخاشعة لله، التي لا تفارقها خشية الله في جميع اللحظات، فوصفها بأن سماعها لكلام الله يزيدها هدىً وإيماناً، فلا تلبث أن تَخِرَّ ساجدة لِجلاله وجماله، وتسبِّحَ في تهَجُّدها بحمده وكماله، وإذا نامت فإنها لا تستغرق في النوم، بل تظل قلقة في مضاجعها بين الخوف والرجاء، ويهْجُم عليها الأَرَق ما بين فترة وأخرى، فتجد راحتها في التوجه إلى الله بالدعاء، وعَقْد النية على التوجه إلى الخلق بالرِّفْد والعطاء، وذلك قوله تعالى: ﴿ إنما يومنُ بـٔايـٰتنا الذين إذَا ذُكِّروا بها خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحوا بِحَمْدِ ربهم وهمْ لا يستكبِرُون. تَتَجافَى جُنُوبُهم عن المَضاجع يَدْعُونَ ربَّهم خوفاً وطَمَعاً، ومِمَّا رزقنـٰهُم ينفِقون ﴾ على غرار قوله

تعالى فيما سيأتي من سورة الذاريات (١٧ ـ ١٩): ﴿كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ الَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ، وَبِالاَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ، وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾.

وَعقَّب كتاب الله على ذلك بالكشف عما أعده الله للصالحين من عباده في دار النعيم، فتَقَرُّبهُ أعينهم، مما لا عين رأتْ، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ، جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

ونبَّهَ كتابُ الله إلى الفرق الشاسع بين الكفر والإيمان، والطاعة والعصيان، وأنهما لا يستويان أبداً، ولذلك كان جزاء كل واحد منهما مناقضاً للآخر، لا متماثلاً ولا متحداً، وذلك ما يتضمنه قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُومِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً، لَّا يَسْتَوُونَ، أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ الْمَأْوَىٰ، نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ و﴿النُّزُل﴾ ما يهيَّأ للضيف النازل عند وصوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَيٰهُمُ النَّارُ، كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَنْ يَّخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا، وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

ثم عرَّفنا كتابُ الله بأن عذاب الله الذي يسلطه على الكفار والعصاة من خلقه، لتأديبهم وعقابهم، نوعان: النوع الأول «العذاب الأدنى» وهو الأصغر، والنوع الثاني «العذاب الأبعد» وهو الأكبر، أما «العذاب الأدنى» فهو عذاب الدنيا، ويصدق بالمصائب والاسقام التي يُبْتَلَى بها الخلق، تأديباً لهم، حتى يتوبوا إلى الله ويرجعوا

إلى صراطه المستقيم، ومما يندرج في هذا النوع من العذاب حدودُ الجرائم والقتل، والأَسرُ في الحرب، والقحط والغلاء، واضطرابُ حبل الأمن في السِّلْم، وأما «العذاب الأبعد» فهو عذاب الآخرة بشدائده وأهواله، على اختلاف أصنافه وأحواله، وإلى ذلك يشير قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ ﴾، وهو العذاب الأصغر ﴿ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ ﴾، وهو العذاب الأبعد ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾، فإنْ أفاد الأول في التأديب، لم تبق حاجة إلى ما فوقه من أنواع التعذيب، ومن لطائف التفسير ما نبه إليه فخر الدين الرازي في هذه الآية، من أن وَصْفَ عذاب الدنيا بكونه «قريباً» هو الذي يصلح للتخويف والإنذار، لا كونُه صغيراً، لأن العذاب العاجل ـ وإن كان قليلاً ـ يحترِز منه الناس أكثر مما يحترزون من العذاب الشديد إذا كان آجلاً، ووصْفَ عذاب الآخرة بِكونه «كبيراً وعظيماً» هو الذي يصلح للتخويف والإنذار، لا كونُه بعيداً، فاختار كتاب الله في كلا العذابين الوصف الذي هو أصلح للتخويف بهما، بدلاً من مقابلهما غير المناسب، ولذلك قال في عذاب الدنيا: ﴿ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ ﴾، ولم يقل العذاب الأصغر، وقال في عذاب الآخرة: ﴿ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ ﴾، ولم يقل العذاب الأبعد.

وعقَّب كتابُ الله على ما ذكره من وصف أحوال الفريقين ووصف مصيرهما في الدار الآخرة، بأنه لا ظالم لنفسه أظلمُ ممن عُرِض عليه كتاب الله، الذي فيه أهدى الهدى، وأحكم الحكمة، وشفاء الصدور من الشك والغم ومنتهى الرحمة، وبدلاً من أن

يُقبِل عليه إقبال الظمآن على الماء يُعرِض عَن آياته دون خجَل ولا استحياء ، وذلك ، قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ، إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ .

وعاد كتاب الله مرة أخرى إلى مخاطبة خاتم أنبيائه ورسله، مُذكِّراً إياه، بأنَّهُ كما أُنزل على موسى التوراة أُنزل عليه الذكر الحكيم، ﴿ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْـهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْـهِ ﴾ (٥ : ٤٨)، وكما لاقى موسى العَنَت من فرعون وملائه، ومِن بَني إسرائيل أنفسهم، دون أن يتراجع أو يتقهقر، فإنّ خاتم الأنبياء والرسل لَنْ يَضِيق ذَرْعاً بما سيلقاه من عنت المشركين والكافرين، وكما اختار الحقُّ سُبحانه من بين ذرية موسى وقومه أئمة يهدونهم بين الفترة والأخرى، فسيختار من الأمة المحمدية أَئِمـة عدولاً يحملون هذا الدين، ويبلغونه للعالمين، ويجدِّدون شبابه كلما احتاج للتجديد إلى يوم الدين، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدَ ـاتَيْنَا مُـوسَىٰ ٱلْكِتَـٰبَ، فَلَا تَكُنْ فِي مِـرْيَةٍ مِّن لِّقَـآئِهِ، وَجَعَلْنَـٰهُ هُدىً لِّبَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ، وَجَعَلْنَا مِنْهُمُ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُـونَ ﴾، وهذا الصبر نوعان: صبر على حمل الدين وممارسته بكل ثبات ويقين، وصبر على تحمل الأذى في سبيـل حمله وتبليغه والـدفاع عنـه ضد هجمـات المدعين والمبتدعين، وبالصبر مع العلم واليقين، تنال الإمامة في الدين.

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾، إشارةً إلى أن القول الفصْل فيما بين البشر من نزاعات واختلافات حول العقائد والأديان، والحُكْم العدل فيها

وفي غيرها من شؤون الإنسان، سيصدر عن رب العالمين وأحكم الحاكمين، عندما يَجمعُ الناسَ ليوم لا ريب فيه وطبقاً لقوله الفصْل الصادر في شأنهم، وحكمِه العدل، المقضِّى به لهم أو عليهم، يلتحقون بدار النعيم أو بدار الجحيم، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ (١٨ : ٤٩).

ووجَّه كتاب الله بعد ذلك أنظار الجاحدين والمكذبين إلى الاعتبار بآيتين من آياته الكونية البارزة: الأولى آية يتجلَّى فيها مبلغ غضب الله ونقمته، والثانية آية يتجلى فيها مبلغ إحسانه ونعمته، أما الآية الكونية الأولى فَيَتَضمنها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمَ اَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ اَلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمُ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ، أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾، وأما الآية الكونية الثانية فيتضمنها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ اَنَّا نَسُوقُ الْمَآءَ إِلَى اَلْاَرْضِ اِلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَاكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمُ، أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾.

وفي الآية الأولى إشارةٌ إلى ما يتعرض له خصوم الرسالات الإلٓهية من هلاك، وما تتعرض له مساكنهم من تدمير، عندما لا يُرجى لهم صلاح، وتذكيرٌ بِأخبار القرى البائدة والقرون الخالية المتواترة، التي يتناقلها جيل عن جيل، فما بالهم لا يعتبرون بها بعد سَماعها ويعودون إلى حظيرة الحق؟.

وفي الآية الثانية إشارة «إلى الماء الذي يسوقه الله إلى الأرض اليابسة التي لا تُنبِت، من السيول والأمطار، والعيون والأنهار، فلا تلبث أن تهتز وتربو، وتوتى أُكلها لخير الإنسان والحيوان، فما بالهم لا يعتبرون بها وهم يرون رأْي العين أَثَرَ

رحمة الله، المهداة إلى كافة الخلق؟.

وكما قال تعالى هنا: ﴿ تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ﴾، بتقديم ذكر الأنعام على الأنفس، قال تعالى فيما سبق من سورة الفرقان (٤٩): ﴿ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً، وَنُسْقِيَه مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَٰماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً ﴾، ولعل في ذلك إشارةً إلى أن الإنعام على الأنعام بالسقي من الماء، والأكل من الزرع، هو في الحقيقة إنعام من الله على الإنسان نفسه، لما للإنسان في الأنعام من منافع ومصالح لا تستقيم حياته بدونها.

وعلّق أبو حيان على قوله تعالى هنا: ﴿ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ﴾، فقال: خصَّ الزرعَ بالذكر، وإن كان يخرجُ اللَّهُ بالماء أنواعاً كثيرة من الفواكه والبقول والعُشْب المنتفع به في الطب وغيره، تشريفاً للزرع، ولأنه أعظم ما يُقصَد من النبات، وأوقع «الزرعُ» موقع النبات، وقُدِّمت الأنعام، لأن ما يَنْبُتُ تاكله الأنعام أولاً بأول، قبل أن يأكلُ بنو آدم الحَب».

ووصَف كتابُ الله لوناً من ألوان السخرية والاستهزاء التي كان يلجأ إليها الجاحدون والمكذبون، متسائلين عن الساعة واليوم الآخر: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾، والمراد «بالفتح» هنا الفصل والقضاء، والحُكْم الأخير الذي يقع يوم القيامة، وهو «يوم الفتح»، ثم رد عليهم كتاب الله قائلاً: ﴿ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾، مؤكِّداً بذلك أنَّ من لم يومن قبل الموت لا يُقبل منه يوم القيامة إيمان ولا

عمل، ولا حَقَّ له في أي رجاء أو أمل، وسيأتي في سورة سبأ (٢٦) قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾، أي: يقضي بيننا بالحق، ﴿ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾.

قال ابن كثير: «ومن زعم أن المراد من هذا الفتح «فتح مكة» فقد أبعد النُّجْعة، وأخطأ فأفحش، فإن يوم الفتح قد قبِل فيه رسول الله ﷺ إسْلام «الطُّلقاء» وقد كانوا قريباً من أُلفين، ولو كان المراد فتح مكة لما قَبِل إسلامهم، لقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾.

وحرصاً على كرامة الرسول الأعظم من سَفَه السفهاء وجدلهم الفارغ، دعاهُ الحق سبحانه وتعالى إلى الإعراض عنهم عندما يقوم بتبليغ الرسالة، ما داموا لا يبحثون عن الحق، وإنما يجادلون من أجل الباطل، كما دعاه إلى ملازمة الصبر، في انتظار النصر. وكما ينتظِرُ الرسول والمومنون معه نصر الله، ينتظر الكافرون والجاحدون عذاب الله، وذلك قوله تعالى في ختام سورة السجدة المكية ونهاية هذا الربع، ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وانتَظِرِ، اِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾.

# الربع الثالث من الحزب الثاني والأربعين في المصحف الكريم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ
عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا
تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ
ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي
تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ
قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾
ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ
فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن
مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ
مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ

بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟
إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾
وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ
وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾
لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا
أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ
جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ
وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ
ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾
وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ
وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ
لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ
إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾
وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا
وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ

مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾
قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا
لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ
إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن
دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾

# الربع الثالث من الحزب الثاني والأربعين في المصحف الكريم

## عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول تفسير الربع الثالث من الحزب الثاني والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة الأحزاب المدنية: ﴿ بِسمِ اِللَّهِ اِلرَّحْمَٰنِ اِلرَّحِيمِ . يَٰأَيُّهَا اَلنَّبِيٓءُ اتَّقِ اِللَّهَ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن ذَا اَلذِي يَعْصِمُكُمْ مِّنَ اَللَّهِ إِنَ اَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا اَوَ اَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً، وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اِللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً ﴾.

في ختام الربع الماضي انتهينا من تفسير «سورة السجدة» المكية، وفي بداية هذا الربع نشرع بعون الله في تفسير «سورة الأحزاب» المدنية، وقد أُطلق عليها «سورة الأحزاب»، أخذاً من قوله تعالى في آيتها العشرين: ﴿ يَحْسِبُونَ اَلَاحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ، وَإِن يَاتِ اِلَاحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوَ اَنَّهُم بَادُونَ فِي اِلَاعْرَابِ ﴾ وقوله تعالى في آيتها الثانية والعشرين: ﴿ وَلَمَّا رَءَا اَلْمُومِنُونَ اَلَاحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اَللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اَللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُم إِلَّا إِيمَٰناً وَتَسْلِيماً ﴾.

وفي بداية هذه السورة خاطب الحق سبحانه وتعالى خاتِم

أنبيائه ورسله، والخطاب يَعُمُّ كل فرد من أفراد أمته، فأمره بالتقوى، والأمر بِتقوى الله لمن هو متلبِّس بها، بل بأعلى دَرَجَاتِها ـ كما هو حال الرسول ـ أمرٌ بالازدياد منها، والديمومة عليها، كما حذَّره من كيد الكافرين وخداع المنافقين، حتى لا يركنَ إليهم إذا تقدموا إليه برأي أو مشورة أو طلب، وما أكْثرَ الحبائل التي نصبوها لدعوته، والحِيَل التي دبروها لتَثْبيطه عن أداء رسالته، ودَعَاه إلى اتِّباع الوحي الذي ينزل عليه من ربه، والعمل به دون تساهل ولا هوادة، فباتباعه يتحصن من مكر أعداء الله وخداعهم، وينجو من دسائسهم ومؤامراتهم، ثم أمرَه بعد ذلك بالتوكل على الله، والاعتماد ـ بَعد اتخاذ الأسباب ـ على تدبير مولاه.

وفي خِلال هذه الأوامر والتوجيهات الإلٓهية اختار كتاب الله جملة من أسماء الله وصفاته، لها علاقة وثيقة بالموضوع، ومناسَبة تامة للمقام، ألَا وهي اسمُ «العليم»، لأن الله هو الذي يعلم حق العلم الحقَّ من الباطل، والصواب من الخطأ ، واسمُ «الحكيم»، لأن الله هو الذي يدبِّر أمر عباده أحكم تدبير، ويضع الأشياء مواضعها دون خلل ولا تقصير، واسمُ «الخبير»، لأن الله هو الذي يعلم سرائر الخلق وأسرار الخليقة، على وجه الحقيقة، واسمُ «الوكيل»، لأن الله هو الذي يتولى حفظ أوليائه، ويعصمهم من كيد أعدائه، وبهذا التفسير المستطاب، يتضح معنى الآيات الأولى من سورة الأحزاب. قال تعالى: ﴿ بِسْمِ اِللَّهِ الرَّحْمَٰنِ اِلرَّحِيمِ . يَـٰأَيُّهَا اَلنَّبِيٓءُ اتَّقِ اِللَّهَ، وَلَا تُطِعِ اِلْكَٰفِرِينَ وَالْمُنَٰفِقِينَ، إِنَّ اَللَّهَ

كَانَ عَلِيماً حَكِيماً. وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ، إِنَّ اَللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً، وَتَوَكَّلْ عَلَى اَللَّهِ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾

وقولُه تعالى في بداية هذه السورة: ﴿ يَـٰأَيُّهَا اَلنَّبِيٓءُ ﴾، كقوله تعالى في سورة الأنفال (٦٤): ﴿ يَـٰأَيُّهَا اَلنَّبِيٓءُ حَسْبُكَ اَللَّهُ وَمَنِ اِتَّبَعَكَ مِنَ اَلْمُومِنِينَ ﴾، وقولِه في سورة التوبة (٧٣) وسورة التحريم (٩): ﴿ يَـٰأَيُّهَا اَلنَّبِيٓءُ جَـٰهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَـٰفِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾، هَذَا أُسلوبٌ قرآني خاص، يستعمله كتاب الله عند مناداة رسوله الأعظم، فيناديه: ﴿ يَـٰأَيُّهَا اَلنَبِيٓءُ ﴾ أو ﴿ يَـٰأَيُّهَا الرَسُولُ ﴾، تنويهاً بقَدْره، وتشريفاً لأمره، بينما يقتصر في نداء غيره من الرسل والأنبياء، على مجرد ذكر الأسماء، فيقول مثلاً: يا آدم، يا نوح، يا إبراهيم، يا موسى، يا داود، يا عيسى، وهذا لا ينقص من قَدْرهم، أذ هم جميعاً في أَصل النبوة والرسالة سواء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ثم قال تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ اَللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾، إشارةً إلى أنه لا يمكن أن يجتمع في قلبٍ واحد إيمانٌ وكفر، كما يتصور المنافقون، إذ يحاولون التظاهر بالإيمان، بينما قلوبهم منطوية على الكفر، فالكفر لا يجتمع مع الإيمان، كما لا يجتمع الشكُّ مع اليقين، والشركُ مع التوحيد، والانزعاج مع الطمأنينة في وقت واحد، وحالة واحدة.

وجاء كتاب الله في نفس السياق بحالتين عرفتهُمَا الجاهلية قبل الإسلام، فدعا إلى الحد منهما وإبطال مفعولهما: الحالة الأولى هي «الظهار» من الزوجة، واعتبارُها بمنزلة «الأُم»، والحالة

الثانية هي «تَبَنِّي أولاد الغير» واعتبارهم بمنزلة الأولاد الأصليين.

ففي حالة «الظِّهار»، وهي الحالة الأولى، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ الَّـٰئِي تُظَـٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾، بمعنى أن المرأة الواحدة لا يمكن أن تكون زوجة للرجل وأُمّاً له في نفس الوقت، فهناك فرق كبير بين الوضعيتين والحالتين مادياً وأدبياً، وما جرى عليه العرب في جاهليتهم من مفارقة زوجاتهم عند غضبهم، وقطع العِشْرة الزوجية معهن، بمجرد قول الزوج لزوجته: «أَنتِ عَلَيَّ كظهر أُمي»، لم يَعُدْ له نفسُ الاعتبار في الإسلام، بل أصبح هذا النطق في نظر الإسلام منكراً من القول وزوراً، وأصبح تحريم مِسَاس الزوجة والاستمتاع بها بمقتضى هذا القول أمراً مؤقتاً، ويمتد إلى غاية محدودة، هي القيام بالكفارة من طرف الزوج، و«كفارة الظهار» حسب الترتيب في الدرجة الأولى: تحرير رقبة، وفي الدرجة الثانية: صيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسَّا، وفي الدرجة الثالثة: إطعام ستين مسكيناً، طبقاً لما يأتي من الآيات في سورة المجادِلة. قال جار الله الزمخشري: «فإن قلت ما معنى قولهم أَنتِ عَلَيَّ كظَهر أُمي؟ قلت: أرادوا أن يقولوا: أنتِ عليّ حرام كبطن أُمّي؟ فكَنَّوا عن البطن بالظهر، لئلا يذكروا البطن الذي ذِكْرُهُ يقارب الفرج، وإنما جعلوا الكناية عن البطن بالظهر، لأنه عمود البطن»، وكما قال تعالى هنا: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ الَّـٰئِي تُظَـٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾، قال تعالى في سورة المجادِلة الآتية (٢): ﴿الَّذِينَ يُظَّهَّرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ، إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا الَّـٰئِي وَلَدْنَهُمْ، وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ

ٱلْقَوْلِ وَزُوراً ﴾.

وفي حالة «التبني»، وهي الحالة الثانية، يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ، ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ، وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ، وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾، بمعنى أن تبنيَ ولد أو بنت ليس من صُلْب المتبَنّي، وإنما هو أو هي من صُلب رجل آخر، معروفٍ أو مجهول، عملٌ غير مشروع لا يرضى عنه الله، ولا يقبله الشرع، لأنه مجرد تزوير، وقلب للحقائق، ومن أجل ذلك سمّى كتاب الله هذا الولد المتَبَنَّي كالبنت المتبناة «دَعِيّاً» أي ولداً ليس بأصيل، والجمع «أَدْعِياء»، وبالرغم عن تسميته ابناً من طرف الأب الطارىء المتبَنّي، فإن الله تعالى يرفض قبوله ابناً للمتبَنّي، ويعتبره دخيلاً في الأسرة ومتطفلاً عليها. وتأكيداً لرفض بنوته وإن ادعاها المتبَنّي قال تعالى في نفس السياق: ﴿ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ﴾، أي: لا عبرة به شرْعاً، لأنه مخالف للواقع وكذب على الله، ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾، لا يرضى بسواه بديلاً، ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾، فما أقرَّه اتبعناه، وما أنكره رفضناه.

وقد كان هذا النوع المصطنع من الأبوة والبنوة معروفاً عند العرب في الجاهلية، ولا سيما بالنسبة للأولاد الذكور، كما كان معروفاً عند غيرهم، لكنَّ كتاب الله أعلن فساده وبطلانه، وفرض على المسلمين أن لا يغيروا خلق الله، وأمرهم أن ينسبوا الولد أو البنت إلى الأب الحقيقي مَا دام الأب معروفاً، أو يكتفوا في معاملته كأخ في الدِّين، أو كمَوْلًى من موالي القبيلة أو العشيرة، إن كان مجهول الأب مجهول النسب، وذلك قوله تعالى مخاطِباً

لعباده المتقين: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾.

ونبَّهَ كتابُ الله على أن من نَسب وَلَداً إلى غير أبيه وكان ذلك صادراً منه على وجه الخطأ لا على وجه العمد، فإنه لا إثم عليه، لكن المتعمِّد لنسبة الولد إلى غير أبيه، مثل متبَنِّيه، قاصداً لذلك مصرّاً عليه، سيؤاخذُ بِمَا تَورط فيه من قول الزور، ما لم يتب إلى الله، وذلك معنى قوله تعالى هنا: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾.

والحكمةُ في تحريم «التَّبَنِّي» ومنعه شرعاً منعاً باتّاً أنّ مرتكبه يعمل على إفساد الأنساب واختلاطها، بدلاً مما أمر الله به من حفظ الأنسَاب وصيانتها، كما يعمل على انتزاع الحقوق من أهلها وتمكين الغير منها دون حق، لأنه يجعل وَلَدَ الغير ولداً للطُّلْب، وبذلك يصبح غيرُ المحارم، من زوجة المتبنِّي وأولاده الأصليين، وقرابته الأقربين، محارمَ لمن تبناه، وهو في الحقيقة أجنبيٌّ عنهم، يحِل لهم منه ما يحِل منهم لغيره، ويصبح الولد المتبنَّى شريكاً لَهم في الإرث، دون أن يكون له أدنى حق فيه، إلى غير ذلك من التعقيدات والمضاعفات التي تغير طـابع الأسـرة المسلمة، وتفسد نظامها من الأساس، وَإذا كان الإسلام قد أقفل بَابَ التبني ولم يأذن به، لمَا يترتب عليه من مفاسد ومضار، فإنه فتح بَابَ الإحسان في وجه من يريد الإحسان لأطفال المسلمين، ولو كانوا مجهولي الآباء، مَتَى تعرض المجتمعُ الإسلامي لآفات اجتماعية، أو كوارث طبيعية، وذلك بتربيتهم وتعليمهم، والأخذ بيدهم في

المراحل الأولى من حياتهم، وبتخصيص الهبات والوصايا لصالحهم، عندما يبلغ أحدهم أَشُدَّه، وبهذه الطريقة يتِمّ ادماجهم في المجتمع الإسلامي بصورة مشروعة، فيها نفع لهم من جهة، وليس فيها ضرر على الأُسرة المسلمة وَلَا اعتداءٌ على حقوقها الشرعية من جهة أخرى، ويجب على من تورط في عملية التَبَنِّي أن يُعرِّف الولد المتبنَّى في الوقت المناسب بأنه ليس ولداً له من الصُّلب، وإنما هو أخ في الدين، لهُ حقّ العون والإحسان، لا حقوقُ الأولاد الأصليّين، ولْيَكُن ذلك على وجه لا يُشعره بخزيٍ ولا عار، ولا سيما إذا كان في الأمر ما ينبغي ستره من الأسرار.

وكما يحرم على الغير نسبة الابن إلى غير أبيه، فإن انتساب الشخص من تلقاء نفسه إلى غير أبيه يكون حراماً من باب أَولى وأَحْرى، جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «مَن ادَّعَى إلى غير أبيه»، أي: انتسب، «وهو يعلم أنه غير أبيه، فالجنة عليه حرام»، ثم قال تعالى: ﴿ وَكَانَ اَللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾، أي: غفوراً للمتعمد إذا تاب، رحيماً بالمخطىء، حيث رفَع عنه إثم الخطأ.

ثم تصدى كتاب الله لتحديد العلاقة القائمة بين عامة المسلمين ورسوله الصادق الأمين، وبينهم وبين أزواج الرسول من أمهات المومنين، والعلاقة القائمة بين الأقارب من أُولى الأرحام بعضهم من بعض، فقال تعالى: ﴿ اِلنَّبِيٓءُ اَوْلَىٰ بِالْمُومِنِينَ مِنَ اَنفُسِهِمْ، وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَـٰتُهُمْ، وَأُوْلُواْ الاَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَـٰبِ اِللَّهِ ﴾، ومعنى كون الرسول عليه السلام أَولى بالمومنين من أنفسهم أنه أرأف بكل واحد منهم، وأَشْفَقَ عليه من نفسه

التي بَيْـنَ جنبيه، إذ هو يدعو كل مومن إلى النجاة دائماً، بينما النفس الأمارة بالسوء تدعوه إلى الهلاك غيرَ ما مرة، ومثل هذا المعنى يؤخـذ من قـولـه تعـالى في وصف رسـولـه الأعـظم (٩: ١٢٨): ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنَ اَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ، حَرِيصٌ عَلَيْكُم، بِالْمُومِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وقوله تعالى في وصفه أيضاً (٧: ١٥٧): ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمُ إِصْرهُمْ وَالاَغْلَـٰلَ اَلتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾، وقد اتسع نطاقُ رأفته ﷺ بالمؤمنين ورحمتِه لهم، حتى أخذ يسَدِّد دَيْن من مـات منهم وعليه دين ،طبقـاً لقـوله ﷺ، ونَصُّـه كما رواه البخـاري في كتاب الفـرائض من صحيحه: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن مات وعليه دَيْن ولم يترك وَفَاءً فعلينا قضاؤه، ومن ترك مالاً فلورثته».

ومعنى قـولـه تعـالى: ﴿وَأَزْوَاجُـهُ أُمَّهَـٰتُهُمْ﴾، أن أزواج النبي ﷺ أُنزِلن منزلة أمهات المؤمنين في وجوب البرور والتوقير والاحترام، وكذلك في منع الزواج بهن من بعده، مصداقاً لقوله تعـالى في آية أخـرَى (٣٣: ٣٥): ﴿وَمَا كَـانَ لَكُمُ أَن تُوذُواْ رَسُولَ اَللَّهِ وَلَا أَن تَنْكِحُـوٓاْ أَزْوَاجَهُ مِنۢ بَعْدِهِ أَبَداً، اِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اَللَّهِ عَظِيماً﴾. أما بنات أزواجه وأخواتهن فالزواج بهن حلال بالإجماع، وإن كان بعض الأئمة يتساهل في التعبير، فيُطلق على بنات أزواج النبي «أخوات المؤمنين».

ومعنى قوله: ﴿وَأُوْلُواْ اُلاَرْحَامِ بَعْضُهُمُ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَـٰبِ اِللَّهِ﴾، أن ذوي القـرابات من أهـل الفـرائض أحق من غيرهم بالتوارث فيما بينهم، وبذلك يُمنع إشراكُ الولد المتبَنَّى مع

ولد الصُّلْب في إرث أبيه أو أمه، لأنه لا رحم بينه وبينهما، وليس من أولادهما الشرعيين الأصليين.

وبمقتضى قوله تعالى في هذه الآية: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، وضَعَ كتابُ الله حَدّاً للتوارث بمجرد الهجرة والمؤاخاة في الدين التي كانت قد حلت مؤقَّتاً محل القرابة، بين الأنصار والمهاجرين، فعاد الأمر إلى نصابه، وعادت المواريث إلى أهلها من ذوي القرابات، الذين لهم حق في الميراث، سواء في ذلك أُولو الأرحام من عموم المؤمنين أو خصوص المهاجرين، طبقاً لقوله تعالى في نفس السياق: ﴿مِنَ ٱلْمُومِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفاً﴾، باب واسع فتحهُ كتابُ الله في وجه من يريد الإحسان إلى من لهُ بِه علاقة خاصة، لكن لاحق له في الإرث، إما لكون درجة قرابته رغم إسلامه لا تعطيه صفة الوارث شرعاً، وإمَّا لِأنه على غير ملة الهالك، كالزوجة الكتابية التي لم تسلم، ففي هذه الحالة التي لا إرْثَ فيها لا مانع من البر والإحسان، عن طريق الهِبَة أو «الوصية» التي جاء بها القرآن.

ولِيُؤكِّدَ كتابُ الله من جديد وجوبَ قصر التوارث على أولي الأرحام بعضهم مع بعض، وإلغاءَ كل ما خالف ذلك مما سبق في الجاهلية أو وقع في صدر الإسلام، قال تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُوراً﴾، بمعنى أن هذا الحكم هو الحكم الأساسي الذي شرعه الإسلام، على وجه الاستمرار الدوام.

وَلِيُثَبِّتَ الحقُّ سبحانه وتعالى فُؤاد خاتِم أنبيائه ورسله على الحق المبين، حتى يقف في وجه الكافرين والمنافقين، ويتحمل كل عَناءٍ في سبيل تربية أصحابه المؤمنين، وتبليغ رسالته إلى العالَمين، ذكَّره كتابُ الله بالميثاق الذي أخذه عليه وعلى كافة الأنبياء في هذا الصدد، مؤكِّداً أن ذلك الميثاق «ميثاق غليظ»، لجسامة أمره، وجلالةِ شأْنه، مخبِراً بأن الصادقين من أَتباعه وأتباع الأنبياء السابقين، سيُسأَلون يوم القيامَة عن مدى تصديقهم لذلك الميثاق، ومدى تنفيذهم له في دُنياهم، لينالوا أحسن الجزاء في أخراهم، أما الذين كفروا بميثاق الأنبياء فسينالون ما يناسبهم من العقاب والجزاء، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ، وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً، لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ، وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً﴾، وكما يُسألُ أَتباعُ الرسل عن هذا الميثاق يُسألُ عَنهُ الرسلُ أنفسهم، مصداقاً لقوله تعالى (٥: ١٠٩): ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾.

ويلاحَظ في هذه الآية البدء بذكر خاتم الأنبياء قبل نوح: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾، ثم ذكر بقية أولي العزم من مشاهير الرسل ـ حسب تَسَلْسُلِهم التاريخي قبل الرسالة المحمدية ـ لأنه هو وارثهم وممثلهم، وخاتمهم الذي أرسله الله إلى الناس جميعاً، بينما ورد ذكره بعد ذكر نوح في قوله تعالى: ﴿(٤٢: ١٣): ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ الآية، لأن المراد في هذه

الآية هو وصف دين الإسلام بالأصالة والقِدم. قال جار الله الزمخشري: «فكأنه قال: شرع لكم الدين الأصيل الذي بُعث عليه نوح في العهد القديم، وبُعث عليه محمد خاتم الأنبياء في العهد الحديث، وبُعث عليه من توسط بينهما من الأنبياء المشاهير».

وكمثال بارز لحرص الرسول الأعظم والصادقين من أصحابه على تنفيذ ميثاق الله، الذي أخذ عليه وعلى بقية الأنبياء، مَهْمَا كلفهم من تضحيات، قَصَّ كتابُ الله قصة أحزاب الشرك والكفر التي تألَّبت عليه وعلى المسلمين، بتحريض من يهود بني النَّضِير، وقررت الزَّحْف على مدينة الرسول بعشرة آلاف مقاتل، عِلاوة على يهود بني قُرَيْظَة، للقضاء على الإسلام والمسلمين، فتصدى رسول الله ﷺ، والمؤمنون الصادقون معه، للوقوف في وجه زَحْف تلك الأحزاب، وأقاموا حول المنطقة المكشوفة من المدينة ـ بإشارة سَلْمان الفارسي ـ خَندَقاً كان الرسول عليه السلام على رأس من يقوم بحفره، وتفتيت صَخْرِه، ونقل ترابه، والغبارُ يتراكم على جسمه الشريف، وهو يرتجز برجز ابن رواحة، تشجيعاً لأصحابه بالقول والعمل والأسوة الحسنة، واستعدَّ الرسول والمؤمنون معه لِمواجهة زحف الشرك والكفر، وإن كان عددهم لا يتجاوز ثلاثة آلاف وعدد الأحزاب أكثر من عشرة آلاف، واستمر الحصار مضروباً على المدينة شهراً كاملاً، وباءت محاولات اقتحام الخندَق كلُّها بالفشل، وخذَل اللَّهُ أحزاب الشرك والكفر، وسلَّط عليهم ريحاً قوية قلعت الأوتاد، وقطعت أطناب الخيام،

وأطفأت النيران، وأكْفأت القدُور، وجال الخيل بعضها في بعض، وأمر رسولُ الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب بمبارزة عمرو بن عَبْدِ وُدّ العامري، من فرسان الجاهلية المشهورين، فلم يلبث أن سقط سريعاً بين يدي عليّ، وكان ذلك علامة النصر للإسلام والمسلمين، وارتحل أعداء الله ورسوله خائبين خاسرين، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّها اَلـذِينَ آمَنُواْ اذْكُـرُوا نِعْمَةَ اَللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنودٌ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا، وَكَانَ اَللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً، إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنَ اَسْفَلَ مِنكُمْ، وَإِذْ زَاغَتِ اِلاَبْصَـٰرُ، وَبَلَغَتِ اِلْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ، وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ اِلظُّنُونَا، هُنَالِكَ اَبْتُلِيَ اَلْمُومِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾.

وكشَفَ كتابُ الله الستار عن موقف المنافقين وتربصهم الدوائر بالمسلمين، وانتحالهم الأعذار، واختلاق المبرّرات للتراجع والفرار، في انتظار النتيجة التي يتوقعون أن تكون على المسلمين لا لهم، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَـٰفِقُونَ وَالذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ، مَّا وَعَدَنَا اَللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً، وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُواْ، وَيَسْتَـٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيٓءَ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾، أي: مكشوفة غير محصّنة، ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ، اِنْ يُّرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً، وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنَ اَقْطَارِهَا ﴾، أي: لو دُخلت عليهم المدينة من جوانبها، ﴿ ثُمَّ سُئِلُواْ الْفِتْنَـةَ ﴾، أي: الردةَ عن الإسلام، ومقاتلةَ المسلمين، ﴿ لَأَتَوْهَا، وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيراً ﴾.

وفضحهم كتاب الله فضيحة أكبر وأشد، عندما وصمهم

بوصمة الخيانة العظمى، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَانُواْ عَـٰهَدُواْ اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ اَلادْبَـٰرَ، وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً ﴾.

وتعقيباً على ما وصفهم به كتاب الله من التخاذل والتآمر أمر رسوله الأمين أن يُعرِّفهم بأنهم مهما حاولوا التراجع والفرار، وتولية الأدبار، فإنه لَا مفرّ لهم من قضاء الله وَلَنْ يُفلتوا من قبضته، فقال تعالى في ختام هذا الربع مخاطباً رسوله الذي وفَّى بالعهد والميثاق، وتَحمّل في سبيله التضحيات والمشاق: ﴿ قُل لَّن يَّنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ اَلْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ، وَإِذاً لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً، قُلْ مَن ذَا اَلذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اَللَّهِ إِن اَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا اَوَ اَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً، وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اِللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً ﴾.

# الربع الأخير من الحزب الثاني والأربعين في المصحف الكريم

قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ
وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾
أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ
أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ
سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ
فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ
ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ
فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ
إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن
كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا
رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ
وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾

مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن
قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ
ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ
عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ
مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ
وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ
وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ
ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا
جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ
ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾
يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ
لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

# الربع الأخير من الحزب الثاني والأربعين في المصحف الكريم

**عبـــاد الله**

موعدنا في هذه الحصة مع الربع الأخير من الحزب الثاني والأربعين في. المصحف الكريم، ابتداء من قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَآئِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَاتُونَ اَلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، إلى قوله تعالى في نفس السورة: ﴿ يَٰنِسَآءَ اَلنَّبِيٓءِ مَنْ يَّاتِ مِنكُمَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا اَلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ، وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اَللَّهِ يَسِيراً ﴾.

يواصل كتاب الله في هذا الربع كشف الستار عن المنافقين الذين كانوا مندسين بين المسلمين، فبرز نفاقهم بشكل واضح، عندما زحفت أحزاب الشرك والكفر على مدينة الرسول، تريد القضاء عليه وعلى دينه والمؤمنين، فقال تعالى وهو يصف ما قَامُوا به من تعويق وتثبيط وراء الجبهة، ومن تثاقل عند الاضطرر للالتحاق بها، وتكاسل عن العمل مع الآخرين فيها: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ، وَالْقَآئِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا، وَلَا يَاتُونَ اَلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا، اَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾.

ثم وَصَفَ كتابُ الله حالَ المنافقين الجبناء عندما رأوا قوة

أحزاب الشرك والكفر، فتملَّكهم الخوف من كل جانب، وحالَهم بعد ما وَلَّت تلك الأحزاب الأدبار، لا يهمهم إلاّ النجاة بأنفسهم إن توقعوا للمسلمين الهزيمة، وإذا غَلَبَ المسلمون كانوا أكثر الناس شَرَهاً وطمعاً في الغنيمة، ولو أن دورهم في كلا الحالين قاصر على مجرّد الدس والغِيبة والنميمة، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ، فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ، اَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ، أُوْلَـٰئِكَ لَمْ يُومِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ، وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيراً ﴾.

ورغماً عن أن أحزاب الشرك والكفر التي تجمعت حول المدينة أَلقى الله في قلوبها الرُّعْب، واضطرت إلى الرحيل، فإن المنافقين ظلوا في شك من هذا الأمر، معتقدين أنها لا تزال تحاصر المدينة، ففَرُّوا إلى بيوتهم، حرصاً على السلامة، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَحْسِبُونَ ٱلاَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ ﴾.

على أن أمنية المنافقين كانت هي أن يقع زحف الأحزاب على المدينة وهُمْ متغيبون عنها في البادية بين الأعراب، حتى لا يتورطوا في نزال ولا قتال، ويكتفوا في هذه الحالة بمجرد السؤال: ما هي أَنباء المعركة التي تدور بين المسلمين وأعدائهم؟ وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَّاتِ ٱلاَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوَ اَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلاَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنَ اَنبَآئِكُمْ ﴾ وإذا تظاهر أحد منهم بالاستعداد لخوض المعركة، رغبةً في التجسس وحب الاستطلاع، لم يبذل إلاّ أقل التضحيات وأضعف الجهود، كمال قال تعالى في نفس

السياق: ﴿ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، تأكيداً لقوله تعالى في وصفهم أوائل هذا الربع: ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

وإذا كان كتابُ الله قد سجل على المنافقين خيانتهم لعهد الله، وتحفُّظهم المُريب وتثاقلهم عن إداء الواجب، كلما دعاهم رسول الله، فها هو كتاب الله على العكس من ذلك ينوِّه بجهود المؤمنين الصادقين، ومسارعتِهم إلى بذل الأنفس والأموال، وخوضِهم المعارك دون تحفظ ولا تثاقل، كلما اضطروا إلى حمل السلاح والقتال، وفاءً بما عاهدوا الله عليه، ودفاعاً عن دين الحق الذي أكرمهم الله بالانتماء إلَيْه، وعلى رأسهم جميعاً سيد الخلق «نبي المَرْحَمة، ونبي المَلْحَمَة» رسولُ الله وخاتم النبيئين، الذي هو قدوتهم وقدوة كافة المؤمنين، وذلك قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كان يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْاخِرَ، وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيراً، وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُومِنُونَ ٱلاحْزَابَ قَالُواْ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمُ إِلَّا إِيمَـٰناً وَتَسْلِيماً، مِّنَ ٱلْمُومِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ، فَمِنْهُم مَّن قَضىٰ نَحْبَهُ، وَمِنْهُم مَّنْ يَّنتَظِرُ، وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا، لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ، وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِنْ شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمُ، إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾.

وواضحٌ أن رسول الله ﷺ كان خيرَ قدوة لأصحابه من الأنصار والمهاجرين، وهو خيرُ قدوة لكافة المؤمنين إلى يوم الدّين، وقد ضرب المثل بنفسه للذين آمنوا معه، عندما دعاهم

إلى مقاومة أحزاب الشرك والكفر، ووافق على إقامة خندق للدفاع عن المدينة، وكان أول من شمّر عن ساعده، وتناول آلة الحفر وآلة تفتيت الصّخر بيده الكريمة، إلى جانب أصحابه الكرام، وهم يقومون بحفر الخندق، فكان حفره بقيادة رسول الله وبركته من أعظم المفاجآت، التي حالت بين تلك الأحزاب والاِستيلاء على عاصمة الإسلام الأولى.

ولما كان الائتِسَاء برسول الله والاِقتداء به على الوجه الأكمل، مَقاماً كبيراً في الدين، لأنّ رسول الله ﷺ يمثِّل الإنسان الكامل بين العالَمين، نَبَّهَ كتابُ الله على أن هذا المقام لا يبلغهُ إلّا الأصفياء الأتقياء من أقوياء الإيمان واليقين، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللَّهَ وَالْيَوْمَ اَلاخِرَ وَذَكَرَ اَللَّهَ كَثِيراً ﴾، بعد قوله: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اِللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾.

وقولُ المؤمنين عندما رأوا تألُّب الآلاف المؤلفة من أحزاب الشرك والكفر عليهم: ﴿ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا اَللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾، إشارةٌ إلى قوله تعالى فيما سبق من سورة البقرة، وهي أول سورة نزلت بالمدينة، مخاطِباً للمؤمنين الأولين (٢١٢): ﴿ أَمْ حَسِبْتُمُ أَنْ تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ، وَلَمَّا يَاتِكُمْ مَّثَلُ الذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَآءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولُ الرَّسُولُ وَالذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ﴾، وقولُهم: ﴿ وَصَدَقَ اَللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ إشارةٌ إلى قوله تعالى في خِتَام تلك الآية: ﴿ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ اَللَّهِ قَرِيبٌ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾، أي: من وَفَّى

بما عاهد عليه الله، كمن كان عليه دَيْن وقضى دَيْنه، واستُعْمِل «النَّحْب» هنا بمعنى النَّذْر الذي يلتزم به الشخص، أو العهد الذي يأخذه على نفسه، ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ يَّنْتَظِرُ ﴾، أي: من ينتظر الشهادة في سبيل الله وفاءً بالعهد، وانتظاراً للوعد، ﴿ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً ﴾، أي: ما بدلوا نَذْرهم ولا عهدهم، والله تعالى لا يُخلِف وعدَهم.

وقولُه تعالى: ﴿ وَيُعَذِّبَ اَلْمُنَٰفِقِينَ إن شَآءَ اوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمُ ﴾، معناه أنهم إذا ماتوا على النفاق عُذِّبوا وكانوا في الدَّرْك الأسفل من النار، وإذا تابوا من نفاقهم وآمنوا حق الإيمان تاب الله عليهم، وألحقوا بالمؤمنين الأبرار، ﴿ إنَّ اَللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾.

ثم تولى كتاب الله وصفَ النهاية الفاشلة التي انتهى إليها حِلف أحزاب الشرك والكفر ضد الرسول والمؤمنين، ووصفَ النهاية الظافرة، التي توَّجَت جهود المقاومة الإسلامية، بِرَحيل تلك الأحزاب، وعودتها من حيث أتت بخُفَّيْ حُنَيْن، وتقليم أظفار يهود بني قُرَيْظَة، الذين بادروا إلى نقض عهدهم مع المسلمين، والتحالف مع الأحزاب، بمجرد زحفها على المدينة، أَمَلاً في القضاء على الإسلام، والتخلص منه في الحين. فقال تعالى: ﴿ وَرَدَّ اَللَّهُ الذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْراً ﴾، أي: ردهم بأخسر صفقة، خائبين منهزمين، ممتلئين غيظاً وحنقاً، ﴿ وَكَفَى اَللَّهُ الْمُومِنِينَ اَلْقِتَالَ ﴾، أي: بما آتاهم من عون ظاهر وخفي، فقد وفقهم إلى مفاجأة المغيرين بما لم يكن في

الْحِسْبان، وذلك بحفر خندق يحمي المدينة أثناء حصارها من كل عدوان، كما سلط الله على أعدائهم ريحاً عاتية شتتت شملهم، وقطَعَت حَبْلهم، وجعلتهم في حالة رُعْب وفزع وعويل، لا يهمهم معها إلّا الانصراف والرحِيل: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾، أمَّد رَسوله والمؤمنين بقوته، وأعزَّ دينه الحقَّ بعزته، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾، أي: مكَّن الله للمسلمين من يهود بني قُرَيْظَة، الذين تقع مساكنهم على بعد بضعة أميال من المدينة، فاستغلوا قربهم منها، وقلَبوا للمسلمين ظَهْرَ المِجَنّ، وتضامنوا مع أحزاب الشرك الزاحِفة عليهم، ظناً منهم أنَّ فرصة القضاء على الإسلام قد حلَّ أجلُها، مع أنهم يُعَدُّون من «أهل الكتاب»، كما وصفهم الله في هذه الآية، لا من أهل الوثنيّة والشرك. والحليفُ الطبيعيُّ لهم، الذي كان المَنطِقُ يقضي بتأييده وَمُناصرته هو دين الحق، الذي جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، لا دين الوثَنية الباطل، الذي لا يؤمن بأيّ كتاب، ولذلك ما كاد رسول الله ﷺ يعودُ من رباطه بالخندق، بعد جَلاء الأحزاب عن المدينة، حتى أُوحِي إليه أن ينهض من فَوْره إلى حصار بني قُرَيْظَة في قراهم المحصنة، القريبة من نفس المدينة، عقاباً لهم على جريمة الغَدْر، وتأديباً لهم على خيانة العهد والضَّرب من الخَلْف، فحاصرهم رسول الله والمؤمنون خمساً وعشرين ليلة، ولما طال عليهم الحصار، ولم يجدوا وسيلة للفرار، لم يسعهم إلّا الخضوعُ والاستسلام، لجنود الإسلام، فقال لهم رسول الله ﷺ: «تنزِلون

على حكمى» فأَبَوْا، فقال: «على حكم سَعْدِ بْنِ مُعاذ» فرضوا به، لأن سَعدَ بن معاذ كان هو سيد الأَوْس، والأَوس كانوا في الجاهلية حُلفاء لبني قُرَيْظة، فاستدعاه رسول الله ﷺ من المدينة، حيث كان نازلاً في قُبَّة بالمسجد النبوي، يُعالَج فيها من سهم أصابه أيام الخندق، فلما حضر ودنا من الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ قال رسول الله: «قوموا إلى سَيِّدكم»، فقام إليه المسلمون وأنزلوه من مَطِيَّته، إجلالاً واحتراماً له في مَحَلِّ ولايته، ليكون ذلك أنفذ لحكمه، فلما جلس قال رسول الله ﷺ: «إن هؤلاء ـ وأشار إلى بني قُرَيْظة ومعهم سيدهم كعب بن أَسَد الذي نقض العهد ـ قد نزلوا على حكمك، فاحكم فيهم بِما شئت، فقال سعد: «وحُكمِي نافذ عليهم؟» فقال رسول الله: «نعم» ثم قال سعد: «وعَلَى من في هذه الخَيْمَة؟» قال رسول الله: «نعم» ثم قال سعد: «وعلى مَنْ هَا هُنا» ـ وأشار إلى الجانب الذي فيه رسولُ الله ﷺ، وهو مُعرِضٌ بوجهه عن رسول الله إجلالاً وإكراماً ـ فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فنطق سعد بن معاذ بحكمه بعد أن ارتضاه الجميع حَكَماً، والتزمت الأطراف المَعْنِيَّة كلها تنفيذ حكمه، وقال: «إني أحكم أن تُقتَل مُقاتلتُهم، وتُسبَى ذريتُهم وأموالُهم»، فقال له رسول الله ﷺ: «لقد حكمت بحكم الله تعالى من فوق سبعة أَرْقِعة»، أي: من فوق سبع سماوات. وكان مُقاتلتُهم ما بين سبعمائة إلى الثمانمائة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا في نفس السياق بغاية الإيجاز والإعجاز: ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَاسِرُونَ فَرِيقاً، وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَـُٔوهَا ﴾، لأنها كانت خاصة بهم،

ومحرماً دخولُها على غيرهم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾، يعفو عمن يستحق العفو والإكرام، وينتقم ممن لا ينفع فيه إلّا الانتقام.

وكما تحدث كتاب الله في الربع الماضي عن حالة «الظِّهار» وحالة «التَّبنِّي» وعلاقة أولي الأرحام بعضهم مع بعض، وعلاقة المؤمنين بالرسول الأعظم وبأزواجه أُمهات المؤمنين، فبيّن حكم الله فيما وصفه من تلك الحالات، وحدّد نوع العلاقات الشرعية في تلك المجالات، ها هو يعود مرة أخرى إلى الحديث عن بعض الموضوعات التي لها نوع ارتباط واتصال بما سبق، وفي طليعتها وضع الأسرة النبوية، من الناحية المادية والناحية الأدبية.

وحيث أن للإنسان حالتين: حالة هو فيها تسمى «الدنيا»، وحالة لا بدّ أن يصير إليها وهي «الأخرى»، والإنسان فيما بينهما إمّا أن يحْصر مطالبه ويُرَكّز اهتمامه على الحالة الأولى، أو يحصر مطالبه ويُركِّز اهتمامه على الحالة الثانية، أو يهتم بالحالتين معاً وبما يلزمهما من مطالب مشتركة، فقد أمر اللَّهُ رسوله أَنْ يُجري استفتاءً بين أزواجه، ويطلب منهن التعبير بصراحة عن رغبتهن الدفينة: هل يُرِدْنَ الحياة الدنيا وزينتها، ولا يجدِنْ الراحة وهدوء البال، في عيشة الإقْلال وضِيق الحال، التي اختارها رسول الله ﷺ لنفسه وأهله، أم يُرِدْنَ الله ورسوله والدار الآخرة، فيقنَعْنَ من متاع الدنيا بالقليل، ويكتفين بالمكانة الدينية والأدبية التي ينفرِدْن بها عن نساء العالم، إذ ليس لها بينهُنَّ مثيل، وذلك

ما يتضمنه قوله تعالى مخاطِباً رسوله: ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا، فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً، وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَٱلدَّارَ ٱلآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً ﴾.

وهكذا أصبح أزواج رسول الله ﷺ أمام اختيار حاسم، فمَن اختارت منهن الحياة الدنيا وزينتها واعتبرت الجانب المادي أهمّ من الجانب الروحي كانٍ لها الحق في السراح الجميل والمتاع بالمعروف، ونتيجةُ ذلك مفارقة بيت الرسول والخروج من عصمته، ومَن اختارت الله ورسوله، وقدَرتْ حُظْوَة الانتماء إلى بيت الرسول، والاندماجِ في أهله حقَّ قَدْرها، دون أن تعير اهتماماً كبيراً للجانب المادي العابر، بقيت في بيت الرسول، فحافظت على مالها من مَقام كريم، وفازت من الله ـ جزاء إحسانها ـ بالأجر العظيم.

والمراد (بالسَّراح الجميل) في هذه الآية مفارقة الزوج لزوجته دون أن يُلحق بها أيَّ ضرر، لا من الناحية الأدبية، بالإساءة إلى عِرضها أو ذكر عيوبها، ولا من الناحية المادية، بمفارقتها في غير الوقت المشروع للفراق، أو بتضييع حق من حقوقها. ونظيرُ هذا المعنى قولُه تعالى في سورة البقرة في آية سابقة (٢٢٩): ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَـٰنٍ ﴾، وقولُه تعالى في آية لاحقة من هذه السورة (٤٩): ﴿ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴾.

ومعنى قوله تعالى هنا: ﴿ أُمَتِّعْكُنَّ ﴾، أي: أَمنحْكُنَّ عند

الفراق عطاءً مناسباً، من باب المواساة والتسلية، والعون على اجتياز مرحلة الفراق الصعبة، في انتظار استئناف حياة زوجية جديدة، وسبق في سورة البقرة (٢٣٦) قوله تعالى: ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدْرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدْرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلْمَعْرُوفِ، حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، وقوله تعالى في آية أخرى (٢٤١): ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِ، حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾، أمّا نتيجةُ استفتاء الرسول لأزواجه حول نَمَط العيش الذي يرغبْن فيه، ويحرِصْنَ عليه، فقد كانت هي موافقة الواحدة تلو الأخرى، عن رضي واقتناع، على البقاء في عصمته، والتمسك بعدم مفارقته، والاكتفاء بما قَسَم الله له في معيشته، تَعلُّقاً بمحبته وطاعته.

وإشعاراً لأزواج الرسول عليه السلام، بالمكانة الخاصة التي يتمتعن بها، والمسئولية التي تقع على عاتقهن بسبب وجودهن في بيت الرسول، وكونهن من أهله، وموضعَ الاِقتداء لأمته أخبرهن كتاب الله من باب التنبيه والتحذير: أنه كلما عظمت الحُرُمات، تضاعفت عند هتكها العقوبات، وكلما ازداد الفعل قُبحاً ازداد عقابه شدة، وذلك قوله تعالى وهو يخاطبهن في نهاية هذا الربع: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ، وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾.

## الربع الأول من الحزب الثالث والأربعين في المصحف الكريم

وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّوتِهَآ أَجْرَهَا
مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىٓءِ
لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ اِنِ اِتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ
فَيَطْمَعَ ٱلَّذِے فِے قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾
وَقَرْنَ فِے بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ اِ۬لْاُولَىٰ
وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ
إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ
وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِے بُيُوتِكُنَّ
مِنَ ـ ايَٰتِ اِ۬للَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾
اِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُومِنِينَ وَٱلْمُومِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ
وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ

وَالصَّٰبِرَٰتِ وَالْخَٰشِعِينَ وَالْخَٰشِعَٰتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ
وَالْمُتَصَدِّقَٰتِ وَالصَّٰٓئِمِينَ وَالصَّٰٓئِمَٰتِ وَالْحَٰفِظِينَ
فُرُوجَهُمْ وَالْحَٰفِظَٰتِ وَالذَّٰكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا
وَالذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾
وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا
أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ
وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي
نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ
فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ
اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ
اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ
يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ
وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ
وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ
بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِے يُصَلِّے عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم
مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَكَانَ بِٱلْمُومِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾
تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمُۥٓ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيٓءُ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾
وَدَاعِيًا اِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُومِنِينَ
بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ
وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعَ اَذِيٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَيٰ بِٱللَّهِ
وَكِيلًا ﴿٤٨﴾

# الربع الأول من الحزب الثالث والأربعين في المصحف الكريم

## عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول تفسير الربع الأول من الحزب الثالث والأربعين في المصحف الكريم، ابتداء من قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَـٰلِحاً، نُـوتِهَا أَجْـرَهَا مَرَّتَيْنِ، وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَـٰفِرِينَ وَالْمُنَـٰفِقِينَ، وَدَعْ أَذَيٰهُمْ، وَتَوَكَّلْ عَلَى اَللَّهِ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾.

وَاصَلَ كتاب الله في الآيات الأولى من هذا الربع خطابه لأزواج الرسول عليهِ السلام، مبيناً أولاً أن صيانة الحُرُمات توجب مضاعفة الثواب، كما أن هَتْك الحُرُمات يوجب مضاعفة العقاب، وذلك مايتضمنه قوله تعالى مخاطباً لنسـاء النبي: ﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَـٰلِحاً نُوتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقـاً كَرِيمـاً ﴾ و«القنوت» الـطاعة، و«الـرزق الكريم» هـو ما أعـده الله لهن في دار النعيم، وإنما ضـوعف أجرُهنَّ لـطلبهن رِضَا الله بالطاعة والعمل الصالح، وطلبهن رِضَا الرسول بحسن

الخلق، وطيب المعاشرة، والقناعة بما هُنَّ عليه من العيش دون إلحاح ولا إزعاج.

ثم قال تعالى وهو يخاطب أزواج النبي: ﴿ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ ﴾، مؤكداً بذلك شرف منزلتهن، وفضل درجتهن، وعظيم مسؤوليتهن، منبهاً إلى أن «تَقْوَى الله» هو الأساس الذي تبني عليه كل المزايا والفضائل، وأن من لم يتق الله لا يستحق إلّا أسفل الدرجات وأحَطَّ المنازل.

وإمعاناً في تهذيب أزواج الرسول عليه السلام، وتمكينهن من تسنم أعلى المقامات في التربية والسلوك، حتى يَكُنَّ خير قدوة للمؤمنين والمؤمنات، لقنهن كتاب الله جملة من الآداب النافعة، والوصايا الجامعة، التي تخلع عليهن مزيداً من الجلال والوقار، وتجعلهن في مَنْأى عَن كل الشبهات والأوزار. والخطَاب وإن كان موجهاً إليهن بالأصالة فهو موجه بالتَّبَع إلى جميع نساء المسلمين.

**الوصية الأولى**: أن يكون كلامهن جزلاً، وقولهن فصلاً، دون ترقيق مصطنع، قد يبعث الغريب على الطمع، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾، أي: في قلبه ريبة، ﴿ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً ﴾، أي: قولاً حسناً، لا ليِّناً ولا خشناً.

**الوصية الثانية**: أن يصرفن عنايتهن الخاصة واهتمامهن الزائد إلى تدبير بيوتهن، إذ لا تتحقق سعادة البيت والأسرة على

الوجه الأكمل إلاّ بالاِستقرار، والتعاون والوقار، وعدم التعرض لمخالطة الأشرار، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾.

**الوصية الثالثة**: أن يترفعن، عند الحاجة للخروج من البيت، عن التلبس بمظاهر الجاهلية الجهلاء، ويبتعدن كل الابتعاد عن «التبرج» الذي هو أخطر وسيلة للإغراء والإغواء، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾، أي: لا تُحدثْنَ في الإسلام جاهليةً أخرى، على غرار الجاهلية الأولى قبل الإسلام، فإنها محرمة من باب أولى وأحرى، وسبق قوله تعالى في سورة النور (٦٠): ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ، وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾، وقالت عائشة رضي الله عنها: «يا معشر النساء: قصتكن قصة امرأة واحدة، أحل الله لَكُنَّ الزينة غير متبرجات لمن لا يحل لكن أن يروا منكن محرّماً».

**الوصية الرابعة**: أن يُقِمن الصلاة التي هي عِمَاد الدين، والحق الأول من حقوق الله، ويوتين الزكاة التي هي عماد التكافل بين المؤمنين، والحق الأول من حقوق عباد الله، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ ﴾.

**الوصية الخامسة**: أن يُطِعنَ الله ورسوله طاعة عامة مصحوبة بالرضى والتسليم، طبقاً لما في كتاب الله وسنة رسوله الكريم، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾.

وبعْدما انتهى كتاب الله من عرض الآداب والوصايا التي وجه الخطاب بها إلى أزواج الرسول وأمهات المؤمنين بَيَّنَ الحكمة

الإلَهية من وراء ذلك، ألا وهي أن المستوى الأخلاقي العالي الذي يريده لأزواج الرسول عليه السلام، وأهل بيته الكرام، في سلوكهم الخاص والعام، إنما يطالبهم به لتظل منزلتهم الخاصة في القلوب بمَنْأى عن كل نقد أو تجريح، لا بطريق التصريح ولا بطريق التلويح، فبِتساميهم في السلوك والتزامه عادة وديدَنا، لا يجد من في قلبه مرض مغمزاً ولا مطعناً، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾، وإنما قال: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ... وَيُطَهِّرَكُمْ﴾، نظراً لاشتمال بيت النبوة على رسول الله ﷺ وعليّ والحسن والحسين، بالإضافة إلى أزواج الرسول وبنته، وإذا اجتمع المذكر والمؤنث غُلِّب المذكر.

ونبه جار الله الزمخشري إلى أن كتاب الله استعار كلمة (الرجس) للذنوب، وكلمة (الطهر) للتقوى، لأن عِرْض المقترفِ للسيآت والقبائح يتلوث بها ويتدنس، كما يتلوث بدنه بالأرجاس والخبائث، بينما عِرض الذي يمارس الحسنات ويتشبث بالمحاسن يظَلّ نقياً مصوناً، كنقاء الثوب الطاهر النظيف.

ولِيؤكد كتاب الله نفس التوجيهات السامية، ويعمق معناها ومغزاها في قلوب أمهات المؤمنين وعقولهن وَجَّهَ إليهن أمراً جديداً بأن يتذكرن على الدوام ما يتلقاه الرسول عليه السلام من الوحي، فيتلوه عليهن غَضّاً طرياً، ويستمعن إليه بكرة وَعَشِياً، وبقدر الأسبقية والأولوية في المزية، تتضاعف المسؤولية، وذلك

ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾.

والأمر بذكر ما يتلي في بيوتهن يصدق بامتنان الله عليهن بهذه النعمة ووجوب شكره عليها، إذْ أكرمهن فجعلهن أزواجاً لرسول كريم يتلقى الوحي من ربه، ويصدق بوجوب تدبره والتفكر فيه والعمل به، ويصدق بوجوب حفظه وقراءته وتبليغه إلى الناس، كما يصدق بهذه المعاني جميعاً، إذ لا تناقض بينها ولا تعارض، بل يكمل بعضها بعضاً.

وذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد «بآيات الله» هنا آيات القرآن، و «بالحكمة» سنة الرسول التي هي بيان وتطبيق للقرآن، وذهب جار الله الزمخشري عند تفسير هذه الآية إلى أن ﴿ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ شيء واحد، حيث إن كتاب الله كتاب جامع بين أمرين، فهو «آيات بينات» تدل على صدق النبوة، لأنَّه معجِزٌ بنظمه، وهو «حكمة» وعلوم وشرائع، وأحسن القاضي أبو بكر (ابن العربي) وأجاد وأفاد، عند ما قال: «آيات الله حكمته، وسنّة رسوله حكمته، والحلال والحرام حكمته، والشرع كلُّه حكمة».

ويؤخذ من قوله تعالى في نفس السياق: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً ﴾، أن لطف الله بنساء النبي، وعلمه بما في قلوبهن من خير، هو الذي اهَّلهن لنيل هذه المنقبة، حتى حُزْنَ بين نساء العالمين أعلى مرتبة.

ومن الحديث عن أزواج الرسول عليه السلام وأهل بيته، الذي استغرق سبع آيات: ثلاث آيات في نهاية الربع الماضي وأربع آيات في هذا الربع، ابتداء من قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً ﴾، انتقل كتاب الله إلى الحديث عن أعضاء المجتمع الإسلامي عموماً، رجالاً ونساءً، وحدد الصفات البارزة التي يجب أن يتميز بها أعضاء هذا المجتمع المثالي المهذب، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ، وَٱلْمُومِنِينَ وَٱلْمُومِنَـٰتِ، وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ، وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ، وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ، وَٱلْخَـٰشِعِينَ وَٱلْخَـٰشِعَـٰتِ، وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَـٰتِ، وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ، وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ، وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيراً وَٱلذَّٰكِرَٰتِ، أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾. وطبقاً لهذه الآية الكريمة يكون على كل عضو من أعضاء المجتمع الإسلامي أن يستوفى عشر صفات:

**الصفة الأولى**: صفة الإسلام، وهذه الصفة تقتضي الانقياد التام للتوجيه الإلٓهي، والعيش في ظله وتحت رعايته، في سلام وانسجام.

**الصفة الثانية**: صفة الإيمان، وهذه الصفة تقتضي التصديق بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، وبكل ما جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين عن رب العالمين، تصديقاً جازماً عن علم ويقين.

**الصفة الثالثة**: صفة القنوت، وهذه الصفة تقتضي القيام

بالطاعة في حالة اطمئنان وسكون، والمداومة عليها إلى جانب غيرها من الشؤون.

**الصفة الرابعة**: صفة الصدق، وهذه الصفة تقتضي التحرّيَ في قول الحق، والإخلاصَ في النية والعمل، والوفاءَ بالعُهود والعقود، وعدمَ تعدي الحدود.

**الصفة الخامسة**: صفة الصبر، وهي تقتضي الصبر عن المعاصي والخصال الذميمة، وذلك بالابتعاد عنها وعدم تناولها، والصَّبْرَ على الطاعات والخصال الحميدة، وذلك بالتمسك بها وعدم إهمالها، والصبرَ عند مفاجآت الأقدار، وذلك بعدم السخط من أجلها، وعدم الاِعتراض على الله فيها.

**الصفة السادسة**: صفة الخشوع، وهذه الصفة تقتضي انكساراً في النفس، وسكينة في القلب، وسكوناً في الجوارح.

**الصفة السابعة**: صفة التصدق، وهذه الصفة تقتضي الإحسان إلى القادر على الكسب، مَتَى كان في وَقتٍ معين لا كسب له، والإحسان إلى العاجز عن الكسب، ما دام لا كاسِبَ له، وتشمل الصدقة بالفرض والنفل، وتتسع أحياناً فتشمل الصدقة بالنفس، علاوةً على الصدقة بالمال.

الصفة الثامنة: صفة الصيام، وهذه الصفة تتحقق بصيام الفرض كرمضان، وصيام النفل كصيام عاشوراء، وثلاثة أيام من كل شهر، وتتسع أحياناً فَتَشْمَلُ الإمساك عن كل ما هو مرذول شرعاً من الأقوال والأفعال.

**الصفة التاسعة**: صفة العفة في العلاقات الجنسية، وهذه الصفة تقتضي التحرز من الوقوع في المآثم والمحارم التي تشوه هذه العلاقات، مما لا يقبله الشرع الحكيم، ولا يرضى عنه العقل السليم، وتستلزم الاِقتصار على ما هو موافق للشرع، وملائم للطبع.

**الصفة العاشرة**: صفة الذِّكْر، وهذه الصفة لا تقتصِرُ على ذكر الله باللسان، بل تقتضي ذكره وحضوره في الذهن والقلب والخاطر باستمرار، وبذلك تكون مراقبة العبد لربه فى تصرفاته متصلة دون انقطاع، لا في الليل ولا في النهار. ومِنْ ذكر الله قراءةُ القرآن، والاشتغال بالعلم النافع لبني الإنسان.

فمن استوفى مجموع هذه الصفات، التي يعود نفعها على الغير كما يعود نفعها على الذات، كان أهلاً لأن ينال مغفرة الله وثوابه، وأَمِن في الآخرة عذابَه، ومن استوفي بعضها دون بعض كان له من الثواب بقدر ما استوفاه، وآخذه الله بما أهمله واتبع فيه هواه.

ويلاحظ أن كتاب الله عندما عرض هذه الصفات لم يذكر في الثمانية الأُوَل متعلَّق أي صفة، بينما ذكر المتعلَّق في الصفتين الأخيرتين، إذ قال تعالى: ﴿وَالْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَـٰفِظَـٰتِ، وَالـذَّاكِـرِينَ اَللَّهَ كَثِيـراً وَالـذَّٰكِـرَٰتِ﴾، ففي ذكـر متعـلَّق ﴿وَالْحَـٰفِظِينَ﴾، تنبيه إلى أخطار الشهوة الغالبة، ومكانها الذي يجب الحرص على صونه وحفظه من طَرَف الرجال والنساء، تجنباً للوقوع في الحرام، وبعداً عن العدوان والاِعتداء، وفي ذكر متعلَّق

﴿وَالذَّاكِرِينَ﴾، تنبيه إلى أن الذكر ينبغي أن يكون بالاسم الأعظم وهو «الله» إذ هو الاسم العَلَم المحتوي على جميع صفات الحق سبحانه وتعالى، فمن ذكره بهذا الاِسم كان كمن ذكره بجميع صفات الكمال، واستحضر في ذكره صفات الجلال وصفات الجمال.

وقولُه تعالى: ﴿أَعَدَّ اَللَّهُ لَهُم﴾، عاد الضمير فيه على المسلمين والمسلمات، وما عطف عليهما، طبقاً للتغليب المتَّبَع في الأسلوب العربي عند اجتماع الذكور والإناث.

وعقَّبَ كتابُ الله على ما شرعه الإسلام في هذه السورة من التشريعات والأحكام، للقضاء على مخلفات الجاهلية، التي كانت بعض رواسبها لا تزال سارية، فقرَّر قاعدة عامة يجب أن يلتزمها كل مؤمن ومؤمنة، ألا وهي أنه إذا حكَمَ اللَّهُ ورسولُه في شيء من الأشياء، خاص أو عام، بحكم من الأحكام، فلا تسوغ معارضته ولا الوقوف في وجههِ بأيّ حال، وإنما يلزم قبوله وتنفيذه بِمُنْتَهَى التسليم والاِمْتِثال، سواء كان الحكم لصالح المحكوم له، أو كان عليه، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿وَمَا كَانَ لِمُومِنٍ وَلَا مُومِنَةٍ اِذَا قَضَى اَللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً اَن تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنَ اَمْرِهِمْ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى (٤ : ٦٤): ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُومِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾، ثم بيّن كتاب الله أن من يعْتَرِض على حكم الله ورسوله ويتعَرَّض له إنما يسلك مسالك الضلال، فقال تعالى هنا في نفس السياق: ﴿وَمَنْ يَّعْصِ اِللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَّلَّ

ضَلَٰلًا مُّبِيناً ﴾، كما توعد في آية أخرى من يخالف أمر الله ورسوله بالفتنة في الدنيا والعذاب في الآخرة، فقال تعالى (٢٤ : ٦٣): ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذِينَ يُخَالِفُونَ عَنَ امْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ اَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ ﴾.

وبمقتضى ما خولته هذه القاعدة القرآنية لرسول الله ﷺ في مجال التشريع والحكم، ورغبةً منه في إهدار الفوارق الاجتماعية في الزواج، التي كانت متعارفة في الجاهلية، أعلن لأمته أن مجرد الاشتراك في العقيدة والدين، شرط كاف في «الكفاءة» بين الزوجين، وأنه من الخير للإسلام والمسلمين أن يُفتَح بابُ الزواج والمصاهرة بين من هم متفاوتون اجتماعياً إذا كانوا متساوين دينياً، وبديهيٌّ أن قريشاً كانت مدعوة في الطليعة لأن تطبق هذا المبدأ الإسلامي، فتفتح باب الزواج بينهَا وبين «المَوَالي» على مصراعيه، وها هو رسول الله ﷺ يتقدم بنفسه ليضرب المثل لغيره، فيرسل إلى زينب بنت جحش، وكانت بنت عمته أُمَيْمَة بنت عبد المطلب، يخطبها لمولاه زيد بن حارثة، الذي عاش في كفالة الرسول وخدمته، منذ وهبته له زوجته خديجة، عند زواجه بها قبل النبوة، فأعتقه وتبناه، وقد كان ابنُ أخ زوجته خديجة، حكيمُ بن حِزام بن خُوَيْلد هو الذي وهبه لها، حيث آل إليه بالشراء من سَبْي من الشام سَبَتْهُ خيل من تهامة، وعندما علمت زينب بنتُ عمة الرسول أنه لم يخطبها لنفسه وإنما خطبها لمولاه زيد بن حارثة استنكفت من زَيْد وقالت: أنا خير منه حَسَباً، اعتباراً لنسبها في صميم قريش، الذي يُعَدُّ عند العرب نسباً رفيعاً، بَيْنَما

نسبُ زيدٍ لا يزالُ يُعَدُّ في نظرهم نسباً وضيعاً، إذ هذه أول سابقة من نوعها أراد الرسول عليه الصلاة والسلام أن يفتح بها الباب، ليزيل ما كان بين العرب ومواليهم من الفوارق والحجاب، لكن بعدما استَمَعَت بنت عمته إلى كتاب الله وهو يقول: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُومِنٍ وَلَا مُومِنَةٍ إِذَا قَضَى اَللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً اَن تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنَ اَمْرِهِمْ ﴾، لم يسعها إلاّ النزول على أمر الرسول، والرضى بزيد بن حارثة زوجاً لها والقبول، فدخل بها ومكثت عنده ما يقرب من سنة أو يزيد قليلاً، غير أن العِشْرة بينهما لم تكن مريحة ولا مطمئنة، فللاعتبارات الاجتماعية التي توارثها العربُ لا تزال رواسبها حية في النفوس، ومن الصعب أن تمحي بسرعة وسهولة، ولا سيما في هذه المرحلة الأولى، ولذلك ما لبث زيد بن حارثة أن أخذ يحس بالهُوَّة التي تَفرِق بينه وبين زوجته زينب، وابتدأ يتردد على رسول الله، شاكياً إليه بنت عمته التي زوَّجهُ بها، وكان يشكو منها على الخصوص غلظة قول، وعصيان أمر، وتعظماً بالحسب والنسب، ويُعرِبُ في كل مناسبة عن نُفْرته منها، ورغبته في فراقها، فتأكد لدى الرسول عليه السلام أن العشرة بينهما لن تأخذ طريقها السَّويّ، وأن زواجهما لا بد آئل إلى الفراق، لكنه بالرغم من ذلك لم يزل يوصي زيداً بإمساكها، حيث أن أبغض الحلال إلى الله الطلاق، ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ (٢ : ٢١٦)، ولَم يَغب عن علمه ﷺ ما سوف تتعرض له بنت عمته من الضياع إذا لم يُقبل على الزواج بها من يماثلها أو يقاربها حسباً ونسباً بعد فراق زيد لها، لا سيما والرسول عليه الصلاة والسلام هو الذي خطبها وأشرف على زواجه بها، ولولا

تدخله المباشر لما قبلت الزواج بزيد مولاه، وبالرغم من هذه الخواطر التي كانت تشغل بال الرسول عليه الصلاة والسلام فيما بينه وبين نفسه، والعواقب التي كان يتوقعها مِن فراق زيد لبنت عمته ومصيرها بعد فراقه، لم يشأ أن يبُتَّ في هذه المشكلة بمجرد الاستنتاج والاجتهاد، وكان عليه أن ينتظر، حتى ينزل في شأنها وحي إلّهي صريح، فقد كان يخشى على الناس أن يقعوا في الفتنة من جرّاء قصة زيد التي لها طابع خاص من جهة، لما احتفَّ بها من الظروف والملابسات، وطابع عام من جهة أخرى، لأنها أول سابقة من نوعها في حياة العرب ينطبق عليها حكم الإسلام الصارم، بعد ما ألفوا «التبني» ورتبوا عليه آثارَهُ الباطلة قروناً طوالاً، لا سيما والمرجفون من المنافقين مُنْدَسُّون بين أظهرهم، يتحينون الفرص للدَّسِّ والإرجاف وبث البلبلة، فجاء كتاب الله بحل هذه المشكلة النفسية والاجتماعية، معلناً بالنسبة لزيد وزينب إذنَه لرسول الله بالزواج من بنت عمته، بعد ما أصرَّ على فراقها زيدٌ مولاه، وفارقها من تلقاء نفسه، وبذلك يتحَدَّدُ مصير بنت عمته، فلا تبقى أيِّماً دون زوج، ولا تذوق أَلَمَ الإهمال والغربة، مع ما يتبعهما من غم وكربة، ويكافؤها الله على طاعتها لرسوله بقبول الزواج من مولاه ـ لِفتحِ الباب في وجه المصاهرة بين العرب والموالي ـ في البداية، فتصبح من بين أزواجه أمهات المؤمنين في النهاية: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَـٰكَهَا ﴾، ومعلناً في نفس الوقت أن النهاية التي آلت إليها قصة زيد إنما هي نموذج خاص للحكم العام الشامل، الذي تندرج تحته كل مشكلة من هذا النوع، بالنسبة للسلف والخلف: ﴿ لِكَيلَا يَكُونَ

عَلَى ٱلْمُومِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَاجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَراً ﴾.

وهذا الحل الذي نطق به كتاب الله في الآية السابعة والثلاثين من هذه السورة هو النتيجة المنطقية المستخلصة من قوله تعالى في الآية الرابعة منها: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ، ذَالِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ﴾، إذ بمقتضى هذه الآية أصبح الإبن الذي ليس بابن الصلب ـ وهو الذي وصفه كتاب الله بوصف (الدَّعِيّ) والجمع (أدعياء) ـ شخصاً أجنبياً عن متبنِّيهِ السابق، وأصبح هذا المتبَنِّي ـ الذي كان يُدعَى (أباً) بالرّغم من أنه ليس بأب ـ مسموحاً له بالزواج من امرأة الابن الدعيِّ، متى فارقها وأنْهَت عِدتها، لأنها بالنسبة إليه زوجة أجنبي عنه، وليست زوجة ابنه الحقيقي، والمحرَّم على الآباء هو الزواج بزوجات أبنائهم الحقيقيين من الصُّلب، لا زوجات أدعيائهم الذين وقع تبنِّيهِم وليسوا من أبنائهم الأصليين، مصداقاً لقوله تعالى فيما سبق من سورة النساء (٢٣): ﴿ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ الذِينَ مِنَ اَصْلَٰبِكُمْ ﴾ ويُلحق بهم الأبناء من الرضاع، إذ «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب».

وعن هذه النازلة الفريدة المليئة بالعِبَر تحدث كتاب الله مخاطِباً رسوله الصادق الأمين الذي لا يكتم وحي ربه ولا يمين، مبيناً ما تضمنته من حِكَم وأحكام، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلذِيٓ أَنْعَمَ اَللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ، وَاتَّقِ اِللَّهَ، وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اَللَّهُ مُبْدِيهِ، وَتَخْشَى اَلنَّاسَ، وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَيٰهُ، فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَٰكَهَا، لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى

اَلْمُومِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَاجِ أَدْعِيَآئِهِمُ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَراً، وَكَانَ أَمْرُ اَللَّهِ مَفْعُولاً، مَّا كَانَ عَلَى اَلنَّبِيٓءِ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اَللَّهُ لَهُ، سُنَّةَ اَللَّهِ فِي اِلذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً، اِلذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ اِللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً اِلَّا اَللَّهَ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيباً، مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ اَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ، وَلَـٰكِن رَّسُولَ اَللَّهِ وَخَاتِمَ اَلنَّبِيٓـِٕنَ، وَكَانَ اَللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾.

والمراد «بالذي أنعم الله عليه وأنعم عليه رسولُه» هو زيد بن حارثة، فقد أنعم الله عليه بالسبق إلى الإيمان، وخصه من بين الصحابة بذكر اسمه الصريح في القرآن، وأكرمه بـالشهادة في سبيل الله والفوز بنعيم الرضوان، وقد أنعم عليه الرسول عليـه الصلاة والسلام بالعتق والحرية، والكفالة والتربية، وبتزويجه ببنت عمته القرشيـة، وتنصيبه أميراً على المجاهدين في جميع السرايا التي بعثه فيها، وآخرها غزوة مُؤْتَة من أرض الشام سنة ثمان من الهجرة.

ثم وجه كتاب الله الخطاب إلى كافة المؤمنين، داعياً إياهم إلى الإكثـار من ذكر الله وتسبيحـه بقـدر المستـطاع، بـاللسـان والجَنان، وعدم الغفلة عن نعمه المتوالية على بني الإنسان، مبشراً للمؤمنين بصلاة الله عليهم، ودعاء الملائكة لهم بتلقي المزيد من الهداية والرحمة والإحسان، مع وعدهم بالنعيم المقيم، والأجر الكريم، وذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ اَلذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُ لِيُخْـرِجَكُم مِّنَ اَلظُّلُمَـٰتِ إِلَى اَلنُّـورِ، وَكَانَ بِـالْمُومِنِينَ رَحِيمـاً، تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَـهُ سَلَـٰمٌ، وَأَعَدَّلَهُـمُ أَجْراً كَرِيماً ﴾.

وخُتم هذا الربع بخطاب إلهي رقيق، موجه إلى الرسول الأعظم، يُبرز مبلغ منة الله عليه، ومبلغ المنّة العامة التي أسداها بإرساله إلى البشرية جمعاء، ومبلغ المنّة الخاصة التي خصّ بها المؤمنين من أمته، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيٓءُ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً، وَدَاعِياً إِلَى اَللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً، وَبَشِّرِ اِلْمُومِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اَللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً ﴾، وكما قال تعالى في الآية الأولى من فاتحة هذه السورة مخاطباً لرسوله: ﴿ يَـٰأَيُّهَا اَلنَّبِيٓءُ اتَّقِ اِللَّهَ وَلاَ تُطِعِ الْكَـٰفِرِينَ وَالْمُنَـٰفِقِينَ ﴾، ها هو كتاب الله يجدد نفس الخطاب، ويؤكد نفس المعنى في الآية الثامنة والأربعين من نفس السورة، وذلك في ختام هذا الربع إذ يقول: ﴿ وَلاَ تُطِعِ اِلْكَـٰفِرِينَ وَالْمُنَـٰفِقِينَ ﴾، ونظراً لما تعرض له الرسول والمؤمنون من أذى الكافرين والمنافقين في مختلف المواقف والمناسبات، مما وصفه لنا كتاب الله تصريحاً أو تلويحاً، فيما سبق بهذه السورة من الآيات، جاء في نفس السياق الأمر بالصبر على أذاهم، حتى يحكم الله بيننا وبينهم، إذ قال تعالى: ﴿ وَدَعَ اَذيٰهُمْ، وَتَوَكَّـلْ عَلَى اَللَّهِ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾.

# الربع الثاني من الحزب الثالث والأربعين
# في المصحف الكريم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُومِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ
مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا
فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيٓءُ إِنَّآ
أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ
يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ
وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً
مُّومِنَةً اِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيٓءِ اِنَ اَرَادَ ٱلنَّبِيٓءُ أَن
يَّسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُومِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا
مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ
لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾
تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُووِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ اِبْتَغَيْتَ
مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ

وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا
فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَآءُ
مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ
إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾
يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ
لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا۟
فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ
كَانَ يُؤْذِى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ
مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ
حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ
أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ اللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ
أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟
شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾
لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ
وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ
وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ

شَےْءٖ شَهِيداًۖ ﴿٥٥﴾ اِنَّ اَ۬للَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى اَ۬لنَّبِےٓءِۖ
يَٰٓأَيُّهَا اَ۬لذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماًۖ ﴿٥٦﴾ اِنَّ
اَ۬لذِينَ يُوذُونَ اَ۬للَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ اُ۬للَّهُ فِے اِ۬لدُّنْي۪ا وَالَاخِرَةِ
وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناًۖ ﴿٥٧﴾ وَالذِينَ يُوذُونَ اَ۬لْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَٰتِ
بِغَيْرِ مَا اَ۪كْتَسَبُواْ فَقَدِ اِحْتَمَلُواْ بُهْتَٰناً وَإِثْماً مُّبِيناًۖ ﴿٥٨﴾
يَٰٓأَيُّهَا اَ۬لنَّبِےٓءُ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ اِ۬لْمُومِنِينَ
يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۖ ذَٰلِكَ أَدْنَيٰٓ أَنْ يُّعْرَفْنَ فَلَا
يُوذَيْنَۖ وَكَانَ اَ۬للَّهُ غَفُوراً رَّحِيماًۖ ﴿٥٩﴾

# الربع الثاني من الحزب الثالث والأربعين في المصحف الكريم

## عبـــاد الله

موعدنا في هذه الحصة مع الربع الثاني من الحزب الثالث والأربعين في المصحف الكريم، ابتداء من قوله تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا اَلذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُومِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْـلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا، فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُوذَيْنَ، وَكَانَ اَللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾.

تحدث كتاب الله في الآية الأولى من هذا الربع عن إحدى الحالات التي تتعرض لها الحياة الزوجية، وهي حالة من أمضى عقد النكاح، لكن قبل الدخول بمن عقد عليها دعاه داع ملح إلى فراقها، ففي هذه الحالة لا تجب عليها عدة، وتستطيع استيناف الزواج بمجرد الفراق، بينما يجب على مطلِّقها أن يؤدي لها في الحين نصف الصداق المسمى في العقد، وإذا لم يكن الصداق «مُسمّى»، لأن النكاح «نكاح تفويض»، ووقع الطلاق قبل التراضي على الصداق كان لها الحق في «المُتْعة» وحدها، وهي ما يقدمه الزوج للزوجة عند طلاقها، لمساعدتها مادياً على تَخَطِّي

مرحلة الطلاق، في انتظار المرحلة القادمة من الزواج، وهذه المتعة شبه التعويض بلغة العصر، وليُفارقها على وجه جميل، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُومِنَـٰتِ، ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا، فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴾.

ويلاحظ في هذه الآية وصف الزوجات المعقود عليهن بوصف ﴿ ٱلْمُومِنَـٰتِ ﴾، فقد قال تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُومِنَـٰتِ ﴾، إرشاداً من الله لعباده إلى أن أفضل زواج ينبغي أن يختاره المؤمن لنفسه هو الزواج بمؤمنة مثله تَدِين بدينه، وتشعر بشعوره، وتكون لها نفس النظرة إلى الحياة التي يحياها، ونفس الاحترام للمقدسات التي يقدسها، والقِيَم التي يحافظ عليها، فينشأ أولاده في بيئة مؤمنة يسودها الانسجام والوئام، نفسياً وروحياً واجتماعياً، أمّا الزواج (بالكتابيات) فلم يندب إليه الإسلام أصالة، وإنما أباحه بصفة استثنائية، لتحقيق بعض الأغراض الشرعية، بحيث مَتَى أصبح ذلك الزواج عاجزاً عن تحقيقها كان البعد عنه أُوجب وأولى، لما له من عواقب سيئة محققة، على الأسرة المسلمة والمجتمع الإسلامي.

كما يلاحظ في هذه الآية إطلاق «النكاح» على العقد وحده، قال ابن كثير: «وليس في القرآن آية أصرح في ذلك من هذه الآية».

ويشهد لما ذكرناه من وجوب أداء نصف الصداق «المسمّى» إلى الزوجة المطلقة قبل الدخول قوله تعالى فيما سبق من سورة

البقرة (٢٣٧): ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾.

أما «المُتْعَة» بالنسبة لمن كان نكاحُهَا نكاح «تفويض» لأنه لم يُسَمَّ صداقهاقبل الطلاق، فيراعَى في قدرها حال الزوج المفارق، مصداقاً لقوله تعالى في نفس السورة (٢: ٣٦): ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً، وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ، مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ، حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾.

وأما الزوجة التي تم العقد عليها ثم مات عنها زوجها قبل الدخول، فلا بد لها من أن تعتد منه أربعة أشهر وعشراً، وهي في ذلك سواء مع الزوجة التي مات عنها زوجها بعد الدخول، مصداقاً لقوله تعالى فيما سبق من سورة البقرة (٢٣٤) ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً﴾.

والحكمة في ذلك بالنسبة لمن مات عنها زوجها قبل الدخول إشعار الزوجة المتوفَّي عنها زوجُها بأن اختياره لها، وتعلقَ قلبه بها، وحرصَه على تكوين أسرة معها، ومفاجأتَه بالموت قبل تحقيق أمنيته، كل ذلك يستحق من جانبها تقديرَ فقده واحترام ذكراه، وعدمَ التسرع في الزواج بغيره في الحين، فالزواج تحيط به اعتبارات إنسانية وأخلاقية متعددة، وليس عقداً مادياً صرفاً.

وخصص كتاب الله الآية الثانية من هذا الربع للحديث عما

أحل الله لرسوله من الزواج، فقال تعالى مخاطباً لنبيه: ﴿ يَأَيُّهَا اَلنَّبِيٓءُ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اَلتِيٓءَ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾، وأطلق لفظ «الأجور» هنا على نفس «المهور» تجوزاً وتوسعاً، وإن كان الصداق والمهر ليس بأجرة، وعقد الزواج ليس عقد إجارة، وإنما قال تعالى: ﴿ اَلتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾، إشارةً إلى أن سَوْق المهر إلى الزوجة عند العقد عليها والدخول بها أفضل من تسميته وتأجيله، فاختار الله لرسوله الأفضل والأولى، قال جار الله الزمخشري: «وكان التعجيل ـ أي: بالمهر ـ دَيْدَن السلف وسنّتهم، وما يُعرَف بينهم غيرُه».

ثم قال تعالى: ﴿ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ اَللَّهُ عَلَيْكَ ﴾، أي: مما حل لك من الغنائم، ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ، وَبَنَاتِ خَالِكَ، وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ اَلتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾، أي: اللاتي دخلن في الإسلام وهاجرن معك إلى المدينة، ﴿ وَامْرَأَةً مُّومِنَةً اِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيٓءِ ﴾، أي: عرضت نفسها للزواج به دون مهر، ﴿ اِنَ اَرَادَ اَلنَّبِيٓءُ اَنْ يَّسْتَنكِحَهَا ﴾، أي إن أراد الزواج بها، وقد كانت إباحة الزواج على هذه الصفة من خصائص الرسول وحده، إذ لا يصح زواج أحد من أمته إلاّ بمهر، ولبيان الصفة الاستثنائية لهذه الحالة من الزواج قال تعالى هنا في نفس السياق: ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ اِلْمُومِنِينَ ﴾، إذ الرسول وأمته سواء في الأحكام، إلاّ فيما خصَّهُ الدليل، لكن الرسول عليه السلام بالرغم من إباحة الزواج بالهبة له خاصة لم يتزوج إلاّ بمهر، لأن اختيار هذا النوع من الزواج علقته الآية الكريمة على رغبته وإرادته: ﴿ اِنَ اَرَادَ

ﭐلنَّبِيٓءُ اَنْ يَّسْتَنكِحَها﴾، فلم يكن إذن مُلزَماً بقبول الهبة، وقد روى عن ابن عباس ومجاهد أنهما قالا: «لم يكن عند النبي ﷺ امرأة موهوبة».

وبادر كتاب الله إلى التنبيه في هذا السياق على أن تخصيص الرسول ببعض الأحكام يقتضي قصرها عليه، وعدم السماح بتطبيقها على كافة المؤمنين، فلا بد أن يقفوا عندما حد لهم الشارع من شروط وقيود، سبق علم الله بها، وقضاؤه بحكمها، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى في جملة اعتراضية: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾، أي: على المؤمنين، ﴿وَمَا مَلَكَتَ اَيْمَـٰنُهُمْ﴾، وعقَّب كتاب الله على ما خص به نبيه فقال: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ، وَكَانَ اَللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾.

ثم عاد سياق الآيات إلى موضوع أزواج الرسول، فتحدث كتاب الله إلى نبيه عن طريقة معاملته لأزواجه في نطاق الحياة اليومية، والعِشْرة الزوجية المثالية، وفوَّض له في ذلك، انطلاقاً مما وصفه الله به من «الخُلُق العظيم» وأنه «بالمؤمنين رؤوف رحيم»، فقال تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ، وَمَنِ اِبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾، فلِكُل واحدة منهن حق معلوم في رعاية الرسول ومودته، وحظ مقسوم في التمتع بحسن عشرته، ولذلك قال تعالى مؤكداً هذا المعنى الإنساني الرفيع، وكاشفاً عما فيه من سر بديع: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ، وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾، فالله تعالى

يريد لأمهات المؤمنين أن يكُنَّ قريرات الأعين في بيت الرسول، وأن يعشْنَ عيشة راضية في جو عائلي مقبول، وما دام الرسول عليه السلام هو خيرَ أسوة لكافة المؤمنين، فمن واجبهم أن يمتعوا أزواجهم بما متع به رسول الله أزواجه أمهاتِ المؤمنين: ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ، وَكَانَ اَللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً ﴾.

ومبالغةً في إكرام الله لأزواج رسوله، إذ اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، ولم يرضَيْن بفراق رسوله من أجل متاع الـدنيا وزينتها، خاطبه الحق سبحانه وتعالى بأنه لا يحل له، من بعد ذلك الاختيار، إلاّ مقابلته من جانبه باختيار مثله، بحيث لا يزيد عليهن، ولا يبدِّلُهن بغيرهنّ، ما عدا «مِلك اليمين» الذي قد يؤول إليه من غنائم الجهاد، وذلك قوله تعالى: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ اَلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ، وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنَ اَزْوَاجٍ، وَلَوَ اَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ، إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾، وعقَّب على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ اَللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً ﴾، وشعـور أزواج الرسـول عليه السـلام برقابة الله عليه وعليهن ضمانةٌ إضافية لهناء عيشهن، وإحسانٌ بالغ من الله إليهن.

وقوله تعالى في نفس السياق: ﴿ وَلَوَ اَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾، توكيدٌ لوصف «البشرية» الذي لا يعد وصمة، وإنما يعد كمالاً، في حق «الإنسان الكامل» الذي هـو الرسـول الأعظم، فقـد اصطفاه الله لرسالته، واختـارَ أن يكـون « بشراً رسـولاً »، وفيه إشارة إلى أن النظر إلى المخطوبة عند خِطبتها جائز، وإلى أن حسن المرأة من جملة الدوافع الطبيعية للزواج بها، وإن اعتبار

هذا العنصر لا حرج فيه في نظر الإسلام، لكن يجب أن يكون مدَّعماً بعنصر «التديُّن» الذي هو صِمام الأمان، من تقلبات القلوب وطوارىء الزمان.

ثم وجَّه كتابُ الله الخطاب إلى المؤمنين من ضيوف الرسول، الذين يدعوهم الرسول لتناول الطعام عنده، ولقَّنَهم آداب الضيافة، وفي طليعتها الميل إلى التخفيف في الجلوس والحديث، والانصراف بمجرد انتهاء المأدُبة التي حضروها، حتى يتفرغ الرسول عليه السلام لرعاية أهله، إذ لأهله عليه حق. ونبه كتاب الله في نفس السياق إلى منع دخول بيوت النبيء دون إذن منه، إبطالاً للعرف الذي كان سائداً في الجاهلية بدخول البيوت من غير إذن أصحابها، ثم استمر في صدر الإسلام. كما نبه إلى منع «التطفل» دون دعوة سابقة، وإلى هذه المعاني مجتمعة يشير قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النَّبِيِّءِ إلَّآ أَنْ يُّوذَنَ لَكُمُ ﴾، وهذا النص هو الذي يمنع الدخول إلى البيت دون إذن صريح، إذ لا بدّ من الدعوة والإذن في فتح الباب والدخول، وقولُه: ﴿ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَيٰهُ ﴾، أي: لا تحضروا وتَنْتَظِروا وقت نضج الطعام واستوائه دون سابق دعوة، ﴿ وَلَـٰكِنِ اِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلواْ ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُم فَانتَشِرُواْ ﴾، أي: اذهبوا لحال سبيلكم، ﴿ وَلَا مُسْتَـٰنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾، أي: لا تطيلوا الجلوس والتبسط في الكلام، بعد الانتهاء من تناول الطعام.

وبعد ما ميز كتاب الله ما هو سائغ ومقبول مِمَّا هو مرفوض

ومرذول، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ﴾، و«الإذايَة» كل ما تكرهه النفس، وكما كان ذلك يؤذي النبي عليه السلام كان يؤذي أزواجه، لكن لما كان البيت بيت النبي ﷺ والحق حقه أضيف ذلك إليه: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾، وهكذا وجَّه كتابُ الله الخطاب إلى ضيوف الرسول في هذا الشأن، دفعاً للأذى والحرج الذي كان يصيبه ويصيب أهله في بعض الأحيان، لكنه لم يكن يفصح عنه، لغلبة الحياء عليه ﷺ.

وبهذه المناسبة لفت كتاب الله أنظار الذين تدعوهم الحاجة لمخاطبة أزواج الرسول، إلى أن الواجب يقضي عليهم بمخاطبتهن من وَراء حجاب، لا وجهاً لوجه، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا ﴾، أي: حاجة، ﴿ فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾، أما الحكمة في هذا التدبير المُحكم فقد بينها كتاب الله إذ قال: ﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾، فطهارة القلوب من خواطر السوء، بالنسبة للرجال والنساء على السواء، مرهونة بالعفاف وغض البصر.

ولما انتهى كتاب الله من تفصيل القول في الحياة العائلية للرسول وهو على قيد الحياة، أعلن كتاب الله حكمةُ في مصير أزواج الرسول بعد أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى، فحرم الزواج بهن من بعده على كافة المؤمنين، إذْ هن بمنزلة أمهاتهم في الحُرمة والحِرمة إلى يوم الدين. يضاف إلى ذلك ما في هذا التَّدْبير من توقير للرسول يتناسب مع عظيم منزلته، وسامي مكانته، وذلك قوله

تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُوذُواْ رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَاجَهُ مِنۢ بَعْدِهِ أَبَداً، إِنَّ ذَالِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً، إِن تُبْدُواْ شَيْئاً اَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾.

ورفعاً للحَرج في العلاقات العائلية المتشابكة التي لا غنى عنها أسقط كتاب الله الحجاب عن النساء، بالنسبة لعدد من أقارب العائلة الأقربين ومن في حكمهم، فقال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي ءَابَآئِهِنَّ وَلَا أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ، وَلَآ أَبْنَاءِ اخْوَٰنِهِنَّ، وَلَآ أَبْنَآءِ اَخَوَاتِهِنَّ، وَلَا نِسَآئِهِنَّ، وَلَا مَا مَلَكَتَ اَيْمَـٰنُهُنَّ﴾ ولم يَذْكُر العم والخال، لأنهما يجريان مجرى الوالدين ويقومان مقامهما، بدليل نزولهما منزلتهما في حِرمة النكاح. وقد جاءت تسمية العلم أبا في كتاب الله على لسان أبناء يعقوب وهم يخاطبون أباهم، وذلك في قوله تعالى (٢: ١٣٣): ﴿قالوا نَعْبُدُ إِلَـٰهكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ﴾، فأطلقوا لفظ «الأب» على إسماعيل الذي هو عم أبيهم يعقوب، كما نبه على ذلك الزمخشري والقرطبي.

وسبق في «سورة النور» ذكر الأقارب الذين لا حرج في رؤيتهم لزينة النساء، ومن بينهم نفس الأقارب المذكورين ومن في حكمهم، إذ قال تعالى (٣١): ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوَ ـابَآئِهِنَّ، أَوَ ـابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ، أَوَ اَبْنَآئِهِنَّ، أَوَ اَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ، أَوِ اِخْوَانِهِنَّ، أَوْ بَنِيٓ إِخْوَانِهِنَّ، أَوْ بَنِيٓ أَخَوَاتِهِنَّ، أَوْ نِسَآئِهِنَّ، أَوْ مَا مَلَكَتَ اَيْمَـٰنُهُنَّ، أَوِ اِلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي اِلِارْبَةِ مِنَ اَلرِّجَالِ، أَوِ الطِّفْلِ اِلذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَاتِ اِلنِّسَآءِ﴾.

وبعد أن أذِن كتاب الله للنساء برفع الحجاب عند مقابلة هؤلاء الأقارب ومن في حكمهم ومعاملتهم، أوصاهن الحق سبحانه وتعالى بالتزام تقواه ومراقبته في الخلوات والجلوات، حماية لهن من كل زيغ، وصيانة لهن من كل شبهة، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقِينَ اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً ﴾.

وتزكيةً للرسول من ربه، وتنويهاً بقدره لدى أمته ولدى الإنسانية جمعاء، وتعريفاً بسامي منزلته في الملأ الأعلى عنده، تفضل الحق سبحانه وتعالى فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيٓءِ ﴾، وصلاة الله على رسوله والصالحين من عباده ترمز إلى ذكره الجميل لهم، وثنائه عليهم، وصلاة الملائكة عليهم دعاؤهم لهم بالرحمة والرضوان، ولرسول الله ﷺ من ذلك النصيب الأوفر، والحظ الأكبر.

ثم لقن كتاب الله كافة المؤمنين والمؤمنات ما يجب عليهم نحو الرسول الكريم، من التعْظيم والتكريم، بالصلاة عليه والتسليم، فقال تعالى في نفس السياق: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾، قال ابن كثير: «أَمَر تعالى أهلَ العالم السُّفلي بالصلاة والسلام عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالَمين، العُلْوي والسُّفْلي جميعاً».

واستناداً إلى هذه الآية الكريمة ذهب جماعة من الصحابة والتابعين وأئمة الشريعة إلى أن الصلاة على رسول الله ﷺ واجبة في الصلوات الخمس، بحيث لا تصح الصلاة بدونها، خصوصاً في التشهد الأخير. ومن أشهر القائلين بوجوبها في الصلوات

الخمس الإمام محمد بن إدريس الشافعي، والفقيه المالكي المشهور محمد بن إبراهيم المعروف بابن المواز، وقال القاضي أبو بكر (ابن العربي) المعافري: «الصلاة على النبي ﷺ فرض في العمر مرة بلا خلاف، فأما في الصلاة فقال محمد بن المواز والشافعي إنها فرض، فمن تركها بطلت صلاتُه، وقال سائر العلماء: هي سنة في الصلاة، والصحيح ما قاله محمد بن المواز للحديث الصحيح: (إن الله أمرنا أن نصلي عليك فكيف نصلي عليك)، فعَلَّم الصلاة ووقتها، فتعيَّنا كيفيةً ووقتاً». ولْيَجْمَع المصلي بين الصلاة عليه والتسليم، ولا يقتصرْ على أحدهما دون الآخر، و«الصلاة الإبراهيمية» التي علمها رسول الله ﷺ لأصحابه أفضل صيغ الصلاة، والصيغة التي رواها الإمام مالك هي أصح صِيَغها سنداً، أما الصلاة على غير الأنبياء، من عامة المؤمنين، فهي مخالفة لما درج عليه السلف الصالح من تخصيصها بمقام النبوة والرسالة.

ونظراً لخطورة الأذى الذي يوجهه أعداء الرسالات الإلٓهية إلى أنبياء الله ورسله، إذ يصدون الناس عن رسالته، ويقفون في وجه انتشار تعاليمه والعمل بتوجيهاته، وما يُلْحِقُه أَذَاهُمْ البالغ ومكرهم السيء بعدد كبير من البشر، فيما بطن من حياتهم وما ظهر، أعلن كتاب الله غضبه عليهم، ولعنته لهم، وتوعَّدهم بالعذاب المُهين في يوم الدين، وذلك كاف للتنفير من قربهم، والحَضّ على هجرهم وعدم الثقة بهم، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ، وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً

مُهيناً ﴾، وكما استنكر كتاب الله أذى أعداء الرسالات الإلهية لما فيه على الإنسانية كلها من ضرر كبير، استنكر الأذى الموجَّهَ إلى أعراض المؤمنين والمؤمنات دون حق، لما فيه من اعتداء وتزوير، والله تعالى لا يرضى لأمة الإسلام فيما بينها إلاّ التعامل بالصدق، والوقوف عند حدود العدل والحق، فقال تعالى: ﴿ وَالذِينَ يُوذُونَ الْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُواْ فَقَدِ اِحْتَمَلُواْ بُهْتَـٰناً وَإِثْماً مُّبِيناً ﴾.

وبعد ما تحدث كتاب الله عن خطورة الأذى العام الذي يمتد إلى كافة البشر، والأذى الخاص الذي ينال من عِرْض المؤمنين والمؤمنات، نبه في ختام هذا الربع إلى نوع أخص من أنواع الأذى قد تتعرض له الأسرة المسلمة في كل وقت، إذا لم تأخذ في علاقاتها مع الغير عند الحاجة، بالحِيطَة والحذر، ولم تتحصن من عناصر السوء، بالمزيد من التعفف والتصاون، حتى لا تنزلق نحو حافة الخطر، وذلك قوله تعالى مخاطباً لرسوله وملقناً لأمته: ﴿ يَـٰأَيُّهَا اَلنَّبِيٓءُ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ اِلْمُومِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ﴾، والجلباب هو الثوب الذي يستر جميع البدن: ﴿ ذَالِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُّعْرَفْنَ فَلَا يُوذَيْنَ، وَكَانَ اَللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾.

# الربع الثالث من الحزب الثالث والأربعين في المصحف الكريم

لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ
وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ
بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا
ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى
ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾
يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ
لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ
سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾
يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ
وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا
فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ
لَعْنًا كَثِيرًا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟

مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اُ۬للَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ اَ۬للَّهِ وَجِيهاً ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا
اَ۬لذِينَ ءَامَنُواْ اُ۪تَّقُواْ اُ۬للَّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمُۥٓ
أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُّطِعِ اِ۬للَّهَ وَرَسُولَهُۥ
فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا اَ۬لَامَانَةَ عَلَى اَ۬لسَّمَٰوَٰتِ
وَالَارْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَّحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا
اَ۬لِانسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ اَ۬للَّهُ اُ۬لْمُنَٰفِقِينَ
وَالْمُنَٰفِقَٰتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ اَ۬للَّهُ
عَلَى اَ۬لْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَٰتِ وَكَانَ اَ۬للَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴿٧٣﴾

بِسْمِ اِ۬للَّهِ اِ۬لرَّحْمَٰنِ اِ۬لرَّحِيمِ

اِ۬لْحَمْدُ لِلَّهِ اِ۬لذِے لَهُۥ مَا فِے اِ۬لسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِے اِ۬لَارْضِ وَلَهُ اُ۬لْحَمْدُ
فِے اِ۬لَاخِرَةِ وَهُوَ اَ۬لْحَكِيمُ اُ۬لْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِے اِ۬لَارْضِ
وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ اَ۬لسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ اَ۬لرَّحِيمُ
اُ۬لْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ اَ۬لذِينَ كَفَرُواْ لَا تَاتِينَا اَ۬لسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّے
لَتَاتِيَنَّكُمْ عَٰلِمُ اُ۬لْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِے اِ۬لسَّمَٰوَٰتِ
وَلَا فِے اِ۬لَارْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِے كِتَٰبٍ
مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِيَ اَ۬لذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ اُ۬لصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم

مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ
أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ
الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ
الْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ
يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾
أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ
أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾

# الربع الثالث من الحزب الثالث والأربعين في المصحف الكريم

## عبـــاد الله

في هذه الحصة نتناول تفسير الربع الثالث، من الحزب الثالث والأربعين في المصحف الكريم، ابتداء من قوله تعالى في سورة الأحزاب المدنية: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴾، إلى قوله تعالى في سورة سبأ المكية: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾.

عند بداية هذا الربع وجه كتاب الله إنذاراً صريحاً إلى العناصر المندَسة بين المؤمنين في مدينة الرسول وعاصمة الإسلام الأولى، محذراً تلك العناصر من عواقب نشاطها الهدام، البارز فيما تقوم به من دس جلي أو خفي، وتمسك بالانحراف الخلقي الذي اعتادته في الجاهلية، وبث للبلبلة في صفوف المجتمع الإسلامي الناشيء، عن طريق ترويج الإشاعات الكاذبة، والدِّعايات الاِنهزامية المتكررة، كلما قام الرسول والمؤمنون بالدفاع عن كيان الإسلام، الذي لا يزال مهدداً من طرف أحزاب الشرك والكفر في الداخل والخارج، وقد أقسم كتاب الله على

هذا الإنذار الإلٓهي الخطير، وهو يخاطب رسوله الأعظم إذ قال: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ، وَالذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَـدِينَةِ لَنُغْـرِيَنَّكَ بِهِمْ، ثُمَّ لَا يُجَـاوِرُونَكَ فِيهَـآ إِلَّا قَلِيـلًا مَّلْعُـونِينَ ﴾. و«الارجاف» هـو إشاعـة الكذب والبـاطل بقصـد التماس الفتنة وتهييج الخواطر، وتثبيط الهمم، وشل العـزائم، والمراد بقوله تعالى: ﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾، أي: لنسلطنك عليهم، فتنزل بهم ما هم أهل له من العقاب، و«اللعنة» هي الطرد من رحمة الله، قال جـار الله الزمخشـري: «والمعنى ـ لئن لم ينته المنـافقـون عن عـداوتهم وكيـدهم، والفَسَقَـةُ عن فجـورهم، والمرجفون عما يلفِّقون من أخبار السوء ـ لَنَأْمُرَنَّك بأن تفعل بهم الأفاعيل التي تسوءهم، ثم بأن تضطرهم إلى طلب الجلاء عن المدينة، وإلى أن لا يساكنوك فيها» وإنما عَطَف (بثُمَّ) «ثم لا يجاورونك فيها» لأن وَقْع الجلاء عن الوطن أعظمُ من جميع ما يصابون به، فتراخت حاله عن حال المعطوف عليه.

ومن تسليط الله لنبيه عليهم وإغرائه له بهم، عِلاوة على النفي والتشريد، تهديدهم إن لم ينتهوا عنْ موقفهم المـريب، ويكُفُّوا عن نشاطهم الهدام، بوضـع اليد عليهم حيثمـا وُجدوا متلبسين بالجريمة، وتعريض أنفسهم للاعتقال والقتل أينما ذهبوا، جزاء تعريضهم «سلامة الدولة الإسلامية» الناشئة للخطر، وذلكْ قوله تعالى في نفس السياق: ﴿ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾، تأكيداً لِنَامُوسِ الحياة الذي عرفته البشرية من

أقدم العصور، في الدفاع عن سلامتها ضد الأخطار المحدقة بها، وقيامها بعزل العناصر الهدامة، وتقليم أظفارها، كلما أصبح نشاطها يُشكِّل خطراً محققاً عليها. قال أبو حَيَّان: «والظاهر أن المنافقين انتهوا عما كانوا يؤذون به الرسول والمؤمنين، وتسترَ جميعُهم وكَفُّوا، خوفاً من أن يقع بهم ما وقع القَسَم عليه، وهو الإغراء والجلاء، والأخذ والقتل».

غير أنهم لم يمتثلوا للانتهاء امتثالاً عاماً وشاملاً، ولم تزل تبدو منهم نزوات، وتفلت منهم فلتات، فيتعرضون من أجلها لمعاملة استثنائية، دون أن ينفذ عليهم الوعيد الذي هم متوعدون به كاملاً، ومن وجوه تلك المعاملة الاستثنائية إخراجهم من المسجد النبوي في بعض الأحيان، وعدم إقامة صلاة الجنازة على موتاهم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾، وما أُنزل من الآيات للكشف عن مواقفهم في عدة وقائع ومواقع، ولا سيما ما نزل في حقهم في سورة التوبة.

ويلاحظ أن رسول الله ﷺ تفادى عقابهم بالقتل، وإن كان هذا العقاب مسموحاً به مبدئياً، بمقتضى قوله تعالى هنا: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾، لأنهم كانوا مندسين في غمار أصحابه وعامتهم، ولو حَكَم بقتل أحدهم لاختلط الأمر فيه على الناس، ولتحدث المرجفون أن محمداً يقتل أصحابه، ورسول الله ﷺ يترفع عن ذلك.

ونظراً لما عليه خصوم الرسالات الإلٓهية من الكبر والغرور،

والمماحكة فيها لا يوافق هواهم من الأمور، يلِحُّون في السؤال عن قيام الساعة: إمَّا سؤالَ استبعاد يتضمن التكذيب والإنكار، وإمَّا سؤال استعجال وتَحَدٍّ يراد منه الامتحان والاختبار، لكن الله تعالى الذي عنده وحده علم الساعة يلقِّنُ رسوله الجواب الوحيد عن مثل هذا السؤال، تفادياً من كل مماحكة وجدال، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ إذ لم يُطْلِع عليها ملَكاً ولا نبياً، ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾، أي: ما يعلمك، ﴿ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً ﴾، أي: تأتي في وقت قريب، على غرار قوله تعالى في آية ثانية (٥٤: ١): ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وانشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾، وقولِه تعالى في آية ثالثة (٢١: ١): ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾، وفي إجابة السائلين عن الساعة بقرب موعدها ـ ولودون تحديد ـ نوع من الوعيد والتهديد، وثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت أنا والساعةُ كهاتين» وأشار إلى السبابة والوسطى من يده الكريمة، تلميحاً إلى أن الرسالة التي جاء بها من عند الله لا يفصِل بينها وبين قيام الساعة أيّ حاجز حصين، وأنها مستمرة دون انقطاع إلى يوم الدين.

وبعد ما أكد كتاب الله قيام الساعة وقرب موعدها تولى وصف أحوال المكذبين بها عند ما يفاجأون بما لم يكونوا ينتظرونه من الحساب والعقاب، فقال تعالى في شأن أئمة الكفر وقادة الضلال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً، خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَداً، لَّا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً، يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ

يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَاْ ﴾، وقال تعالى في شأن أتباعهم المضلّلين وأنصارهم المخدوعين: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَاْ، رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ، وَٱلْعَنْهُمْ لَعْناً كَثِيراً ﴾، فيتبرأ المرؤوسون من رؤوسائهم، والأتباع من سادتهم وكبرائهم، ويصُبُّون عليهم وابل اللعَنات، لِمَا أوقعوهم فيه من المتاعب والحسرات، وكما سجل كتاب الله في هذه الآية تبرؤ الأتباع من المتبوعين، سجل كتاب الله في آية أخرى تبرؤ المتبوعين من أتباعهم، فقال تعالى (٢ : ١٦٦): ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَـٰبُ ﴾.

وتوكيداً للنهي عن الأذى بسائر أشكاله وأصنافه، مما تحدثَتْ عنه عدة آيات سابقة في هذه السورة، جاء كتاب الله في هذا الربع بنهي عام شامل عن جميع أنواع الأذى، ولا سيما أذى الرسول الأعظم، وأذى الرسول يصدق بانتحال كل ما يخالف عقيدته وشريعته، والنطقِ بما لا يناسب مقامه وشخصيته، ونبّه كتاب الله إلى أن وجود فئة شريرة وسيئة النية تؤذي الأنبياء والرسل ليس أمراً طارئاً ولا غريباً، فقد تعرض موسى الكليم عليه السلام لأذى بني إسرائيل في عدة مناسبات، كَمَا تعرض الرسول الأعظم أحياناً لأذى قومه وأذى مخالفيه وَلَم يَضِرْهُ ذلك: ﴿ وَدَعْ أَذَيٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾، لكن الأذى الواقع في حَقه يجر صاحبه إلى الهلاك، وإلى هذا النهي العامّ يشير قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَالذِينَ ءَاذَواْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا، وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهاً ﴾، ومن هذا الباب حديث الرجل الذي قال في غيبة

الرسول عليه الصلاة والسلام، تعليقاً على قَسْم قَسَمه: «إن هذه لِقسمة ما أريد بها وجهُ الله»، فغضب رسول الله ﷺ عندما بلغه الخبر، فقال: «رحم الله أخي موسى، لقد أُوذي بأكثر من هذا فصبر» والحديث مروي في صحيح البخاري وصحيح مسلم.

وإذا كان الله تعالى لا يرضى لعباده المؤمنين أن يتورطوا في أي نوع من أنواع الأذى، فإن أفضل ما يتقربون به إليه هو النطق بالكلام الطيب، والإقبالُ على العمل الصالح، وذلك ما وصى به كتاب الله عند ما قال: ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾، فقد دعا المؤمنين إلى التمسك بتقوى الله، حذَراً من مكايد الشيطان، ودعاهم إلى السَّداد في القول، بالتزام الحق والصدق وعفة اللسان، ضماناً لحسن المعاملة والبعد عن الشَّنآن، وتوثيقاً لعُرَى التفـاهم بين الإنسان وأخيه الإنسان: «والقول السديد» الوارد في هذه آلاية الكريمة مأخوذ من تَسْدِيد السهم ليصاب به الغرض، يقال سَدَّدَ السهمَ نحو الرَّمِيَّة إذا لم يَعْدِل به عن سَمْتها، وفي ذلك تنبيه إلى أن المؤمن لا ينبغي له أن يتكلم بالعبث، ولا أن يُلقِي الكلام جزافاً دون رويَّة ولا تفكير، بل من واجبه أن يتحرى في القول، وأن لا يقول إلّا حقاً وصدقاً، ولم يقتصر كتاب الله على الأمر بالتقوى وسداد القول، بل بيَّن في نفس السياق حكمة هذا الأمر الإلّهي الحكيم، وما يؤدي إليه امتثالُه في الدنيا والآخرة من الفوز العظيم، فمن نتائجه المباشرة توفيق المؤمن وتوجيهه إلى ممارسة العمل الصالح بصورة مستمرة، بحيث تصبح أعماله كلها موجهة

نحو الصلاح والإصلاح، لا بالنسبة لنفسه ولا بـالنسبة لغيـره، ويصبح شعاره الدائم في الحياة هو شعار شعيب عليـه السلام (١١ : ٨٨)، ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾، وذلك معنى قوله تعالى هنا: ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾، ومن نتائجه المنتظرة إكرام المؤمن بِمَحْو السيئات وغفران الذنوب، والإنعام عليه بعيشة راضية لا يمسه فيها نَصَب ولا لغوب، وذلك معنى قوله تعالى هنا: ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾.

ثم عقَّب كتاب الله على ذلك كله قائلاً: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾، وإنما كان الفوْزُ العظيم في الدنيا والآخرة مرهـوناً بـطاعة الله ورسـوله، والخسـرانُ المبين معقوداً بناصية العصاة الخوارج عن تلك الطاعة، لأن طاعة الله ورسوله تعني التطبيق الدَّقيق للنواميس الخلقية التي وضعهـا الله لضبط سلوك الإنسان، حِمايةً له من الـوقوع في المـزالق والعثرات، وتحصيناً له من عواقب النكسات والأزمات، فيخرج سليماً منها، منتصراً عليها، ويعيش في وئام وانسجام مع توجيهـات خالقـه ورازقه، ومدبر أمره، الذي «طَبَع الطبيعة» و «شَرَع الشريعة».

وبعدما أبرز كتاب الله الأثر العميق الذي تحدثه طاعة الله ورسوله في حياة الإنسان المؤمن، وهو الفوز العظيم بسعادة الدنيا والآخرة،انتقل كتاب الله مباشرة إلى الحديث عن «الأمانة العظمى» التي انفرد بحملها الإنسان دون بقية الأكوان، أليس الإنسان هو الذي تَوَّجَهُ اللَّهُ في الملأ الأعلى بتاج الخلافة في الأرض؟ أَليس

الإنسان هو الذي سخر الله له ما في السماوات والأرض وخلق له ما في الأرض جميعاً؟ أليس الإنسان هو الذي كرَّمه الله فخلقه في أحسن تقويم، وحمله في البر والبحر، وفضَّله على كثير ممن خلقه تفضيلاً؟ لذلك كُلِّه أصبح الإنسان يشعر من أعماق قلبه بأنه هو المخلوق الوحيد المؤهَّل لحمل تَبِعَة الأمانة ومسؤولية التكليف، وأدرك تمام الإدراك أنه لا يكون منطقياً مع نفسه إلاّ إذا تقدم ورشح نفسه أمام ربه لهذه المهمة السامية وهذا العبء الجسيم، إيماناً منه بأن الحقوق والمزايا التي منحه الله إياها ـ تفضلاً منه وكرماً ـ لا يُعقل أن يتمتع بها ويمارسها، دون أن يقوم بواجبات تقابلها، ويتحمل تَبعات تستتبعها وتنشأ عنها.

وتمثيلاً لعَظَمة قدر «الأمانة» التي رشح الإنسان نفسه لحملها، وتصويراً لخطورة مسؤوليتها وتَبِعاتها ضرب كتاب الله المثل بالسماوات والأرض، وخص منها الجبال بالذكر، لكونها أوتاد الأرض الصلبة، ورواسيها الثابتة، التي لها علاقة وثيقة باستقرارها وتوازنها، مبيناً أن السماوات والأرض التي التزمت منذ نشأتها بطاعة الله طاعة مطلقة، قائمة على مجرد «التسخير» ، لا تريد أن تزُجَّ بنفسها في أمر التسيير والتدبير، ومن أجل ذلك أشفقت كل الإشفاق من عرض الأمانة عليها، واستعفت من حملها وتحمل مسؤوليتها، بالرغم مما تتوافر عليه من الخصائص الطبيعية الكبرى التي لا نسبة بينها وبين خصائص الإنسان، ﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ (٤٠ : ٥٧)، وإلى ذلك المَثَل يشير قوله تعالى هنا: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾.

وكما ضرب كتاب الله المثل في هذا السياق، بما عليه السماوات والأرض والجبال من إباء وإشفاق، سيضرب المثل في «سورة الحشر» بخشوع الجبل وتصدعه، من شدة التأثر بكتاب الله، والخشية من الله، إذ يقول (٥٩ : ٢١) : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ، وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

وتشمل «الأمانة» التي حملها الإنسان كل ما يؤتمن عليه من أمر ونهي، وشأنِ دين ودنيا، ويدخل في ذلك الحفاظ على الدين والنفس والعقل والعِرْض والنسل، وبالإجمال تشمل الأمانة قيام الإنسان بالواجبات كلها، أصولها وفروعها، على أن يتقبل العقاب إذا تخلى عنها، وينتظر الثواب إذا وفَّى بها، وكلما كان الشيء المؤتمن عليه مَخْفِيّاً لا يطَّلع عليه إلّا الله كان أحق بالحفظ وأولى بالرعاية.

وبعد ما نوه كتاب الله بشجاعة الإنسان وترشيح نفسه لحمل الأمانة، وقبوله لعرضها، والتزامه للقيام بحقها، أشار إلى ما يعترض حياته من ضعف واختلال، يؤديان به إلى الانحراف والانحلال، ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (٤ : ٢٨)، فيظلم نفسه ويظلم غيره، ويتصرف في شؤونه تصرف الجاهل الذي لا يميز الضار من النافع، ولا يفرِّق بين الصالح والطالح، وذلك قوله تعالى تعقيباً على ما سبق: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾، أما

«ظلمه» البالغ لنفسه وغيره، فلأن الأمانة هي صِمام الأمان بالنسبة للفرد والجماعة، ومَن خان الأمانة أفلت من يده الزِّمام، ولم يَرْعَ أيَّ ذِمام، وتعرض لتقلُّبات الدهر وعوادي الأيام. وأما «جهله» الفاضح، فلأنَّ أبسط شيء من العلم والتجربة يقود الإنسان إلى الاقتناع بأن الأمانة هي محورُ الثقة التي يمكن أن يتمتع بها، وأساس السمعة الحسنة التي يحرص عليها، ومفتاح السعادة التي يطمح إليها، ومن خان الأمانة عاش في هم ونكد، وظل منبوذاً من أهله وقومه طول الأمد، لكن من حسن حظ الإنسانية ما هي عليه من ازدواج وامتزاج، يُعدِّل مزاجها، ويصلح حالها، فالظالمُ لا بد أن يجد من يَحُدُّ من ظلمه، وهو أخوه الإنسان، الذي حمل أمانة العدل، والجاهل لا بدّ أن يجد من يَحُدُّ من جهله، وهو أخوه الإنسان، الذي حمل أمانة العلم، ﴿وَلَوْلَا دِفَـعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الارْضُ﴾ (٢ : ٢٥١)، وبذلك يضيق الخِناق على من خان الأمانة من الجهلة والظالمين، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَآئِنِينَ﴾ (٨ : ٥٨).

ومن نتائج حمل الأمانة والوفاء بها، أو حملها وخيانتها، انقسمَ الناسُ إلى قسمين، فمَن ضيَّعها بالمرة كان أهلاً للعقاب والعذاب، ومن وفَّى بها كُلِّياً، التزاماً بعهده ووعده، نال أجزل الثواب، ومن وفي بها جُزئياً، فخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، لم يخب رجاؤه في مغفرة الله إذا تاب وأناب، وذلك ما ينطق به كتاب الله إذ يقول في ختام سورة الأحزاب المدنيّة: ﴿لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَـٰفِقِينَ وَالْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَـٰتِ﴾، والمنافقون هم

الذين يظهرون الإيمان خوفاً من أهله، ويبطنون الكفر مُتابعة لأهله، والمشركون هم الذين تواطأ باطنهم وظاهرهم على الشرك بالله ومخالفة رسله، ﴿ وَيَتُوبَ اَللَّهَ عَلَى الْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَٰتِ، وَكَانَ اَللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾.

وبعدما منَّ الله علينا بتفسير سورة الأحزاب المدنيّة ننتقل إلى سورة سبأ المكية، وإنما سميت «سورة سبأ» لقول الله تعالى فيها: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَٰكِنِهُم ءَايَةٌ ﴾، وتتضمن فاتحة هذه السورة حمد الله في الأولى والآخرة، وتمجيد حكمته وقدرته، والتعريف بعلمه الذي أحاط بكل شيء من مخلوقاته، وذلك قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اِللَّهِ اِلرَّحْمَٰنِ اِلرَّحِيمِ ، اِلْحَمْدُ لِلَّهِ اِلذِي لَهُ مَا فِي اِلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي اِلَارْضِ ، وَلَهُ اَلْحَمْدُ فِي اِلَاخِرَةِ، وَهُوَ اَلْحَكِيمُ الْخَبِيرُ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي اِلَارْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمَا يَنزِلُ مِنَ اَلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَهُوَ اَلرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي اِلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي اِلَارْضِ ، وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾.

ثم جدد كتاب الله الحديث عن قيام الساعة وموقف المكذبين بها، عن جهل، أو عناد، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ اَلذِينَ كَفَرُواْ لَا تَاتِينَا اَلسَّاعَةُ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَاتِيَنَّكُمْ ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ وَقَالَ اَلذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمُ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ اِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ، اَفْتَرَىٰ عَلَى اَللَّهِ كَذِباً، اَم بِهِ جِنَّةٌ ﴾.

ووصَفَ مآل الذين استجابوا لِلَّهِ ورسوله فقال في حقهم:

﴿ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ، أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾، وبين السر في وقوفهم هذا المَوقف، وهو ما هم عليه من علم وإيمان، فقال تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ، ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ، وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾، كما وصَفَ مآل المعاندين الذين يتحدَّون الله ورسوله فقال في حقهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٍ ﴾، ثم عقب على ذلك بقوله: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾.

وخُتم هذا الربع بدعوة الجاحدين والمعَاندين إلى النظر في خلق السماوات والأرض، والتدبر في آيات الله البارزة فيهما، واستخلاص النتائج الحتمية من التدبر العميق في عظمة خلقهما، مع تهديدهم إن لم يتراجعوا عن جحودهم وعنادهم بعذاب مُفَاجىء، يسلِّط عليهم من تحت أرجلهم أو من فوق رؤوسهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ، إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾.

# الربع الأخير من الحزب الثالث والأربعين
# في المصحف الكريم

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً
يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ
سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَٰلِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ
وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ
رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾
يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ
وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ اعْمَلُوا ءَالَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ
عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ
مَوْتِهِۦ إِلَّا دَآبَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَاتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ
الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا
مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ
ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ
جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَىٰ إِلَّا الْكَفُورُ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا
بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا
فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا
بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ
وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ
شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا
فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ
إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ
اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ
وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾
وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ

عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ
ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾

# الربع الأخير من الحزب الثالث والأربعين في المصحف الكريم

## عبـــاد الله

موعدنا في هذه الحصة مع الربع الأخير من الحزب الثالث والأربعين في المصحف الكريم، ابتداء من قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿ وَلَقَد ءاتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ، قَالُواْ الْحَقَّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾.

في بداية هذا الربع بين كتاب الله لمن لا يزالون في شك من أمر النبوة أن الرسول الأعظم ليس بِدْعا من الرسـل، وأن الرسالات الإلَهية التي جاءوا بها كما تُعنَى بالشؤون الروحية للنوع الإنساني تُعنَى بشؤونه المادية المباشرة، بل تأخذ بيده فتسـدد خطواته الأولى في نفس المجال التقني والصناعي، و«الآخرة» التي دعا الرسلُ والأنبياء إلى الإيمان بها إنما هي المرحلة الأخيرة في مسيرة جهاد الإنسان المتواصل، من أجل صلاح الإنسان، وازدهار العمران، حيث يجني الإنسانُ ثمرة عمله، ويصل إلى تحقيق رجائه وأمله، إن وَفَّى بما عاهد عليه الله في خلافته، ولم يتنكر لدينه وشريعتـه، ﴿ إِنَّا جَعَلْنَـا مَا عَلَى الاَرْضِ زِينَـةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾. (١٨ : ٧).

يقول الله تعالى هنا: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً ﴾، وهذا الفضل الذي آتاه الله إيّاه يظهر بشكل بارز في عدة مظاهر روحية ومادية:

المظهر الأول: تسبيح الجبال معه عندما يتلو «الزَّبور» الذي أنزله الله عليه، وإصغاء الطير أثناء تِلاوته إليه، فالجبال تردد صدى صوته القويّ العظيم، وأسراب الطير تلتف حوله وتَطرَب عند سماع صوته الرخيم، فيشترك في تمجيد الله في آن واحد الجمادُ والحيوان والإنسان، وتبرز من خلال تمجيد الله وتوحيده وحدةُ الأكوان، ﴿ وَإِنْ مِّن شَيْءٍ اِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ (١٧ : ٤٤)، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى وهو ينادي الجبال لتُسَبِّح لله مع نبيه داوود: ﴿ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾، وسيأتي في سورة (ص) قوله تعالى في شأن داوود عليه السلام (١٨): ﴿ اِنَّا سَخَّرْنَا اَلْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالاِشْرَاقِ ﴾، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري رضي الله عنه وهو يقرأ في الليل، فوقف فاستمع لقراءته ثم قال: (لقد أُوتيتَ مزماراً من مزامير آل داوود)، فأجابه أبو موسى قائلاً: «لو علمت أنك تسمع لَحَبَّرته لك تحبيراً» والثوب «المحبَّر» هو المخطط بالألوان، أي: لجعلته لك أنواعاً حساناً. قال القاضي أبو بكر (ابن العربي) تعليقاً على نفس الحديث في سياق كلامه على هذه الآية: «فيه دليل على الإعجاب بحسن الصوت، والقلوبُ تخشع بالصوت الحسن كما تخضع للوجه الحسن، وما تتأثّر به القلوب في التقوى أعظم في الأجر، والأصوات الحَسَنة

نعمةٌ من الله تعالى، وزيادة في الخَلْق ومِنَّة، وأحق ما لَبِس هذه الحُلة النفسية والموهِبَة الكريمة كتابُ الله، فنِعَمُ الله إذا صُرِفت في الطاعة قُضي بها حقُّ النعمة».

المظهر الثاني من مظاهر الفضل الذي آتاه الله داوود: تمكينه من استعمال معدن الحديد فيما تتوقف عليه سَلامة الدولة، وإطلاعُه على سر صناعته، وتطويعه في يده، حتى عاد كالطين المبلول والعجين والشمع. وللحديد أهميةٌ خاصة في حياة الشعوب والدول نبه إليها كتاب الله فيما سيأتي من سورة الحديد، إذ قال تعالى (٢٥): ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾.

المظهر الثالث من مظاهر فضل الله على داوود: تعريفه بالطريقة التقنية المُثْلَى لصنع الدروع، حتى تَحمِي المحاربين من سهام الأعداء، مَتى اضطروا لحمل السلاح، وتنبيههُ إلى أن الدِّرْع الذي يحمِي لابسه يلزم أن يكون على قدر جسمه وقامته، لكي يستره ستراً تاماً، وإرشادُه إلى أن كل حَلْقَة من حلقات الدرع يلزم تقديرها بقدر الحاجة، بحيث تجمع بين الخفة التي لا تُضعِف من مناعة الدِّرع، وبين الحصانة التي لا تثقل الجسم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في نفس السياق: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾، ويقال لصانع الدُروع «سرّاد وزرّاد» بإبدال السين زاياً، ويزيد هذا المعنى توكيداً وإيضاحاً قولُه تعالى فيما سبق من سورة الأنبياء في شأن داوود عليه السلام (٨٠): ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ

اَلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ، وَكُنَّا فَعِلِينَ، وَعَلَّمْنَهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِّنۢ بَأْسِكُمْ، فَهَلَ اَنتُمْ شَكِرُونَ ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عما امتن به على سليمان بن داوود من فضل أشمل وأعظم، وهذا الفضل يتجلى في عدة مظاهر:

المظهر الأول: تسخير الريح له في زمان محدود ومكان محدود، وجعلها أداة سريعة في يده ويد أعوانه، للقيام بأسرع ما يمكن من التنقلات والمواصلات، بحيث يكون من المستطاع قطع مسافة شهر في الغدو ومسافة شهر في الرواح، أي قطع مسافة شهرين في يوم واحد، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَنَ اَلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾، على غرار قوله تعالى فيما سبق في سورة الأنبياء (٨١): ﴿ وَلِسُلَيْمَنَ اَلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى اَلاَرْضِ اِلتِي بَرَكْنَا فِيهَا، وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِمِينَ ﴾، وقوله تعالى فيما سيأتي من سورة (ص: ٣٦): ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾.

والمظهر الثاني: تمكينه من استعمال معدن النحاس، وتعريفُه بالطريقة التقنية المُثْلى لتذويبه وإسَالته، وإرشادُه إلى استعماله في صنع ما يلزم من آلات وأدوات، للنفع الخاص والنفع العام، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ اَلْقِطْرِ ﴾ أي: معدن النحاس، وقولُه تعالى في نفس السياق:

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ، وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾، و«المحاريب» جمع «محراب»، وهذا اللفظ يُطلق على كل بناء مرتفع ممتنع، وعلى أشرف بيوت الدار، كما يطلق على المكان الذي يصلِّي فيه الإمام، لأنه يجب أنْ يُرفع ويُعظَّم، وهو أرفع مكان في المسجد، و«التماثيل» جمع «تمثال»، وهو اسم للشيء المصنوع باليد، المُمَثَّل بغيره، أي المشبَّه به من إنسان أو حيوان أو غيرهما، و«الجِفان» جمع «جَفْنة» وهي القصعة الكبيرة، وشبهت في هذه الآية «بالجَوَابِي» جمع «جابية»، لِاتِّساعها وكِبَرها، ومعنى «الجابية» الحوض العظيم الذي يجمع فيه الماء، و«القدور الراسيات» هي القدور الثوابت التي لا تُحمَل ولا تُحرَّك لعظمها، ومنها يُغرف الطعام في الجفان. قال (ابن العربي): «ورأيت برباط أبي سعيد قدور الصوفية على نحو ذلك، فإنهم يطبخون جميعاً، ويأكلون جميعاً، من غير استئثار أحد منهم على أحد».

وتعليقاً على كلمة (تماثيل) الواردة في هذه الآية وما تفيده من إباحة التصوير على عهد سليمان قال (ابن العربي) ما نصه: «ورد على ألسنة أهل الكتاب أنه كان أمراً مأذوناً فيه، والذي أوجب النهي عنه في شرعنا ـ والله أعلم ـ ما كانت العرب عليه من عبادة الأوثان والأصنام، فكانوا يصوِّرون ويعبدون، فقطع الله الذريعة وحمَى الباب».

ومن لطائف التفسير ما نبه إليه الرازي أثناء تفسيره لهذه الآيات من «أن كتاب الله ذكر ثلاثة أشياء في حق داوود، وثلاثة

أشياء في حق سليمان عليهما السلام، فتسخير الجبال لداوود هو من جنس تسخير الريح لسليمان، وتسخير الطير للأول هو من جنس تسخير الجن للثاني، إذ الشأن في الطير النفور من الإنس، والشأن في الإنس النفور من الجن، ومع ذلك صار الطير لا ينفُر من داوود، بل يستأنس به ويطلبه، وأصبح سليمان لا ينفُر من الجن، بل يُسخِّره ويستخدمه، وأما القِطْر، أي: النحاس والحديد فتجانسهما غير خفي» وذكر كتاب الله في حق داوود اشتغاله بآلة الحرب، بينما ذكر في حق سليمان اشتغاله بمهام السلم؛ لأن مُلكه كان موطَّداً من عهد أبيه.

ثم أننا نجد كتاب الله يُدْرِج في سياق التنويه بفضل الله على نَبيّه سليمان عليه السلام آياتٍ يدور الحديث فيها حول نوع «الجن» الذي يقابل نوع «الأنس»، والمراد بهم نوع خفي من الكائنات يَعمُر الكون عِلاوة على الإنسان، وهو خاضع مثلَه للتكليف في الدنيا والجزاء في الآخرة، حسبما تدل عليه عدة آيات في سورة الأنعام وسورة الأعراف وسورة فُصِّلت وسورة الذاريات وسورة الرحمان وسورة الجن، غير أن كتاب الله لم يُفصِّل القول في هذا النوع الخفي من الأحياء، واقتصر على بيان أن الله خلقه من نار، وترك تفاصيل أمره مستورة ومحجوبة عن الأنظار، ﴿وَالْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ (١٥ : ٢٧)، ﴿وَخَلَقَ الْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ (٥٥ : ١٥).

ونظراً إلى أن بعض الأغرار من البشر تكونت عندهم فكرة غامضة وسخيفة عن الجنّ من نسج الخيال، وأخذوا يعبدونهم،

ظناً منهم أنهم يتصرفون في الكون ويعلمون الغيب، واستمر اعتقادهم الباطل، يتناقله جيل عن جيل، إلى حين ظهور الإسلام، فقد تصدى كتاب الله في سياق الحديث عن سليمان لأبطال هذا الاعتقاد الفاسد، مبيناً أن الجن ليسوا إلّا عبارة عن كائنات خفية، خاضعة لأمر الله، ومسؤولةٍ عما كُلِّفت به أمام الله، فليس للجن في الكون أمر ولا نهي، ولا سطوة ولا تأثير، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى واصفاً تسخير سليمان لهم أثناء حياته: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ، وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنَ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾، على غرار قوله تعالى فيما سبق من سورة الأنبياء (٨٢): ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَالِكَ﴾، وقوله فيما سيأتي من سورة (ص: ٣٧ ـ ٣٨)، ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الاَصْفَادِ﴾.

وللدلالة على أن علم الجن علم قاصر ومحدود، وأنهم لا يعلمون من الغيب شيئاً، على خلاف ما يعتقده الأغرار البسطاء، أورَد كتابُ الله شاهداً على ذلك موتَ سليمان، مبيناً أن الجن الذين كانوا يعلمون بين يديه لم يشعروا بموته، واستمروا على أداء الخدمات الشاقة التي عاقبهم بها، ظناً منهم أنه لا يزال حياً يملك ويحكم، ولولا أن «العصا» التي كان يتوكأ عليها أكلتها الأرَضَة وانكسرت، فسقط جثمانه على الأرض، لَما أدرك الجنّ أنه مات، ولَما توقفوا عما كان قد كلفهم به من الخدَمات، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في نفس السياق: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ

الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَآبَّةُ الأَرْضِ تَاكُلُ مِنْسَاتَهُ، فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ اَلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِي اِلْعَذَابِ اِلْمُهِينِ ﴾، والمراد «بدابة الأرض» هنا الأَرَضَة التي تأكل الخشب، والمراد «بالمِنساة» العَصَا.

وتنويهاً بداود وآله قال تعالى في نفس المقام: ﴿ وَاعْمَلُواْ صَٰلِحاً، اِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾، إشارةً إلى أن الله تعالى يرعى عمل الصالحين من عباده بعين رعايته، ما داموا لا يفترُون في عملهم عن خشية الله ومراقبته. وقال تعالى: ﴿ اِعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُودَ، شُكْراً ﴾، إشارةً إلى أن شكر الله على نِعمه مَتَى كان محوَر الحركات والسكنات، والدافع الأول إلى ما يقوم به العبد من صالح الأعمال وجميل الحسنات، أثمر لصاحبه في الدنيا والآخرة أطيب الثمرات. قال الزمخشري: «فيه دليل على أن العبادة يجب أن تؤدَّى على طريق الشكر»، وقال أبو بكر (ابن العربي) «حقيقة الشكر استعمال النعمة في الطاعة، والكُفران استعمالها في المعصية».

وقد نوه كتاب الله بشكر سليمان في غير ما آية، كقوله تعالى في سورة النمل (١٩): ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنَ اَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنَ اَعْمَلَ صَٰلِحاً تَرْضَيٰهُ ﴾، وقوله تعالى في نفس السورة حكاية عن سليمان وقد رأى عرش ملِكة سبأ بين يديه (٤٠): ﴿ فَلَمَّا رءاهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَآشْكُرُ أَمَ اَكْفُرُ، وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾، إشارةٌ إلى أن أكثر من يتقلبون في نعم الله الظاهرة والباطنة لا يؤدون حق شكرها، بل هم في غفلة ساهون، حتى إذا ذهبت النعمة، وحلت النقمة، أفاقوا من غفلتهم، وندموا على سكرتهم، ولات حينَ مَندم، ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ، وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (١٤ : ٧) و﴿ٱلشَّكُورُ﴾، هو المتوفر على أداء الشكر، الباذل وُسْعَهُ فيه، الذي يشغل به قلبه ولسانه وجوارحه، اعتقاداً واعترافاً وكَدْحاً، حسبما عرّفه جارُ الله الزمخشري، ومن شاء أن يكون من عباد الله الصالحين فلْيكُن من هذا الفوج القليل.

ومن قصة آل داوود التي يتجلى فيها فضل الله ومقابلة فضله بالشكر، انتقل كتاب الله إلى قصة، «سبأ» التي يتجلى فيها فضل الله، لكن مع مقابلته بالجحود والكفر:

أما فضل الله على سبأ فينطق به قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَٰكِنِهِمْ آية، جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ، كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُواْ لَهُ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾، وقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً، وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ، سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً ءَامِنِينَ﴾.

وأما جحود سبأ وكفرهم بنعمة الله، وما نشأ عنه من تبدل الأحوال، والتعرض للدمار والزوال، فينطق به قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ، وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ، ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ، وَهَلْ يُجَٰزَىٰ إِلَّا ٱلْكَفُورُ﴾، وقولُه تعالى: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا

بَـعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا، وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ، فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ، وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ءَلَايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ، وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمُ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ، إِلَّا فَرِيقاً مِّنَ الْمُومِنِينَ ﴾.

يقول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَـٰكِنِهِم ءَايَةٌ ﴾، أي: أن ما أكرم الله به قوم سبأ من خصوبة الأرض وجودة التربة، ونقاوة الهواء، واختلاف الزروع والأشجار، وتنوع الثِّمار، وامتداد الظلال، وجريان الأنهار، يُعَـدُّ آية من آيات الله، الناطقة بقدرته وحكمته ورحمته، الباعثة على عبادته وشكره وطاعته: ﴿ جَنَّتَـٰنِ عَنْ يَّمِينٍ وَشِمَـالٍ ﴾، أي: أن مساكنهم تَحُـفُّ بهـا من جهة اليمين ـ كما تحف بها من جهة الشمال ـ بساتين خضراء، ومزارع فيحاء، على مدِّ البصر، حتى كأَنَّ ما على اليمين من البساتين والمزارع يُكوِّنَ جَنة واحدة، وما على الشمال منها يُكوِّن جنـة واحـدة أيضاً، لاتصـال تلك البساتين والمـزارع بعضها بعض، وتداخل بعضها مع بعض، ﴿ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُواْ لَهُ ﴾، أي: أن كل ما حولهم كانَ لسانُ حاله يوحي إليهم بالإقبالَ على مَائِدة الله، والتمتع بالطيبات من الرزق، والشكر لله على نعمـه المتواصلة، فقد أتم الله عليهم نعمتـه من جميع الـوجوه، ولا يسعهُم إلّا أن ينهضوا بِشكرها فرِحين مبتهجين.

يقول الله تعالى: ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾، هذا تعقيب مستأنف، أوجز فيه كتاب الله وصف أرض سبأ ووصف أهلها، فالأرض أرض طيبة، وطِيبها يصدق بكونها أرضاً خصبة لا سَبْخَة، وكونِ مُناخها مُناخاً صحياً طيب الهواء، لا وخامة فيه ولا وباء،

ولا هوامٌّ كالعقرب والحَيَّة والحِـرْباء، والنـاس في هذه الأرض يعبدون الله ويشكرونه، ويذكرون فضله ويستغفرونه، فيغفر لهم ما فَرَطَ منهم من السيآت، ويتقبل منهم ما قدموه من الحسنات: ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ (١١ : ١١٤).

يقول الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَـا فِيهَا ٱلسَّيْـرَ، سِيرُواْ فِيهَـا لَيَالِيَ وَأَيَّـامًا ءَامِنِينَ ﴾، أي: أن الله تعالى أكرم قوم سبأ بعمران مزْدَهر متصل الحلقات، ترتبط فيه المدن الكبرى بسلسلة من القرى الصغيرة العامرة، المبثوثة في أطراف البادية، وهذه القرى قريبٌ بعضها من بعض، ويتـراءَى بعضُها لبعض، والسيـر فيما بينهـا يمكن ليلاً ونهاراً، بما تتوفر عليه من استقرار وأمان، ناشئَيْن عن ازدهـار واتصال العمران، وقد دلت الكشوف الأثرية الحـديثة على أن الحضارة العربية في عهد دولة سبأ بلغت غاية النمو والازدهار، لا فرق في ذلك بين الناحية الإدارية، والناحية العمرانية، والناحية الثقافية، والناحية الصناعية، والناحية التجارية، والناحية الزراعية.

ومما يتصل بموضوع الآيات الواردة هنا عن سبأ اتصـالاً وثيقاً، ويلقى الأضواء عليها: أن دولة سبأ بلغ أهلُها في العلم بالهندسة وتنظيم الريّ وحسن الاستفادة من مياه الأمطار درجـةً عـالية، فـأنشأوا من السـدود والقنوات مـا كان مثـاراً للدهشـة والإعجاب في أطراف العالم إذْ ذَاكَ، إذْ أَنَّ تلك السدود العربية تعتبر أقدم السدود التي عرفها التاريخ، مما كان له أثر كبير فيما وصفه كتاب الله بأنه «آية» من آيات الله، إذ قال تعالى هنا: ﴿ لَقَدْ

كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ ءَايَةٌ ﴾، وقال: ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾.

لكن لما أعرض قوم سبأ عن عبادة الله وطاعته، وانصرفوا عن شكره على نعمته، بَطَراً وطغياناً، وجحوداً وكفراناً، بدَّلهم الله من حال إلى حال، وسلَّطَ عليهم الكوارث والأهوال، فتهدم «سدّ مأْرب» الذي كان يعد من أعاجيب العالم القديم، إذْ كَانَ أوسع السدود وأشهرها، [ وهو يبعد عن مدينة صنعاء بنحو ستين ميلاً، ولا تزال بقاياه ماثلة للعيان إلى الآن ]، وطغى ماء السد وماء السَّيْل على ما كان عندهم من بساتين ومزارع وأبنية، فذهب العمران والازدهار، وحل محله الخراب والدمار، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ ﴾، و «العَرِم» السيل الذي لا يطاق.

يقول الله تعالى: ﴿ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾، ها هنا يبين كتاب الله ما حلّ بمزارعهم ومعايشهم من ضياع وإهمال، حيث تحولت البساتين والمزارع إلى غابات وأدْغال، والمراد «بالخَمْط» كل شجر ذي شوك فيه مرارة، و «الأَثْل» نوع من الخشب شبيه بالطَّرْفَاء لا ثمرة له في الغالب، و «السِّدْر» شجر النبق، وبعد ما أصبح السِّدْر أحسن أشجارهم لم يبق منه إلاّ القليل. وإنما قال تعالى: ﴿ وَبَدَّلْنَٰهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ ﴾، لأجل «المشاكلة» بين النوعين، على غرار قوله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾، إذ مِثْلُ هذا النبات الوحشي لا يسمى في

الحقيقة «جنة» ولا بستاناً. ثم عقّب كتاب الله على ذلك بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِمَا كَفَرُواْ، وَهَلْ يُجَـٰزَىٰٓ إِلَّا ٱلْكَفُورُ ﴾.

وبعدما تحولت مزارع قوم سبأ وبساتينهم الفيحاء إلى غابات وأدغال، وأصبحت قراهم المزدهرة وعمرانها المتصل في خبر كان، ولم يبق منها إلّا الخرَاب والأطلال، تذكروا الله والتجأوا إليه، لكن كان أمر الله قدَراً مقدوراً، فَاسْتبدلهم بعيشتهم الراضية، «معيشة ضَنكاً» كلُّها متاعب مُضنِية، تحتاج إلى ركوب أخطار عديدة، والتقلب في أسفار طويلة وبعيدة، لا يكفي فيها زاد ولا راحلة، ولا تنجو من مخاوفها ومفاجآتها أيّ قافلة، وبذلك جعلهم عبرة للمعتبرين يتحدثون بهم، ويتمثلون بمصيرهم المفجع قائلين، «تفرقوا أَيادِي سَبَأ» وذلك ما يُشيرُ إليه قوله تعالى، عقاباً على بَطَرِهم وعدَم شكرهم: ﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَـا، وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ، فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ، وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ، اِنَّ فِي ذَلِكَ ءَلَايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ، وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمُ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِّنَ اَلْمُومِنِينَ ﴾.

وبيَّن كتابُ الله أن إبليس لا سلطان له على الخلق، وإنما يُغْرِي ويُغوِي مَن اختار الغواية والضلال، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَـٰنٍ اِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُّومِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ﴾، أي: لنكشف للناس عما سبق في علمنا من أمر المؤمن والكافر، ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾.

ثم خاطب كتابُ الله المشركين متحدياً لهم، وطالباً منهم أن

يدْعُوا شركاءهم: ﴿ قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ، لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَٰوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ﴾، مبيناً لهم أن الله تعالى غنيّ عن الشركاء والأعوان: ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾.

وخُتم هذا الربع بالإشارة إلى أنَّ سَبْقَ الإذن من الحق سبحانه وتعالى للشفعاء والمشفوع فيهم أمر ضروري قبل كل شفاعة، وأن الشافعين والمشفوع لهم يكونون أثناء انتظارهم لإِذْنِهِ سبحانه في حالة جزعٍ وفزعٍ لا يدرون هل يُؤذَن لهم أو لا يؤذن، فإذا صدر الإذن بالشفاعة من الرحمان الرحيم، ذي العرش العظيم، تبادلوا البشرى، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَٰعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ، حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾، أي: زال الفزع وارتفع، بالإذن لهم في الشفاعة، سأل بعضُهم بعضاً، ﴿ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ، قَالُواْ الْحَقَّ ﴾، أي: قال القول الحق، وهو الإذن بالشفاعة لِمَن ارتضى، فليس لملَك ولا نبي أن يتكلم في ذلك اليوم إلاّ بإذنه، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾.

# الربع الأول من الحزب الرابع والأربعين في المصحف الكريم

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾
قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾
قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا
بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً
لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم
مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾
وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى
بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ
يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟

لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُومِنِينَ ﴿٣١﴾
قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ
عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ
إِذْ تَامُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ
لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن
نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾
وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلِ
إِنَّ رَبِّىَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا
زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ
بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ
ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلِ إِنَّ
رَبِّىَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ
وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَےْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ
كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ
كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ
ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ
قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ
وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا
جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا
وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا
بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾

# الربع الأول من الحزب الرابع والأربعين في المصحف الكريم

## عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأول من الحزب الرابع والأربعين، في المصحف الكريم ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَّرْزُقُكُم مِّنَ اَلسَّمَـٰوَاتِ وَالاَرْضِ ، قُلِ اِللَّهُ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُواْ رُسُلِي ، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾.

في الآيـات الأخيرة من الـربع المـاضي وجه كتـاب الله الخطاب إلى نبيه، آمراً له أن يتحدى المشركين، ويطلب منهم دعوة شركائهم الذين يتمسكون بعبادتهم، ويعلقـون الأمل على شفاعتهم، مسجلاً على أولئك الشركاء العَجَزَة المفاليس، فقرَهم المدقع وعجزَهم التام، إذ قال تعالى فيما سبق: ﴿ قُلُ ادْعُـواْ الذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اِللَّهِ، لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي اِلسَّمَـٰوَاتِ وَلَا فِي اِلَارْضِ ، وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ﴾.

وفي بداية هذا الربع وجه كتاب الله الخطاب إلى نبيه، آمراً له أن يواصل تحدِّيَه للمشركين، ويوجه إليهم سؤالاً مِلِحّاً عمن يـرزقهم، وهـل أولئـك الشـركـاء الـذين يعبـدونهم هم الـذين يرزقونهم، مع أنهم لا يملكون مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وحيث أنه كان من المنتظر أن يتلعثموا ولا يجيبوا، فقد

أذن الله لنبيه أن يتولى هو بنفسه الجواب نيابةً عنهم، بمقتضى لسان الحال، الذي هو أفصح من لسان المقال، وذلك قوله تعالى في السؤال: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾، فكان الجواب، ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾.

قال جار الله الزمخشري محللاً السر في توجيه السؤال وتلقي الجواب من مصدر واحد، وهو نفس النبي عليه السلام: «أَمَره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم بقوله: ﴿ قُلْ اللَّهُ ﴾، وذلك للإشعار بأنهم مقرُّون به بقلوبهم، إلَّا أنهم رُبَّمَا أَبَوْا أن يتكلموا به، لأن الذي تمكن في صدورهم من العناد وحب الشرك قد ألجم أفواههم عن النطق بالحق، مع علمهم بصحته، ولأنهم إن تفوهوا بأن الله رازقهم لزمَهم أن يقال لهم: فَمَا لَكم لا تعبدون من يرزقكم، وتؤثرون عليه من لا يقدر على الرزق، ألا ترى إلى قوله: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ، أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَـٰرَ ﴾، (١٠: ٣١) إلى أن قال: ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾، ثم قال: ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَـٰلُ ﴾ (١٠: ٣٢)، فكأنهم كانوا يقرون بألسنتهم مرة، ومرة كانوا يتلعثمون عناداً وإصراراً، وحذراً من التزام الحجة».

ورغماً عن وضوح الحجة وسلامة البرهان، على أن الله الذي يرزق عباده هو الذي يستحق عبادتهم وطاعتهم، وَمَنْ عَبَده هو الذي يكون على هدى، وأن من لا تأثير له في خلق ولا رزق، ولا شِرْكَ له في السماوات والأرض، ينبغي أن يُهمَل ويُسقَط من الحساب، ومَن عَبده هو الضال المضل، قال تعالى

مستدرجاً للكافرين المشركين، وإن كان الحق كله مع المؤمنين الموحّدين، ﴿ وَإِنَّآ أَوِ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدىً اَوْ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ، قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا، وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْلَمُونَ ﴾.

ونظراً إلى أن اختلاف البشر في معتقداتهم لا سبيل إلى القضاء عليه في الحياة الدنيا ما داموا موكولين إلى اختيارهم، فإن فصل القضاء بينهم لا يتم إلّا عند حشرهم ووقوفهم جميعاً بين يدي الله يوم القيامة، وذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا، ثُمَ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ، وَهُوَ اَلْفَتَّاحُ اَلْعَلِيمُ ﴾، أي: القاضي بالحق، العليم بأحوال الخلق.

ولتبكيت المشركين وتسفيه معتقداتهم من جهة، والمزيد من التنازُل، أملاً في إقناعهم بالرجوع إلى الحق من جهة أخرى، أمر الله تعالى نبيه أن يقترح عليهم عقد مقارنة وموازنة بين خصال الشركاء الذين ألحقوهم بالله، وبين كمالات الله الواحد الأحد الذي ليس كمثله شيء، وبديهي أنه لا مجال للمقارنة بين صفات الخالق وصفات المخلوق، وبين الحي القيوم، والجماد الشبيه بالمعدوم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ قُلَ اَرُونِيَ اَلذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَآءَ، كَلَّا ﴾، أي: ليس له شركاء، ﴿ بَلْ هُوَ اَللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾، أي: ذو العزة الذي قهر بعزته كل شيء، الحكيم في تصرفاته وكلماته، وشرعه وقَدَره.

ووجه كتاب الله الخطاب إلى خاتم أنبيائه ورسله، ممتناً عليه، ومؤكداً للناس أجمعين أن الرسالة التي جاء بها رسالة عامة إلى كافة البشر، ولا يفُلُّ من حَدِّها ولا ينقص من شأنها كونُ

الجاهلين والمعاندين أصروا على تجاهل أمرها، وعدم الإقرار بها، فستفرض نفسها بحجتها البالغة عليهم جميعاً، وذٰلك قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، ومن لوازم عموم الرسالة أن يتوجه الرسول إلى الإنسانية جمعاء بالتبليغ والتبشير والإنذار، وأن يكفهم عن الضلال ويرشدهم إلى الهدى على ممر الأجيال والأعصار، وبنفس المعنى سبق قوله تعالى في سورة الأعراف (١٥٨): ﴿ قُلْ يَٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾، وقوله تعالى في سورة الفرقان(١): ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيراً ﴾، و«البِشارة» لمن أسلم وجهه لله بإحسان، و«النِّذارة» لمن أسلم وجهه للهوى والشيطان.

وأورد كتاب الله سؤالاً عن موعد قيام الساعة، وهو أحد الأسئلة الغريبة التي يوجهها المتعنتون والمعاندون في كل مناسبة، لا بقصد الاسترشاد، ولكن بقصد التحدي والعناد، فقال تعالى حكاية عنهم: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾، ولَقَّنَ رسولَه الجواب المناسب لهذا السؤال: ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَٰخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً، وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾، و«الميعاد» ظرف الوَعْد من مكان أو زمان، وهو هنا للزمان، ولم يُخْفِ كتاب الله وجود طائفة من الكافرين بلغ بها الجحود والعناد، والغلوُّ في الكفر والإلحاد، ليس فقط إلى عدم الاعتراف بالقرآن، وإنكار ما تضمنه من العقائد الثابتة بالحجة والبرهان، بل إلى إنكار جميع الكتب السماوية والعقائد التي جاءت بها الأديان، وذلك قوله

تعالى: ﴿ وَقَالَ اَلذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّومِنَ بِهَـٰذَا اَلْقُرْءَانِ وَلَا بِالذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾.

ثم بين كتاب الله لرسوله الأعظم ما سيكون عليه يوم القيامة حال الأَتباع والمتبوعين، والرؤوساء والمرءوسين، الضالين منهم والمضلين، وهم يتبادلون الاتهام والملام، ويتراشقون بلاذع القول وقارص الكلام، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ اِلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾، أي: محبوسون في موقف الحساب بين يدي الله، ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمُ إِلَىٰ بَعْضٍ اِلْقَوْلَ ﴾، أي: لو رأيت تَحَاوُرَهم وتَنَاكُرَهم وتَراجُعَهم في القول لرأيت مشهداً مُريعاً، وموقفاً فظيعاً: ﴿ يَقُولُ الذِينَ اَسْتُضْعِفُواْ ﴾، وهم الأتباع، ﴿ لِلذِينَ اَسْتَكْبَرُواْ ﴾، وهم القادة، ﴿ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُومِنِينَ، وَقَالَ اَلذِينَ اَسْتَكْبَرُواْ ﴾، وهم القادة، ﴿ لِلذِينَ اَسْتُضْعِفُوٓاْ ﴾، وهم الأتباع: ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ اِلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم، بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ، وَقَالَ اَلذِينَ اَسْتُضْعِفُوا ﴾، أي: الأتباع، ﴿ لِلذِينَ اَسْتَكْبَرُواْ ﴾، أي: القادة، ردّاً عليهم، ﴿ بَلْ مَكْرُ اليْلِ وَالنَّهارِ، إِذْ تَامُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ، وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً ﴾، أي: أن الإجرام لم يكن من جهتنا، بل من جهة مكركم وخداعكم لنا، واحتيالكم علينا، وبث معتقداتكم الباطلة بيننا باستمرار، في الليل والنهار.

ولما رأوا العذاب رؤساء ومرؤوسين، استولى عليهم الذُّعْر والندَم، من الرأس إلى أَخْمَص القَدَم، فبرزت آثاره على أسارير وجوههم، وأحاطت الأغلال بأعناقهم. أما القادة والرؤساء فمن

أجل ضلالهم في أنفسهم وإضلالهم لغيرهم، وأما الأتباع والمرؤوسون فمن أجل تسليم مقادتهم لهم والانقياد لأوامرهم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ، وَجَعَلْنَا الاَغْلَـٰلَ فِيٓ أَعْنَاقِ الذِينَ كَفَرُواْ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾: للقادة عذاب بحسبهم، وللأتباع عذابٌ بحسبهم، وبدلاً من سلاسل الخداع والتضليل، التي كانوا يوثقون بها أعناق الجيل بعد الجيل، ها هي أعناقهم موثقة بسلاسل من أغلال الحديد الثقيل.

وانتقل كتاب الله إلى كشف الغطاء عن الخطة العَدائية التي جرى عليها الطغاة المترَفوَن كلما بُعِث إلى الناس نبي أو رسول، وما تواطأوا عليه من غلط كبير، ووهم خطير، إذ يظنون أن سعة أموالهم، وكثرة أولادهم هي من دلائل حظوتهم عند الله، فيأمَنون مكر الله، جاهلين أن الله تعالى إنما يُمهل الظالمين، وأن كيده متين، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ اِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَـٰفِرُونَ، وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَـٰداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ، قُلِ اِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَّشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾، فسعة الرزق عند الغنيّ لا تدل على مقامه الكريم عند الله، وضيق ذات اليد عند الفقير لا يفيد هوانَه على الله، ووجود الترف، لا يدل على الشرف، ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ اَلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ثم قرر كتاب الله حقيقة دينية ثابتة قام عليها الإسلام، ألا وهي أن قيمة الإنسان عند ربه تقدر بخُلُقه القويم، وسلوكه المستقيم، بشكل متواصل ومستديم، ولا دخل للغِنَى والفقر في

هذا التقويم، وذلك ما يؤكده قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ ﴾، أي: ليست الأموال والأولاد دليلاً على حظوتكم عندنا وقربكم منا، إذا لم يزينها الإيمان والعمل الصالح: ﴿ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ﴾، فمن أدى في أمواله حق الله، وأنفق أمواله في سبيل الله، وعلَّم أولاده الخير وفقههم في الدين، ورباهم على طاعة الله، كانت له الأموال والأولاد نعم الزُّلْفى إلى الله: ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ ﴾، أي: لهم الجزاء المضعَّف «الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف»، ﴿ وَهُمْ فِي الْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ ﴾، أي: آمنون من العذاب والأسقام والأحزان.

أما الذين حَادُّوا اللَّهَ ورسوله كِبْراً وعناداً، فستتلقاهم الزبانية يوم القيامة من سبعة أبواب، وسيساقون أذلاء مستسلمين إلى ساحة العذاب، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَـٰتِنَا ﴾، أي: يسعون في إبطال أدلتنا، وتكذيب ما أنزلناه في كتابنا، ﴿ مُعَـٰجِزِينَ ﴾، أي: معاندين لنا، محاولين تعجيزنا، ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾، أي: يساقون مرغمين على الحضور، جزاء ما أصروا عليه من كفرٍ وفجور.

وأكد كتاب الله مرة أخرى أن مقدار الرزق الذي يناله الإنسان لا يدل على مقامه عند الله، فكثرة الرزق لا تدل على التكريم، وقلته لا تدل على الهوان، لكن «نِعم المال الصالح للرجل الصالح» كما جاء في الحديث الشريف، وذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ،

وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾، أي: يخلفه عليكم ويعطيكم بدله، إذا كانت النفقة في طاعة الله، وذلك إما بِمِثله، وإما بالثواب عليه وَإِدِّخاره للآخرة: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً ﴾ (٣: ٣٠)، وإما بالقناعة وغنى القلب، «والقناعة كنز لا ينفدُ»، على أن كل ما عند العبد إنما هو من خَلق الله ورزقه، ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ ﴾، إذ هو سبحانه خالق الرزق، وخالق الأسباب التي بها يَنتفِع المرزوقُ بالرزق، وخزائن رزقه لا تتناهى ولا تفنى ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٦٣: ٧)، قال مجاهد: «لا يتأَوَّلَنَّ أحدُكم هذه الآية: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾، مَنْ كان عنده من هذا المال ما يقيمه فليقتصد فيه، فإن الرزق مقسوم، ولعل ما قُسِم له قليل، ولا يُنفِقْ جميع ما في يده، ثم يبقى طول عمره في فقر».

وكما استنكر كتاب الله في الربع الماضي «عبادة الجن» وقضى على رواسبها المتخلفة من عهد الجاهلية، عند ما قال في شأنهم: ﴿ وَمَنْ يَّزِغْ مِنْهُمْ عَنَ اَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ اِلسَّعِيرِ ﴾، وعندما قال: ﴿ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ اَلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِي اِلْعَذَابِ اِلْمُهِينِ ﴾، استنكر كتاب الله في هذا الربع عبادة فريق من الناس للملائكة، وجاء هذا الاستنكار، في صيغة سؤال واستفسار، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾، أي: نحشر الكافرين والمشركين في عَرْض شامل جامع: ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰؤُلَآءِ اِيَّاكُم كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾، أي: هل أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم، وكنتم راضين عن عبادتهم، فيتبرأ الملائكة منهم

بالمرة، ويبدأون جوابهم بتنزيه الله عن كل سوء: ﴿قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ﴾، أي: تعاليت وتقدست عن أن يُعبَد أحدٌ سواك، ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾، أي: أنت ربنا الذي نتولاه وحده بالعبادة، ونخلص له الطاعة، لا نتولى غيرك ولا نعبد سواك.

وسبق في كتاب الله سؤال من هذا النوع، موجَّه إلى عيسى عليه السلام مع جواب مماثل (٥: ١١٦)، ءَأنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اِللَّهِ. قَالَ، سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيَ أَنَ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾، ثم واصل الملائكةُ جوابَهم قائلين: ﴿بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ اَلْجِنَّ، أَكْثَرُهُم بِهِم مُّومِنُونَ﴾، أي: أن شياطين الجن هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان، وخيلوا إليهم أن تلك الأوثان هي على صُوَر الملائكة، فصدَّقوهم وآمنوا بهم، ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ اَلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ (٦: ١٠٠)، ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اَلْجِنَّةِ نَسَباً﴾ (٣٧: ١٥٨)، قال جار الله الزمخشري: «قد علم سبحانه كون الملائكة وعيسى منزهين بَرءاء مما وُجِّه إليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير، والغرض أن يقول ويقولوا، ويسأل ويجيبوا، فيكون تقريعُ مَن عبدوهم أشد، وتعييرُهم أبلغ، وخجلُهم أعظم».

ثم بَيَّن كتابُ الله أن الآمال التي كان يعلقها عَبَدة الأوثان والجن والملائكة على معبوداتهم آمال ضائعة، وأن رجاءهم في نفعهم عند نزول الشدائد مآله الخيبة والخسران، فقال تعالى مخاطباً لهم جميعاً: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعاً وَلَا ضَرّاً، وَنَقُولُ لِلذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ اَلنَّارِ اِلتِي كُنتُم بِهَا

تُكَذِّبُونَ ﴾، إذ الآخرة دار حساب وجزاء، لا دار تكليف وابتلاء.

وعاد كتاب الله إلى الحديث عن مزاعم أعداء الرسالة والرسول، وما يحدِثونه من البلبلة في النفوس والعقول، وذلك قوله تعالى في وصفهم ووصف مزاعمهم الباطلة: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ، قَالُواْ مَا هَـٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ ﴾، والإشارة هنا إلى الرسول عليه السلام، ﴿ وَقَالُواْ مَا هَـٰذَآ إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ﴾، والإشارة هنا إلى القرآن، ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾، والإشارة هنا إلى الحق.

وهكذا انحصرت مزاعمُهم ضد الرسالة والرسول في وجوب التقليد الأعمى لمعتقدات الجاهلية والتمسك بها، ورَمْي الرسالة بكونها مجرد كذب وسحر، دون الدخول في مناقشة محتوياتها، ومحاولة التصدي لإبطالها بالدليل والبرهان، علماً منهم بأن رسالة القرآن وحدها هي التي تأخذ قَصَب السبق وتفوز في الرِّهان، لأن حجتها فيها، ودليلها منها، إذ لا كتاب أَبْين من كتاب الله، ولذلك وصف كتاب الله الآيات بأنها «بينات»، والحق أن موقف الذين تمسكوا بالشرك والكفر من العرب كان موقفاً غريباً، فبعدما ظلوا قروناً طوالاً منذ عهد إسماعيل يتطلعون إلى أن يُبعَث إليهم رسول، وَيَنزِل على رسولهم كتاب، مثل الأقوام الآخرين، ﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا، وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾، إذا بهم عندما أكرمهم الله بخاتم رسله، وأنزل عليه خاتم كتبه، يتَنَكرون له، ويكفرون به، ويعلنون الحرب عليه، وكان من

المعقول والمنتظر أن يتلقفوا رسالته ويتلقوها بكلتَا اليدين، لأنها رسالة حق وصدق لا شك فيها ولا مَيْن.

وخُتم هذا الربع بالإشارة إلى أن وجود رَوافضَ مُكذبين يتبجحون بتكذيب الرسل ورفض الرسالات الإلٓهية ليس بِدعاً في تاريخ البشر، لاختلاف الاستعدادات الطبيعية، واختلاف المستويات الفكرية، واختلاف الأهواء والاختيارات الشخصية، واختلاف البيئآت الاجتماعية، لكن عاقبة الرفضِ والتكذيب كانت دائماً هي إنزال العقاب بالمكذبين، وكان عقابهم من الله بالتدمير والتعذيب، وذلك هو «النكير» العظيم، الذي يشيرُ إليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ اَلذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَا ءَاتَيْنَـٰهُمْ، فَكَذَّبُواْ رُسُلِي، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

# الربع الثاني من الحزب الرابع والأربعين في المصحف الكريم

قُلْ إِنَّمَآ
أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا
بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾
قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ
الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾
قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا
يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا
فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ
التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ
بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ
كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ
أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا
وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ
يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾
وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ
ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ
ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ
فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا
فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ
عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ
ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ

بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ
جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ
يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ
يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ
أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ
وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾
وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ
أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا
وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾
يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ
كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ
تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ
لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

# الربع الثاني من الحزب الرابع والأربعين
# في المصحف الكريم

## عبـــاد الله

موعدنا في هذا اليوم مع الربع الثاني من الحزب الربع والأربعين في المصحف الكريم، ابتداء من قوله تعالى في سورة سبأ المكية: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ، أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾، إلى قوله تعالى في سورة فاطر المكية أيضاً: ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾.

في بداية هذا الربع لَقَّنَ كتابُ الله لرسوله الأعظم ما يُواجِهُ بـه الشاكين والمعـاندين، لإفحـامهم وإقنَاعهم، وللقضـاء على شكهم وعنادهم، داعياً إياهم إلى الالتقاء معه على كلمة سواء، وهذه الكلمة الواحدة الجامعَة المانعة هي أن ينهضوا وينتصبوا للبحث عن «الحق المطلق» في أمر الرسول وأمر الرسالة، متجردين من كل هوىً وعصبية وفكر مُسْبَق، مستخدمين العقل والمنطق، وملكة التفكير العميق، في دراسة هذا الأمر دراسة موضوعية، على أن تتم هذه الدراسة بطريقة «فردية» متأنية، حتى لا يتأثر أحدهم بالآخر، وبطريقة «ثنائية» وجماعية، حتى يناظر كل واحد الآخر، ويقارن النتيجة التي وصل إليها بما وصل إليه قرينه

من رأي، وبهذا الأسلوب المزدوج، من تمحيص أمر الرسول والرسالة تمحيصاً موضوعياً، دون عصبية ولا هوى، يَثبتُ الحق ويزهَقُ الباطل، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ﴾، أي: بكلمة واحدة هي أجمع جوامع الكلم، ﴿ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ ﴾ أي: أن تقوموا للبحث عن الحقيقة وطلب الحق بكامل التجرد والإخلاص لوجه الله، ﴿ مَثْنَىٰ ﴾، أي: اثنين، عندما يكون الواحد منكم مع غيره، ﴿ وَفُرَٰدَىٰ ﴾، أي: واحداً واحداً عندما يكون الواحد منكم منفرداً بنفسه، ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ﴾، أي: منفردين ومجتمعين، وتستخدموا فكركم على فطرته وسجيته، وتُقَلِّبُوا وجوه النظر في أمر الرسول وأمر الرسالة، قال جار الله الزمخشري: «أما الاِثنان فيتفكران، ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه، وينظران فيه متصادقَيْن متناصِفَيْن، لا يميل بهما اتِّباع الهوى، ولا يَنبِض لهما عِرْقُ عصبية، حتى يهجُم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح، على جادة الحق وسَننه، وكذلك الفرد، يفكر في نفسه بعد ونَصَفة، من غير «أن يكابرها، ويعرضُ فكره على عقله وذهنه، وما استقر عنده من عادات العقلاء ومجاريَ أحوالهم» ونقل القرطبي عن بعض المفسرين تعليقاً على قوله تعالى هنا: ﴿ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ﴾: «أن العقل حجة الله على العباد، فأوفرهم عقلاً أوفرهم حظاً من الله، فإذا كانوا ﴿ فُرَٰدَىٰ ﴾ كانت فكرةٌ واحدة، وإذا كانوا ﴿ مَثْنَىٰ ﴾ تقابَل الذهنان، فترَاءَى من العلم لهما ما أُضْعَف على الاِنفراد»، أي: ما زاد على الاِنفراد»، أضعافاً مضاعفة.

ومَتَى أنعموا النظر، على هذا الوجه المعتبر، رفضوا مزاعم المعاندين والمكذبين، وأدركوا عن علم ويقين، إن محمّداً عليه الصلاة والسلام رسولُ الله حقاً وصدقاً، وأنه خاتم الرسل المبعوثُ إلى الخلق أجمعين، وبذلك يبطل تلقائياً قولُ من زعم أنه «ساحر»، إذ لا أثر في أفعاله وأقواله لأي نوع من أنواع السحر، ويبطل قول من زعم أنه «شاعر» إذ لا تشابه بين آيات الذكر الحكيم وبين أي نوع من أنواع الشعر، ويبطل قولُ من زعم أنه «مجنون»، إذ لا يبدو في تصرفاته وأحواله أي أثر من آثار الجنون. وكيف ينسب الجنون إلى من آتاه الله الكتاب والحكمة، وأكرمه بمزية التحصين والعصمة: ﴿ مَا بِصَـٰحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ، اِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾.

وجرياً على ما دَرَج عليه الرسل صلوات الله وسلامه عليهم منذ أقدم القدم، من التطوع بتبليغ الرسالة إلى أقوامهم، والترفع عن تناول أيّ أجر على ما يقومون به من تبليغ رسالات ربهم، خاطب كتابُ الله خاتم رسله قائلاً: ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنَ اَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ،إِنَ اَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اَللَّهِ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾.

ثم إنَّ «الحقَّ»، لا بدّ أن ينتصر، و«الباطلَ»، لا بدّ أن يندحر، وما على الرسول الأعظم إلاّ أن يضع كلَّ مَن عنده شك أمام هذه الحقيقة الناصعة: ﴿ قُلِ اِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ ﴾،! أي: يرمي به الباطل، فيدمَغه فإذا هو زاهق، ﴿ عَلَّـٰمُ الْغُيُوبِ، قُلْ جَآءَ اَلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ اُلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾، أي: لا يُبدىء الباطل لأهله خيراً ولا يعيده، لا في الدنيا ولا في الآخرة،

وسبق قوله تعالى في سورة الإسراء (٨١): ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ، إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾.

ومن المواقف الحاسمة التي طُبِّقت فيها هذه الآيات الكريمة، في الوقت المناسب، والموقف المناسب، أن رسول الله ﷺ عندما فتح مكة ودخل الكعبة، ووجد حولها ثلاثمائة وستين صنماً جعل يطعنها بِسِيَة قوسه ويقول: ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ، إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾، ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِىءُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾، و (سِيَة القوس) ما عُطِف من طَرَفَيْها.

وردّاً على ما كان يزعمه المشركون من أن عقيدة التوحيد التي يدعُو إليها رسول الله، ويبرهن عليها كتاب الله، إنما هي مجرد ضلال وانحراف، وأن الوثنيَّة التي درجوا عليها هي الحق الصراح، أكد لهم الرسول عليه السلام بأمر من ربه أنه سيظل وفياً لعقيدة التوحيد، متمسكاً بها، وداعياً إليها، حاملاً رايتها، متحملاً كل النتائج التي تترتب على الإيمان بها والدعوة إليها، بالرغم من كونهم يعتبرونها ضلالاً وانحرافاً، مُهتدياً بالمبدأ القرآني القويم، المَطابِق للمنطق السليم، ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ، وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ (١٧ : ١٥)، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ﴾، وهذا هو الشق الأول من الرد، أما الشق الثاني فقد جاء بأكثر مما كان يُنتظَر، إذ تضمن إشارة إلى أن قدرة العقل على التفكير الصحيح ومعرفة الحق، التي سبق التنبيه إليها عند قوله تعالى في الآية الأولى من هذا الربع، ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾، هي وإن كانت أساساً للنظر، والوصول

إلى الاقتناع والاعتقاد، تظَلُّ قُدرةً محدودة تكتنفها السُّحُب والغيوم في كثير من الأحيان، ولذلك فهي لا تستغني عن الهداية الإلٓهية، التي يحمل «الوحي الإلٓهي» مشعلها الكشاف المنير، فالوحي الإلٓهي ـ لكونه منبثقاً من منبع النور نفسه ـ له نور قوي تخترق أشعته جميع الحجب التي تعترض العقل في طريقه، فيهتدي العقل بمعونته إلى اكتشاف الحق ومعرفته في كثير من المجالات، وهذا هو المعنى الإضافي الذي جاء به الشق الثاني من رد الرسول على المشركين ومن كان على شاكلتهم إذ يقول: ﴿ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيَ إِلَيَّ رَبِّيَ ﴾.

ثم عقَّب كتابُ الله على ذلك كله بقوله: ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ ﴾ إشارةً إلى أن الله تعالى مطلع على كل ما يدور بين الرسول وخصوم الرسالات من جدل وحوار، وأنه يبارك ذلك الحوار الموصول الحلقات، عسى أن يقتنع الشاكون والجاحدون بما يقدمه لهم كتاب الله من الحجج والبراهين، ويهتدوا إلى الحق المبين، وبقوله: ﴿ قَرِيبٌ ﴾، إشارةً إلى أن من طرق باب الحق سبحانه وتعالى ملتمساً للهداية، نال منه ما يرجوه وأشرف على الغاية، ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الِانسَـٰنَ، وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾، (٥٠: ١٦).

وتعريفاً ببعض المشاهد المثيرة التي سيكون عليها خصوم الرسالات الإلٓهية يوم الفَزَع الأكبر، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرىٰ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ ﴾، ووقت الفَزَع هو وقت البعث وقيام الساعة، ومعنى ﴿ لَا فَوْتَ ﴾، أنهم لا يُفلِتون من سطوة الله، ولا أمل لهم

في النجاة، ﴿ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾، فمن كان منهم في مكان سحيق لم يحُلْ بعدُ المسافة بينه وبين عذاب الله، ومن حاول منهم الفرار لم يستطع أن يفلت من قبضة الله، ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَراً ﴾ (٣٩: ٧١)، ثم قال تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِ ﴾، أي: عندما رأوا العذاب رأي العين آمنوا بالرسول ورسالته بحكم الاضطرار، لكن الإيمان من هذا النوع وفي مثل هذا الوقت ليس له أيّ اعتبار، ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍم بَعِيدٍ، وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِ مِن قَبْلُ ﴾ أي: أنَّى لَهم أن يتداركوا في الآخرة ما ضيعوه في الدنيا، مع أن الدنيا هي دار التكليف والابتلاء، والآخرة إنما هي دار الجزاء، ثم قال تعالى: ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍم بَعِيدٍ ﴾ إشارةً إلى أنهم كانوا يُلقون الكلام على عواهنه دون تحفظ أو تثبت، ويتفننون في إلقاء التهم دون تريث، فتارة يتهمون الرسول بأنه ساحر، وتارة أخرى يتهمونه بأنه شاعر، وتارة يتهمونه بأنه كاهن، وتارة أخرى يتهمونه بأنه مجنون، مع أن الرسول عليه الصلاة والسلام بريء من ذلك كله، بعيدٌ عنه بُعْدَ السماء من الأرض، ولا سند لهم في ذلك إلاّ «الرَّجم بالغيب» والتحدِّي بالعناد والرفض، ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ، كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾، أي: لما كان همهم الأول والأخير وشغلهم الشاغل هو التمتع بالشهوات والملذات، في جميع الأحوال والأوقات، فوجئوا في دار الجزاء بالحرمان التام، كما فُعِل بمن كان على شاكلتهم من سالف الأمم والأقوام.

ثم كشف كتاب الله عن السر فيما تعرضوا له من الأهوال،

مبيناً أن «الشك» الذي كان مسيطراً على عقولهم هو علّة العلل فيما أصاب حياتهم من الانتكاس والاختلال، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾.

والآن وقد انتهينا بفضل الله وعونه من تفسير سورة سبأ المكية نشرع بحول الله وقوته في تفسير سورة فاطر المكية أيضاً، وتسمى أيضاً سورة (الملائكة) وإنما أطلق عليها سورة فاطر وسورة الملائكة معاً، لقول الله تعالى في الآية الأولى منها: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلاً ﴾.

وقد افتتح كتاب الله هذه السورة الكريمة بتمجيد الله والثناء عليه، تلقيناً لعباده المؤمنين، حتى يقدُرُوا الله حق قدره، ويلتزموا طاعته والوقوف عند نهيه وأمره، مبيِّناً أن أحق من يحمده العباد ويعبدونه هو المَنعِم عليهم بنعمة الإيجاد ونعمة الأمداد، خالق الأرض والسماء، وما فيهما من جمادات وأحياء، ومُرسِل الملائكة إلى الرسل والأنبياء، لهداية الإنسانية جمعاء، وذلك قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾، أي: خالقهما، ﴿ جَاعِلِ الْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلاً ﴾، أي: بينه وبين الأنبياء، كما قال تعالى في آية أخرى (٤٢: ٥١)، ﴿ أَوْ يُرْسِلُ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ، إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾، ﴿ أُوْلِى أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ﴾، أي: رسلاً لتبليغ الأوامر الإلَهية، وتنفيذ مقتضياتها في العوالم العُلْوية والسُّفلية، ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ (٧٤: ٣١)، ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَآءُ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، أي: إن الله تعالى يفعل ما يشاء ويختار،

لا تحُدُّ قدرتَه حدود، ولا تقيد مشيئتَه قيود، فعملية الخلق لا تنقطع على مر الأيام، وخَلقُه قابلٌ للزيادة والتطور على الدوام، ومن ذلك ما تتمايزُ به الأفراد والأقوام، رغم اشتراكها مع غيرها في التكوين العام، قال جار الله الزمخشري عند تفسير قوله تعالى هنا: ﴿ يَزِيدُ فِي اِلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾: «والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق، من طول قامة، واعتدال صورة، وتمام في الأعضاء، وقوة في البطش، وحصافة في العقل، وجزالة في الرأي، وجرأة في القلب، وسماحة في النفس، وذَلاقة في اللسان، ولباقة في التكلم، وحسن تَأَنٍّ في مزاولة الأمور، وما أشبه ذلك، مما لا يحيط به الوصف».

ثم بين كتاب الله إلى أي حد تبلغ سعة رحمة الله وسعة قدرته، منبهاً إلى أنه لا أحد في الكون يستطيع كَفَّ رحمته وإمساكَها، في الوقت الذي تقتضي حكمَتُه إرسالها، كما أنه لا أحد في الكون يستطيع إرسال رحمته، في الوقت الذي تقتضي حكمته إمساكها، وفي كلا الأمرين حكمةٌ إلٓهية بالغة، ومصلحة محققة لنفس الإنسان، ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ اِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُ، وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (١٥: ٢١)، وذلك قوله تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ اِللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا، وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنۢ بَعْدِهِ، وَهُوَ اَلْعَزِيزُ اَلْحَكِيمُ ﴾، ومن رحمته إرسال الرسل وإنزال الكتب، وتصريف الرياح وإثارة السحب، ومن رحمته الهدايةُ والتوفيق، إلى أقوم طريق، والتوبة من الذنوب، وتفريج الكروب. وقولُه تعالى: ﴿ مِن رَّحْمَةٍ ﴾، بالتنكير يتناول

جميع أنواع الرحمات في السر والعلن، ما ظهر منها وما بطن.

ووجَّه كتابُ الله في هذا الربع خِطَابَيْن اثنين إلى الناس أجمعين، لا فرق بين المؤمن والكافر، والبَرّ والفاجر، ففي الخطاب الأول دعاهم إلى الإفاقة من سكرتهم وغفلتهم، واستحضار نعمة الله عليهم، والقيام بالشكر الواجب في حقهم، وذكَّرهم بأن كل ما يتصرفون فيه من أرزاق ويتقلبون فيه من نعَم، إنما هو من فضله العميم، وعطائه الكريم، ثم نَعَى عليهم انصرافهم عن شكره، وتحديَهم لأمره، وذلك قوله تعالى: ﴿يَـٰأَيُّهَا اَلنَّاسُ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اَللَّهِ عَلَيْكُمْ، هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ اَلسَّمَآءِ وَالاَرْضِ﴾، ومن رزق السماء المطر، ومن رزق الأرض النبات، وبدونهما لا يمكن للنوع الإنساني عيش ولا اقتيات، ﴿لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ، فَأَنَّىٰ تُوفَكُونَ﴾ من «الإفك» بالكسر، وهو ممارسة الكذب، أو من «الأَفك» بالفتح وهو الصرف عن الأمر والاِنصراف عنه. وعقَّب كتاب الله على ذلك بأن ما تتعرض له رسالة الرسول من شَغَب وتشويه لا ينال مَقام الرسول بسوء، وأن القول الأخير والفصل في شأن خصوم الرسالات، سيتم يوم الفصل، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُّكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ، وَإِلَى اَللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾.

وفي الخطاب الثاني الموجه إلى الناس كافة مثل الأول، دعاهم كتابُ الله إلى التخلي عن الظن والشك والوهم والتخمين، والإيمان باليوم الآخر بجميع سوابقه ولواحِقه عن بينة ويقين، وحضَّهُم على الاعتدال في الأخذ من حظوظ الدنيا، بُغية التفرغ

لحقوق الآخرة، لإقامة توازن وتكامل بين مطالب الروح ومطالب الجسد، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾، ووعده الحق هو التعرض للموت والبعث والثواب والعقاب ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾، والغرور بها هو استغراق العمر كله أو جُلِّه في التمتع بلذاتها، ونسيانُ الآخرة بعدم الاستعداد لعواقبها، والغفلةِ عن التفكير في تَبِعاتها، ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾، هذا تَحْذِير من وساوس الشيطان، الذي تعهد، منذ استخلاف آدم في الأرض، بخداع الإنسان، ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ، وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُوراً ﴾ (٤: ١٢٠)، ﴿ إِنَّ الشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً، إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنَ أَصْحَـٰبِ السَّعِيرِ ﴾.

وتعريفاً بما يؤول إليه أمر الكافرين والمؤمنين في الآخرة، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ، وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾.

وحيث إن الرسول عليه السلام كان يغتَمُّ كثيراً، ويحزن حزناً كبيراً، لإصرار المشركين على شركهم، والكافرين على كفرهم، والمنافقين على نفاقهم، دعاه الحق سبحانه وتعالى إلى الرفق بنفسه، إذ ليس عليه هداهم، وإنما عليه البلاغ، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِ فَرءاهُ حَسَناً، فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَّشَآءُ وَيَهْدِي مَنْ يَّشَآءُ، فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾، على غرار قوله تعالى في سورة آل عمران (١٧٦): ﴿ وَلَا يُحْزِنْكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ، إِنَّهُمْ لَنْ يَّضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْئاً ﴾.

واستعرض كتاب الله في هذا السياق، جملة من آيات الله في الأنفس والآفاق، ليذكِّر بها من يمرون عليها وهم عنها معرضون.

فمن آيات الله في الأنفس قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ، ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ، ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً، وَمَا تَحْمِلُ مِنُ انثىٰ، وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ، وَمَا يُعَمَّرُ من مُعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ، اِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اَللَّهِ يَسِيرٌ﴾، قال سعيد بن جُبَيْر: «ما مضى من أجله فهو النقصان، وما يستقبله فهو الذي يُعمِّره»، وبذلك تتفق هذه الآية مع قوله تعالى (١٠: ٤٩)، ﴿اِذَا جَآءَ اَجلُهُمْ فَلَا يَسْتَـٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

ومن آيات الله في الآفاق قولُه تعالى: ﴿وَاللَّهُ الذِيٓ أَرْسَلَ اَلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً، فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ، فَأَحْيَيْنَا بِهِ اِلْاَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، كَذَٰلِكَ اَلنُّشُورُ﴾، أي: أن بعث الأموات يماثل إحياء الأرض الموات، وقولُه تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي اِلْبَحْرَانِ﴾، أي: ما تستوي البحار وكبريات الأنهار، ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُ، وَهَٰذَا مِلْحٌ اجَاجٌ، وَمِن كُلٍّ تَاكُلُونَ لَحماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا، وَتَرَى اَلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وقد كان المتعارف بين الناس أن الحِلية إنما تستخرج من البحار، لكن أثبت البحث الآن أنها تستخرج حتى من بعض الأنهار، مصداقاً لما ورد في القرآن، وفُسِّرت الحلية في هذا المقام باللؤلؤ والمرجان. وقولُه تعالى: ﴿يُولِجُ اليْلِ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اِلیْلِ، وَسَخَّرَ اَلشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، كُلٌّ يَجْرِي

لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، والأجل المسمى «هو الذي يتوقف فيه جريان الشمس والقمر»، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ، وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (١٤: ٤٨).

ولْنَعُد الآن إلى الآيات الكريمة التي تخللت آيات الله في الأنفس والآفاق، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾، أي: أنَّ من طلب العزة من الله بافتقار وخضوع، وخشية وخشوع، وجدها عنده غير ممنوعة ولا محجوبة، لأنها بالصدق والإخلاص مطلوبة، ومن طلبها من سواه، لم ينل مناه. وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾، أي: إن العمل الصالح إذا تعاضد مع القول الطيب زاد في قبوله ورفعه، وضاعف من حسن وقعه، كما أن القول الطيب إذا تعاضد مع العمل الصالح كان العمل به أتم وأكمل، وأشرف وأفضل. قال ابن عطيّة: «والحق أن العاصي إذا ذكر الله وقال كَلَاماً طيباً فإنه مكتوب له، متقبَّل منه، وله حسناته، وعليه سيآته». وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ، وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾، أي: أن من يمكر بالناس ويوهمهم أنه في طاعة الله، كذباً ورياء، سيعذبه الله في الآخرة، وسيكشف زيفه في الدنيا، فمن أسرَّ سريرة ألبسه الله رداءها.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾، أي: أن الله تعالى هو الذي بيده الملك والملكوت، وعنده خزائن السماوات والأرض، فهو الخالق والرازق والمدبر الذي يدبر الأمر، وما يتصرف فيه الإنسان، ـ انطلاقاً من نفسه التي بين

جنبيه - إنما هو عارية مستَرَدَّة على وجه الارتفاق والانتفاع، ولا يملك أحد - على وجه التحقيق - مِلْكِية مطلقة، حتى القشرة الرقيقة البيضاء، التي تفصل بين التَّمْرة والنَّواة، وهي ما يطلَقُ عليه اسم «القِطْمير»، ﴿وَالذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾.

وختم هذا الربع بتسفيه معتقدات الشرك، وإقامة الحجة على المشركين الذين تتعلق آمالهم «بشركاء» عاجزين، لا ينفعونهم في الدنيا، ويتبرأون منهم في الآخرة، وذلك قوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ، وَلَوْ سَمِعُواْ مَا اَسْتَجَابُواْ لَكُمْ، وَيَوْمَ اَلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾، وحيث أن الحق سبحانه وتعالى هو وحده الذي يعلم السر في السماوات والأرض، ولا أحد أخبرُ منه بخلقه، قال تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى (٦٧ : ١٤): ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اَللَّطِيفُ اَلْخَبِيرُ﴾.

## الثمن الأول من الربع الثالث في
## الحزب الرابع والأربعين من المصحف الكريم

يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾
وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا
لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ
يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا
يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ
وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾
وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ
وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ
أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾
وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم

بِالْبَيِّنَٰتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَٰبِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ
كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ
مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌۢ
بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ
النَّاسِ وَالدَّوَآبِّ وَالْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا
يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾
إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ اللَّهِ وَأَقَامُوا۟ الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟
مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾
لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ
شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

# الثمن الأول من الربع الثالث في الحزب الرابع والأربعين من المصحف الكريم

## عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الثمن الأول من الربع الثالث في الحزب الرابع والأربعين من المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة فاطر المكية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ، وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ، إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

بعدما دعا كتاب الله في الربع الماضي الناس كافة، البرَّ منهم والفاجر، والمؤمنَ والكافر، إلى أن يتذكروا نعمة الله عليهم، ومدده الواصل دون انقطاع إليهم، إذ قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ، هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وبعدما أعلن للجميع أن الله تعالى هو وحده مالك الملك، لا يشاركه في ملكه أحد، إذ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾، عقَّب على ذلك في بداية هذا الربع بتقرير حقيقة كونية وبشرية لا مفر لكل إنسان من الاعتراف بها، ولو حاول أن يتجاهلها ويتغافل عنها، ألاّ وهي أن النوع

الإنساني وإن بلغ ما بلغ من العتو والاستكبار، والادعاء العريض للسعة والغنى والتحكم في مجاري الأقدار، كان ولا يزال وسيظل يتعثر في أذيال الفقر والاِحتياج باستمرار، وذلك قوله تعالى هنا يخاطب الناس جميعاً، حتى يُخففِّوا من غُلَوائهم، ويتراجعوا عن غرورهم وادعائهم: ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ اِلَى اَللَّهِ ﴾، فقراء إلى توجيهه وهدايته، فقراء إلى توفيقه ورعايته، فقراء إلى رزقه ورحمته، فقراء إلى عفوه ومغفرته، وأنتم من بين جميع الخلائق أشدُّ الخلائق افتقاراً إليه، واضطراراً إلى الاعتماد عليه، لتنوع حاجاتكم، وكثرة رغباتكم، وما أنتم عليه من إغراق في الخيال، وتعلق شديد بالأماني والآمال، وعناد وإلحاح ودلال، ﴿ وَخُلِقَ اَلِانسَـٰنُ ضَعِيفاً ﴾ (٤ : ٢٨)، فالفقر هو صفة الإنسان الطبيعية، وغناه الطارىء إنما هو مجرد عارية، والغِنَى الحقيقي والمطلق والدائم هو صفة الذات العلية ﴿ وَاللَّهُ هُوَ اَلْغَنِيُّ ﴾، وكل ما تتقلبون فيه من النعم الظاهرة والباطنة إنما هو من صنع الله، وهبة مهداة إليكم من الله، وقولُه تعالى: ﴿ الْحَمِيدُ ﴾ بعد وصفه «بالغنيّ» إشارةٌ إلى أن الحق سبحانه وتعالى وإن انفرد بوصف الغِنَى الحقيقي دون عبادِهِ الفقراء، فإنه لا يبخل عليهم بالإمداد المتواصل والعطاء، وإذن فليس في وصف الله لهم بالفقر أي تحقير أو ازدراء، وإنما هو نوع من الإثارة والتنبيه والإغراء، والذين يَقْدُرون نِعَم الله عليهم حق قدرها، لا بدّ أن يحمدوا المُنعِم بها ويؤدوا واجب شكرها، فهو «غني» يسُدُّ فقرهم، «حميد» يستحق شكرهم، ﴿ وَإِنْ تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ (٣٩ : ٧).

ويكفي أن يتذكر الإنسان ما يصيبه من حيرة وذهول، عندما يفاجأ بما لم يكن في الحُسبان، فتختل موازين حياته العادية، ويشعر بأنه قد نزلت بساحته أكبر داهية، وبذلك يظهر الفقرُ الطبيعي للإنسان، ويتجلى عجزه البالغ للعيان، ولا تعود حياته سيرتها الأولى إلّا إذا حفته الألطاف الخفية، فمنَّ الله عليه، وأمده من جديد بما يحتاج إليه، وصدق الله العظيم إذ قال في فاتحة هذه السورة: ﴿ مَّا يَفْتَحِ اِللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا،وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَه مِنۢ بَعْدِهِ، وَهُوَ اَلْعَزِيزُ اُلْحَكِيمُ ﴾.

وتنبيهاً للغافلين السادرين في غفلاتهم، وتحذيراً للعصاة المصرين على عصيانهم، المتمردين على طاعة الله، والمتعدين حدود الله، سواء كانوا أفراداً أو جماعات، شعوباً أو دولاً أو حكومات، خاطبهم الحق سبحانه وتعالى منذراً ومحذراً، فقال تعالى: ﴿ إِنْ يَّشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَاتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾.

ذلك أن الله تعالى لم يستخلف الإنسان في الأرض ليفسد فيها ويسفك الدماء، ويمارس المنكر والفحشاء، وإنما استخلفه ليقيم فوق سطحها دولة الفضيلة والصلاح والعدل والإخاء، وهو سبحانه وتعالى قادر على أن يعاقب الإنسان بالسلب بعد العطاء، مَتى أخل برسالة الخلافة وأهملها، ولم يتعظ بعاقبة السوء التي أصابت كل من تنكر لها وعطلها، وصدق الله العظيم إذ قال (٦ : ١٣٣): ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ ﴾، وإذ قال (٤ : ١٣٣): ﴿ إِنْ يَّشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا اَلنَّاسُ وَيَاتِ بِـَٔاخَرِينَ ﴾.

وليؤكد كتابُ الله إمكان هذا التأديب الإلّهي الصارم، قال تعالى: ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾، أي: ليس ذلك على قدرة الله وحكمته بمتعذر ولا ممتنع، بل هو أمر واقع، ليس له من دَافع، فكم من أجيال فاسدة لقيت مصرَعها ودخلت في خبر كان، فحلت محلها أجيال صالحة، لأن كَفتها أصبحت في كَفِّ القَدَر وميزان الحق راجحة.

على أن قوله تعالى هنا في سورة فاطر المكية: ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾، إنما هو تأكيد جديد لنفس الإنذار الإلّهي الذي سبق في سورة إبراهيم المكية أيضاً، في مثل هذا السياق، وبنفس اللفظ والمعنى، حيث قال تعالى (٢٠): ﴿ مَّثَلُ الذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمُ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ اِشْتَدَّتْ بِهِ اِلرِّيَٰحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍ، ذَٰلِكَ هُوَ اَلضَّلَٰلُ اُلْبَعِيدُ، أَلَمْ تَرَ أَنَّ اَللَّهَ خَلَقَ اَلسَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾، وسيجدد كتاب الله التذكير بهذه الحقائق مرة أخرى في سورة «محمّد» عند قوله تعالى (٣٨): ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَآءُ، وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُمُ ﴾.

ونظراً لأن الدنيا دار ازدواج وامتزاج يوجد فيها الصالح والطالح، والعاصي والمطيع، ومن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فإن كتاب الله اعتبر كل شخص مسؤولاً عن عمله الخاص من صلاح أو فساد، وطاعة أو معصية، ولم يعتبره مسؤولاً شخصياً عن

عمل غيره من الناس، وإن كانت عاقبة فساد المفسدين قد تعم الجميع في الحياة الدنيا، فتُهلك الحرث والنسل، وتحرق الأخضر واليابس، على حد قوله ﷺ وقد سئل: «أنهلِكُ وَفِينَا الصالحون؟» قال: «نعم، إذا كثر الخبث».

وهذا المبدأ، مبدأ المسؤولية الفردية، المتعلقة بكل شخص بمفرده، يوم الجزاء، وأمام القضاء، قرره كتاب الله وأكدّه في غير ما سورة وغير ما آية. وورد بنفس اللفظ والمعنى في سورة الأنعام: (١٦٤)، وسورة الإسراء: (١٥)، وسورة الزمر: (٧)، وسورة النجم: (٣٨)، وهنا في سورة فاطر، حيث قال تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾، وهذه السوَرُ كلها سور مكية، مما يدل على أن مبدأ مسؤولية كل فرد عن عمله الخاص، وعدم مؤاخذته بعمل غيره، ولا مؤاخذة الغير بعمله، يُكوِّن جزءاً لا يتجزء من العقيدة الإسلامية، وأصلاً أساسياً من أصول التشريع الإسلامي، ومن بين الآيات التي قررت وأكدت هذا المبدأ العادل قوله تعالى (٥٢ : ٢١): ﴿ كُلُّ امْرِيءٍم بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾، وقوله تعالى (٥٣ : ٣٩): ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ، ثُمَّ يُجْزَىٰهُ الْجَزَآءَ الَاوْفَىٰ ﴾، وذلك على خلاف المعمول به في عرف الطغاة المستبدّين، قديماً وحديثاً، من مؤاخذة الفرد بعمل غيره، وإن كان لا دخل له فيه من قريب ولا من بعيد.

وليُوَضِّح كتاب الله ثقل المسؤولية الشخصية، الملقاةِ على عاتق كل فرد، صوّر لنا الشخص وهو يمشي مثقلاً بأوزاره، يلتمس من رفاقه في القافلة إعانته والتخفيف عنه، فلا يستجيب له

أحد، ولو كان من أقرب الأقربين، لأن كل واحد منهم ينوء بحمله الخاص، ولسان حاله يقول: «نفسي نفسي»، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ، وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى (٨٠: ٣٧) ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾.

وقولُه تعالى خطاباً لنبيه: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ، وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ ﴾، إشارةٌ إلى أن الموعظة الحسنة إنما تُحدِث أثرها، وتؤتي أكلها على الوجه الأكمل، عندما يكون المستمع إليها والمنتفع بها ممن يؤمن بالله، ويؤدي حقوق الله، ومَن فَعل ذلك وأقبل عَلى ممارسة العمل الصالح عادت بركته عليه، وانجرَّ نفعه إليه، فَعاشَ عيشة طيبة طاهرَ القلب، طاهر العِرض، زكي النفس: ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ﴾، أما اللَّهُ تعالى فهو غنيٌّ عن عباده غِنىً مطلقاً، بحيث لا تنفعه طاعتهم، ولا تضره معصيتهم، ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾، أي: إليه سبحانه مرجع الخلق أجمعين، العصاة منهم والطائعين، ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ (١٨: ٤٩).

وتصويراً للبون الشاسع بين المؤمن وغير المؤمن، حتى إن الفرق بينهما يماثل الفرق بين الأعمى والبصير، قال تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾، ومثَّل كتاب الله أوهام الشرك وضلالات الكفر «بالظلمات»، وحَقيقة الإيمان والتوحيد «بالنور»، فقال تعالى: ﴿ وَلَا الظُّلُمَٰتُ وَلَا النُّورُ ﴾، أي: لا تستوي الظلمات والنور أبداً، وحيث أن مغالطات الشرك ووجوه الكفر

متعددة لا تحصى جاءت كلمة «الظلمات» المعبِّرة عنها بصيغة الجمع، على خلاف حقيقة الإيمان والتوحِيد، التي هي حقيقة واحدة لا تقبل التعدد، فجاء لفظ «النـور» المعبِّر عنهـا بصيغة المفرد.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾، إشارةً إلى ما يكرم الله به المؤمنين من عباده في الجنة من الظل الظليل والنعيم المقيم، وما يسلطه على المشركين والكفرة في حر جهنم من العذاب الأليم، وذلك عِلاوة على ما تنعَم به قلوب المؤمنين في الحياة الدنيا من سكينة وطمأنينة، وما تكون عليه قلوب غيرهم من قلق وبلبلة واضـطراب، وتعـرض لانهيـار الأعصـاب، لِأَتْفَـه الأسباب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾، إشارةٌ إلى أن التفاوت بين المؤمن وغير المؤمن قد تتسع شقته، فيتجاوز درجة الفرق بين الأعمى والبصير، ليصل إلى درجة الفرق بين الحي والميت، نظراً لرسوخ الكفر في قلب الكافر، وتبَلُّد حسه الباطن والظاهر، وسبق في سورة الأنعام قولُه تعالى (١٢٢): ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَٰهُ، وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي ٱلنَّاسِ، كَمَن مَّثَلُهُ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾.

ثم قال تعالى مكتفياً من رسوله الأمين بما قام به من تبليغ وإنذار، في حق من أصرّ على كفره بالغ الإصرار: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَّشَآءُ، وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ، إِنَ انتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾.

وتذكيراً لرسوله الأمين، بما أصاب الرسل السالفين، وما تعرضت له رسالاتهم من طرف المكذبين، رغماً عما رافقها وأيدها من المعجزات التي تثبت أنهم كانوا صادقين، وتعريفاً للناس أجمعين، بما لحق أعداء الرسالات السابقة من العذاب المُهين، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً، وَإِن مِّنْ امَّةٍ اِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ، وَإِنْ يُّكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ اَلذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَـٰتِ، وَبِالزُّبُرِ، وَبِالْكِتَـٰبِ الْمُنِيرِ، ثُمَّ أَخَذْتُ الذِينَ كَفَرُواْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾، أي: أن عقاب الله لهم كان فوق الوصف، فلْيَحذر اللاحقون أن يعاقبوا بِمثل ما عوقب به السابقون.

وبعد ما وصف كتاب الله جملة من أحوال المكذبين الضالين، وما يتعرضون له من شقاء في الدنيا وعذاب يوم الدّين، استأنف كتاب الله دعوته المثلى، بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، فوجه الخطاب إلى كل إنسان عنده بصر وبصيرة، ليتفكر ويتدبر في ظواهر الكون الفسيح المحيط به، حتى يتكون عنده شيء من العلم بتلك الظواهر، فيسخرها وينتفِع بها، وينطلق منها إلى الإيمان بوجود خالقها ووحدانيته، والاعتراف بقدرة مبدعها وحكمته، والإقرار بوجوب طاعته وعبادته، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفاً اَلْوَانُهَا، وَمِنَ اَلْجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ اَلْوَانُهَا، وَغَرَابِيبُ سُودٌ، وَمِنَ اَلنَّاسِ وَالدَّوَآبِّ وَالاَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ اَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ، إِنَّمَا يَخْشَى اَللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ اِلْعُلَمَـٰٓؤُاْ،

إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾، ففي هذه الآيات الكريمة دعوة من الله للإنسان، أيّاً كان، إلى أن يستعمل حواسه وعقله، في تتبع واستقراء كل ما يراه حوله، عسى أن يستخلص النتائج والعِبَر من ذلك الاستقراء، للارتفاع إلى مصاف العلماء.

وقد أبرز كتاب الله في هذه الآيات بالخصوص ظاهرة اختلاف الألوان، في الحيوان والإنسان، والجماد والنبات:

فبالنسبة لألوان النبات نجد قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا﴾.

وبالنسبة لألوان الجماد نجد قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾.

وبالنسبة لألوان الإنسان والحيوان نجد قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ﴾.

وسبق في سورة «الروم» قوله تعالى (٢١): ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾.

وواضح أن من استعرض في صعيد واحد نماذج من جميع أصناف الإنسان والحيوان، المنتشرة في أطراف العالم، أو استعرض نماذج من جميع أنواع النبات وأصناف الثمرات، التي تزخر بها الطبيعة، ولاحظ ما بينها من تفاوت في الألوان والسِّمات، وتفاوت في نفس اللون الواحد الذي تختلف فيه الدرجات، لرأي العجب العجاب، مما تَحار فيه الألباب، وكذلك

الأمر عندما يستعرض الإنسان أنواع الأحْجار والصخور والجبال، وما هي عليه من ألوان تبهر الخيال، وتُمثل الجمال والجلال، فيرى إلى أي حد تتصرف قدرة الله الكبير المتعال.

ولفظ «الجُدَد» في قوله تعالى هنا: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾، جمع «جُدَّة»، وتطلق على الجزء من الشيء الواحد، إذا كان لونُه يخالف لون الباقي، وواضح أن شعاب الجبال وثناياها يختلف لون بعضها عن بعض، فتزداد تنوعاً وتألقاً، يقال: «طريق مجدود» أي طَريق مسلوك، و«الجادة» وسط الطريق.

ولفظ «الغرابيب» في قوله تعالى هنا: ﴿غَرَابِيبُ سُودٌ﴾، جمع (غِربيب)، أي: شديد السواد، تشبيهاً بلون الغراب الأسود.

ولفظ ﴿ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾، لا يقتصر على أهل الفقه والأثر، الذين ورثوا «العلم النبوي الشريف» فكانوا أمناء على تبليغه ونشره، بل يشملهم ويشمل كل من نال حظاً من العلم، ـ ولا سيما العلم بأسرار الكون وحقائق الطبيعة ـ فسخره لخير الإنسان، وجعله معراجاً للدخول في حظيرة الإيمان، والتحق بركب الصالحين من «عباد الرحمان»، والمراد «بالخشية» هنا تلك الحالة النفسية والروحية التي تهز كيان المؤمن، فتجعله يُقبِل على الله من كل قلبه، ويتهيب الأقدام على معصية ربه، ولا ينبغي أن يُفهم من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾، أن الخشية لا تكون إلّا من عالم منتصب لنشر العلم، إذ كثير من المؤمنين، غير العلماء المنتصبين، يخشون الله، لأن عندهم حظاً من العلم بالله،

وإنما المراد أن الخشية على وجهها الصحيح الكامل لا يتصف بها إلّا العالم الكامل، قال ابن كثير: «كلما كانت المعرفة به أتم، والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر» وقال القشيري: «من فقد العلم بالله فلا خشية له من الله»، وقال الربيع بن أنس: «من لم يخش الله تعالى فليس بعالم».

وقولُه تعالى تعقيباً على ذلك: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾، إشارةٌ إلى أنه بوصفه «عزيزاً»، سيعامل المُسيء بمقتضى «العزة»، وبوصفه «غفوراً» سيعامل المحسن بمقتضى «المغفرة».

وانتقل كتاب الله إلى وصف حالة المؤمن المثالي، التي ينبغي أن يطمح إليها كل مؤمن. ويُستخلصُ من الآيات الواردة في هذا الوصف أن المؤمن «المثالي» هو الذي يتخذ من كتاب الله دليله ورفيقه في حياته اليومية، وهو الذي يؤدي حقوق الله وحقوق العباد عن رغبة وطواعية، وهو الذي لا يختلف حاله في السر عن حاله في العلانية، وأضاف كتاب الله إلى هذا الوصف ما يكون عليه المؤمن «المثالي» من تفاؤل ورجاء، في حسنِ العاقبة وحسن الجزاء، فقال تعالى في وصف هذا الصنف من المؤمنين: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ، وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ، وَأَنْفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُم سِرّاً وَعَلَـٰنِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ، لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾، إشارةً إلى أنه تعالى يتولاهم بعفوه ومغفرته، ويثيبهم أجزل ثواب بمحض كرمه وإرادته.

# الثمن الثاني من الربع الثالث في الحزب الرابع والأربعين من المصحف الكريم

وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ
مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٣١﴾
ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ
فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ
بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾
جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن
ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ
ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ
شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ
لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾
وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ
فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ

نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا
رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُۚ
أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ
فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾
هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ
ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ
إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ
بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾

# الثمن الثاني من الربع الثالث في الحزب الرابع والأربعين من المصحف الكريم

**عبــاد الله**

في حصة هذا اليوم نتناول الثمن الثاني من الربع الثالث في الحزب الرابع والأربعين من المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَالذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ اَلْكِتَـٰبِ هُوَ اَلْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ إِنْ يَّعِدُ الظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضاً اِلَّا غُرُوراً ﴾.

لا يخفى على كل مؤمن أن الذكر الحكيم هو حجر الزاوية في بناء صرح الإسلام، والحصن الحصين الذي يحمي الأمة الإسلامية من كوارث الدهر وتقلبات الأيام، ولذلك يتجه أعداء الإسلام في كل حين إلى الطعن في مبانيه، والتشكيك في معانيه، وهم يرددون في كل عصر ما قاله الكافرون الأولون (٤١ : ٢٦): ﴿ وَقَالَ اَلذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا اَلْقُرْءَانِ وَالْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾، من أجل ذلك نجد كتاب الله يرفع في كل مناسبة عَلَم الحق والحقيقة، مؤكداً أن الذكر الحكيم كتابُ وحيٍ إلَهي كريم، يُحق الحق ويُبطل الباطل، ويكشف ما هو زيف وزور عند الأواخر والأوائل، فما وافقه في القديم والحديث فهو

حق وصدق، وما خالفه فهو باطل وزور، وذلك قوله تعالى في بداية هذا الثمن: ﴿وَالذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ اَلْكِتَٰبِ هُوَ اَلْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، وبمثل هذا المعنى سبق قوله تعالى في سورة البقرة (٩٧): ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اِللَّهِ، مُصَدِقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرَىٰ لِلْمُومِنِينَ﴾، وقوله تعالى في سورة آل عمران (٣): ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ اَلْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ الآية، وقوله تعالى في سورة المائدة (٤٨): ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ اَلْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ اَلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾. الآية.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اَللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾، إشارةٌ إلى أن الله تعالى «الخبير» ببواطن عباده و«البصير» بظواهرهم، لا يمكن أن يُنزل لهدايتهم إلّا كتاباً كله حق وصدق، ﴿لَّا يَاتِيهِ اِلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ (٤١: ٤٢)، مَتى اتبعوه كانوا من الفائزين، وصدق الله العظيم إذ قال: (٦٧: ١٤)، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اَللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى التحدث عن المنّة الكبرى التي منَّ الله بها على الإنسانية، وأبقاها نعمة مسترسلة متوارثة في الأمة الإسلامية، ألا وهي نعمة القرآن الكريم، والذكر الحكيم، الذي جعله الله خاتم الكتب المنزلة، ودستور «الأمة الوسط» التي آصطفى دينها وفضَّله، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا اَلْكِتَٰبَ اَلذِينَ آصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، و«توريث الكتاب» يقتضي الحرص التام على القيامِ بحفظ نصوصه ومبانيه، والعمل المتواصل على تطبيق

أحكامه وتفسير معانيه، بما فيه من عقائد وشرائع، ومحاسن وبدائع، والعنايةَ البالغة بكل ما يعين على حفظه وفهمه وتطبيقه، من فروع المعرِفَة القديمة والحديثة، إذ هو منبع التراث الإسلامي الأصيل، الذي يجب أن يتلقاه غضاً طريّاً جيل عن جيل، دون تحريف ولا تبديل، والمراد «بالاصطفاء» الاختيار والاجتباء، مشتق من «الصفو» وهو الخلوص من شوائب الكَدَر، وهذا المعنى يتضمنه أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة (١٢٢): ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾، وقولُه تعالى في سورة آل عمران (٨٥): ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ، وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾، وقولُه تعالى في سورة المائدة (٣): ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِيناً ﴾.

ثم تولى كتاب الله تصنيف المؤمنين من عباده، حسب سلوكهم الخاص والعام، وحسب الدرجة التي يحتلونها في سُلَّم الاستقامة والانحراف، فقال تعالى: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ، وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾، فالظالم لنفسه من لم يشكر نعمة الله عليه ووضعها في غير موضعها، فغلبته زلاته، وتتابعت سقَطاته، والمقتصد من مال إلى القصد والاعتدال، وحاول أن يعطي للدنيا حقها وللآخرة حقها، والسابق بالخيرات من حاز قصب السبْقِ في الحسنات والمبرات، ونال رفيع الدرجات، وبذلك يكون «المقتصد» واسطة بين طرفين: طرف «الظالم لنفسه» من جهة، وطرف «السابق بالخيرات» من جهة

أخرى، وسبق في سورة آل عمران قوله تعالى (٦٦): ﴿ مِنْهُم أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَـسِقُون ﴾. وسبق في سورة لقمان قوله تعالى على لسان لقمان وهو يعظ ابنه (١٩): ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾، من «القَصْد» بمعنى التوسط، على أن الشأن في المؤمن، إذا تورط في ظلم نفسه بارتكاب السيآت وتناول الموبقات،أن لا يُصرَّ عليها، وأن يتوب إلى الله منها، اعتماداً عَلى الوعد الحق الذي وعد الله به المذنبين التائبين، إذ قال تعالى (٤٢ : ٢٥): ﴿ وَهُوَ اَلذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُواْ عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾، بعد قوله: ﴿ سَابِقُۢ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ تنبيه إلى أنه لا يرتفع إلى درجة السابقين المتقين، إلّا من أعانه الله وشمله برعايته، فكان من الموفَّقِين، وهذا المعنى هو الذي عبرت عنه بكل صراحة الآية الكريمة التي سبقت في سورة النور (٢١): ﴿ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنَ اَحَدٍ اَبَداً ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ ذَالِكَ هُوَ اَلْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾، إشارةً إمَّا إلى نعمة «توريث القرآن العظيم لهذه الأمة، واصطفائها لأداء أسمى مهمة، وإمَّا إلى نعمة السبق بالخيرات، ورفع الدرجات، وإمَّا إلى نعمة التوفيق الحاصل بإذن الله، لمن وفقه الله، ولا مانع من أن تكون إشارةً شاملة لهذه المعاني مجتمعة، إذ لا تناقض بينها، فكلها فضل كبير من الله، وعلى رأسها جميعاً كتابُ الله.

وتعريفاً بحسن العاقبة التي يؤول إليها أمر المصطفَيْنَ

الأخيار، وما يَنْتَظرهم من فضله الكبير عند الانتقال من هذه الدار إلى تلك الدار، قال تعالى: ﴿ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا، يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنَ اَسَاوِرَ، مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً، وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ، وَقَالُواْ اُلْحَمْدُ لِلَّهِ اِلذِيَ أَذْهَبَ عَنَّا اَلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ، اِلذِيَ أَحَلَّنَا دَارَ اَلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾، والبدأ بقوله تعالى: ﴿ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ ﴾، قبل قوله، ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾، يؤدي معنى لطيفاً: هو المسارعة والمبادرة إلى تبشيرهم بحسن مصيرهم، فيفاجئون بما هوسار، من الأخبار، إذ ما أعظم الفرق بين دخول الجنة ودخول النار.

وقوله تعالى: ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنَ اَسَاوِرَ ﴾، الآية، يشعر بأن الجنة ليست دار تكليف وابتلاء، وإنما هي دار نعيم مقيم وسعادة وهناء، ولذلك تكون أيدي المنعَم عليهم محلاة بالأساور، المرصعة باللآلىء والجواهر، ويزيد هذا المعنى توضيحاً قوله تعالى على لسانهم في نفس السياق: ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾، أي: لا يصيبهم فيها تعب، ولا يلحقهم فيها إعياء، لأنهم معفوْن في الآخرة من جميع التكاليف والأعباء.

وكما ورد هنا قوله تعالى: ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنَ اَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ سبق في الآية الثالثة والعشرين من سورة الحج نفس النص ونفس النظير، وسيأتي في سورة الإنسان قوله تعالى (٢١): ﴿ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾، إشارةً إلى أن حِلْية المنعم عليهم كما تكون من ذهب تكون من فضة، حسب مقاماتهم ودرجاتهم في الجنة، ولله الفضل والمنّة.

وقولـه تعـالى: ﴿ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ﴾، تعبيرٌ عما أخذوا يحسون به من سكينة وطمأنينة، ورضا واستبشار، عند حلولهم بجنات عَدْن، فقد فارقتهم الأحزان كلها، ولا سيما الحزن الأكبر الناشىء عن خوف العاقبة، ومن أجل ذلك ها هم يحمدون الله ويسبحون بحمده، ولفظ ﴿ الحَزَنَ ﴾، الوارد في هذه الآية بفتح الحاء والزاي هو لغة فـي (الحُزْن) بضم الحاء وسكون الزاي.

وقولُه تعالى حكايةً عنهم: ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ، الَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ ﴾، تعبيرٌ عمـا هم عليه من أدب مع الله، وإعلانٌ «للاعتراف بفضله سبحانه، إذ هو الغفور الذي يغفر السيآت ولو كثرت، وهو الشكور الذي يثيب على الحسنات ولو قَلَّت، وفيه كذلك تنبيه إلى أن الدنيا إنما هي دار مـرور وعبور، وأن الآخرة هي دار القرار، لأنها دار الإقـامة الـدائمة والاستقرار. قال فخـر الدين الـرازي تعليقاً على هـذه الآيات الكريمة: «كما هدى الله المؤمن في الدنيا هداه في العُقْبى، حتى دعاه بأقرب دعاء إلى الإجابة، وأثنى عليه بأطيب ثناء عند الأنابة، فقالوا: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾، وقالوا: ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ ﴾، اعترافـاً بتقصيرهم، وقالوا ﴿ شَكُورٌ ﴾، إقـراراً بوصـول ما لم يخـطر ببالهم إليهم، وقالوا: ﴿ أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ ﴾، أي: لا عمل لنا بالنسبة إلى نعم الله».

وعلى العكس من ذلك ما حكـاه كتاب الله عن الكَفَـرة الفجار، إذا قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ، لَا يُقْضَىٰ

عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا، كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ، وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا، رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحاً غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾، فهم في عذاب دائم لا تخفيف فيه، حتى لا يتعودوا عليه، وهم يتمنون الموت السريع، لكن لا يجابون إليه، ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ، لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ، قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ (٤٣ : ٧٧)، وهم يملأون جهنم بصُراخهم، طالبين العودة إلى ديارهم، زاعمين أنهم إذا رجعوا إليها سيعملون عملاً صالحاً، غير العمل الفاسد الذي درجوا عليه طيلة حياتهم، ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ (٦ : ٢٨).

وقولُه تعالى في وصفهم: ﴿يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾، مأخوذ من «الصراخ» الذي هو الصياح بجهد وشدة، ويلاحظ فيما حكاه كتابُ الله عنهم في هذا السِّياق: ﴿أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ﴾، ما هم مطبوعون عليه من الأسلوب الجاف، والكلام النازل إلى حد الأسفاف، لكونه خالياً من كل أدب مع الله، والغريب في الأمر هو إصرارهم على ذلك حتى في الوقت الذي هم فيه أحوج ما يكون إلى فضل الله ورحمته، وهم بين يديه لا يستطيعون الإفلات من قبضته، فكان الرد عليهم أنسب ما يكون لطلبهم، إذ قال تعالى تأنيباً لهم: ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾، إشارةً إلى أن الله تعالى قد أمهلهم ولم يعجل موتهم، عسى أن يتداركوا ما فاتهم، لكنهم استمروا على ما اعْتَادُوه من التمرد والعصيان، ولم يُفَكِّروا لَحظة واحدة في الانتقال من الكفر إلى الإيمان، لا عن طريق التأمل والتذكر والاعتبار، ولا عن

طريق ما جاءتهم به الرسل من التبشير والإنذار، وحيث أنهم وضعوا نعمة الله في غير موضعها، وأتوا بالمعذرة في غير وقتها، قيل لهم، جَزَاءَ كفرهم وكبرهم: ﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

وتعليقاً على قوله تعالى هنا: ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ النَّذِيرُ﴾، قال جار الله الزمخشري: «إنه يتناول كل عُمُر يتمكن فيه المكلف من إصلاح شأنه وإن قَصُر، إلاّ أن التوبيخ في العمر المتطاول أعظم» ونقل ابنُ كثير عن ابن عباس: أن العمر الذي أعذر الله فيه لابن آدم في هذه الآية هو ستون سنة، وهذا موافق للحديث الذي رواه البخاري في «كتاب الرِّقَاق» من صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (أعذر الله عز وجل إلى أمرىء أَخَّر عمره حتى بلغ ستين سنة) ومعنى «أعذر إليه» أي بلغ به أقصَى العذر.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اَللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ اِلسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ اِلصُّدُورِ﴾، إشارةً إلى أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء عِلْماً، وأنه لا يخفي عليه شيء، ولعلمه بخبث سرائر المصرِّين على الكفر المستحقين للعذاب، لم يفتح في وجوههم للرحمة أي باب.

ووجَّه كتابُ الله الخطاب من جديد إلى كافة البشر، ولا سيما الجاحدين والمعاندين، مذكراً إياهم بأنه هو الذي خلقهم واستخلفهم في هذا الكوكب الأرضي السابح في الفضاء، وأنه هو الذي خصصه لهم وكيَّفه بشكل يتناسب مع حياتهم، ويستجيب

لمطالبهم، ملقياً على عواتقهم مسؤوليتهم عن أنفسهم إيماناً أو كفراً، وعن الخلافة الموكولة إليهم فساداً أو إصلاحاً، فقال تعالى: ﴿هُوَ الذِي جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِي الْاَرْضِ، فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَلَا يَزِيدُ الْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمُ إِلَّا مَقْتاً، وَلَا يَزِيدُ الْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمُ إِلَّا خَسَاراً﴾.

ثم قال تعالى متحدياً لمن أشركوا به غيره، مبرزاً سفاهة رأيهم، وسقوط زعمهم: ﴿قُلَ اَرَآيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ الذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اِللَّهِ، أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ اَلْاَرْضِ، أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي اِلسَّمَـٰوَاتِ، أَمَ ـاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰباً فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَـٰتٍ مِّنْهُ، بَلِ اِنْ يَّعِدُ الظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضاً اِلَّا غُرُوراً﴾.

# الربع الأخير من الحزب الرابع والأربعين في المصحف الكريم

إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ
حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ
لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ
إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ
الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ
فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾
أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ
شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾
وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ
ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى

فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ
ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم
مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا
فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ
تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ
بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ
مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾
وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾
إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ
إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ
ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ
إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾

قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم
مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن
ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا
ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ
مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ
ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً
إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا
يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ
ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ
قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾

# الربع الأخير من الحزب الرابع والأربعين في المصحف الكريم

**عبـــاد الله**

موعدنا في هذه الحصة مع الربع الأخير من الحزب الرابع والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة فاطر المكية: ﴿ إِنَّ اَللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالاَرْضَ أَن تَزُولاَ ﴾، إلى قوله تعالى في سورة يس المكية أيضاً: ﴿ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ اَلْمُكْرَمِينَ ﴾.

في بداية هذا الربع خص كتاب الله بالذكر ظاهرة كونية كبرى تحار فيها العقول والأفهام، أَلَا وهي ظاهرة تماسك الكائنات وتجاذبها بعضها مع بعض في السماء والأرض، دون أن تكون مرتكزة على أي شيء، أو معلَّقةً بأي شيء، وذلك بالنسبة لجميع الكواكب والشموس والأجرام، السابحة في أفلاكها في الفضاء، بنظام وانتظام، على مر الليالي والأيام، والقرون والأعوام، مما لا يحيط به علماً وعَداً، ولا يقوم به صيانة وحفظاً، إلا خالقُه بديع السماوات والأرض،وذلك مـا ينطق بـه قولـه تعالى في إيجـاز وإعجاز: ﴿ إِنَّ اَللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالاَرْضَ أَن تَزُولاَ، وَلَئِن زَالَتَآ إِنَ اَمْسَكَهُمَا مِنَ اَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ﴾، قال الفراء: «أي ولو

زالتا ما أمسكهما من أحد» فبالقوة الماسكة التي أودعها الله في السماوات والأرض حماهما من التصدع والانهيار، وأنعم على الإنسان بنعمة الطمأنينة والاستقرار، وذلك بالرغم مما يقترفُهُ من الذنوب والأوزار: ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾.

وسبق في التنبيه إلى هذه الظاهرة الكبرى قوله تعالى في سورة الرعد (٢): ﴿ اَللَّهُ الذِي رَفَعَ اَلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾، وقولُه تعالى في سورة لقمان (١٠): ﴿ خَلَقَ اَلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾، قال القُشَيْرِي: «أمسكهما بقدرته، وأتقنهما بحكمته، ورتبهما بمشيئته، وخلق أهلهما على موجب قضيته، فلا شبيه في إبقائهما وإفنائهما يُساهِمه، ولا شريك في وجودهما ونظامهما يقاسمه»، وسبق في سورة الحج قوله تعالى (٦٣): ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَآءَ ان تَقَعَ عَلَى اَلاَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾.

وانتقل كتاب الله مرة أخرى إلى الحديث عن أعداء الرسالات ومواقفهم الملتوية، وتقلباتهم المزرية، ومن بينهم أئمة الكفر وقادة الجاهلية، حيث أنهم اعتادوا أن يُقسِموا الأَيْمان الغليظة على استعدادهم لقبول الرسالة إذا جاءتهم، ويُعلنوا رغبتهم في أن يكونوا أَهْدَى من بقية الأمم التي سبقتهم، حتى إذا جاءهم الرسول المنتظر نفروا، واستكبروا ومكروا، ولم ينفع فيهم أي إنذار، وأصروا على الكفر أيَّما اصْرَار، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّه جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنِ اِحْدَى اَلاُمَمِ ، فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً، اسْتِكْبَاراً فِي اِلاَرْضِ وَمَكْرَ اَلسَّيِّءِ ﴾، ثم قال تعالى تأكيداً

لغلبة الحق على الباطل، وتذكيراً بعذاب الله الذي حل بأئمة الكفر الأوائل: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ، فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾، أي: سنّة الله التي أجراها في الأولين.

وأعاد كتاب الله تقرير حقيقة كونية اجتماعية ثابتة، ألا وهي أنَّ لِلَّه في خلقه سُنَناً منتظمة ومحكمة، ترتبط فيها الأسباب والمسببات، والعلل والمعلولات، ارتباطاً وثيقاً، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، على غرار قوله تعالى في سورة الأحزاب (٦٢): ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، وقولُهُ تعالى هنا: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾، على غرار قوله تعالى في سورة الإسراء (٧٧): ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾.

و «التبديل» المرفوض هنا بالنسبة لأئمة الكفر هو تبديل العذاب بغيره، فالعذاب قائم بهم، وثابت لهم، و«التحويل» المرفوض بالنسبة لهم هو تَحويلُ العذاب عنهم إلى غيرهم، فالعذاب واقع على من استحقه، لا يتجاوزه إلى غيره أبداً، ونبه القرطبي إلى أن كلمة «سُنّة» في هذا السياق تضاف أحياناً إلى الله، وأحياناً إلى غيره، لتعلق الأمر بالجانبين، مَثَلُها في ذلك مَثَل كلمة «الأجل»، تضاف إلى الله كما في قوله تعالى (٢٩ : ٥) ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾، وتضاف إلى غيره كما في قوله تعالى (٧ : ٣٤): ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾.

ونبه كتاب الله إلى أن الجاحدين والمعاندين الذين أصروا على عتوهم واستكبارهم وتمردهم على الله لو فتحوا أعينهم،

والتفتوا إلى ما حولهم، وساروا في الأرض سَيْر الناظر المتفحص، لأخذوا العبرة من مصارع الشعوب والحضارات التي سبقتهم، بالرغم مما كانت عليه من توسع في العمران، وقوة متنوعة الأشكال والألوان، فالبقاء والفناء، والقوة والضعف، سُنن لا تَتَخَلَّف قديماً وحديثاً، وذلك ما يقرره قوله تعالى هنا في إيجاز وإعجاز، ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾، على غرار قوله تعالى فيما سبق من سورة الروم (٩): ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً، وَأَثَارُواْ الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾، ونفس المعنى سبق في سورة التوبة عند قوله تعالى (٦٩): ﴿ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلاً وَأَوْلَـٰداً ﴾، كما نص عليه كتاب الله أيضاً في سورة غافر مرتين، وذلك قوله تعالى في الآية الواحدة والعشرين: ﴿ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَاراً فِي الْأَرْضِ ﴾، وفي الآية الثانية والثمانين: ﴿ كَانُواْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَ قُوَّةً وَءَاثَاراً فِي الْأَرْضِ ﴾، وذلك حتى لا يغتر الأقوياء بقوتهم، ما دامت لا تساندها قوة الله، إذ قوة الله القاهرة، لا يعجزها أي شيء من قوة البشر الظاهرة، كيفما كانت وتنوعت، وطغت وتجبرت.

وللتحفيف من غُلَواء البشر المتبجحين بقوتهم، ومواجهة تحدِّيهم، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً ﴾، ﴿ عَلِيماً ﴾، بمبلغ قوتهم المحدودة، ﴿ قَدِيراً ﴾، على أخذهم وتأديبهم في

ثوان معدودة، وصدق الله العظيم إذقال في كتابه في سورة فصلت (١٥): ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾، وفي سورة البقرة (١٦٥): ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً ﴾، قال الرازي: «لو أن قائلاً قال: هَبْ أن الأولين كانوا أشد قوة وأطول أعماراً، لَكِنَّا نستخرج بذكائنا ما يزيد على قواهم، ونستعين بأمور أرضية لها خواص، أو كواكب سماوية لها آثار، لَقال تعالى أي جَواباً على هذا الإشكال: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً ﴾.

ثم أبرز كتاب الله مبلغ حلم الحق سبحانه وتعالى ورحمته الواسعة بالخلق، حيث يمهل العصاة من عباده، فلا يستعجلهم بالمؤاخذة والعقاب، ويتخولهم من حين لآخر بالموعظة الحسنة واللوم والعتاب، عسى أن يَعُودوا إلى جادة الصواب، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ، وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ، إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾، فيؤخر كلَّ فرد إلى حلول أجله، وكلَّ أمة إلى حلول ساعتها، والجنسَ البشريَّ كله إلى حلول الساعة الكبرى، والضمير في: ﴿ عَلَىٰ ظَهْرِهَا ﴾، يعود على الأرض التي فيها مستقر الناس ومعاشُهم، وقد سبق ذكر «ٱلْأَرْضِ»، عطفاً على السماوات قبل هذه الآية، والمراد «بالدابة» هنا كل ما دَبَّ فوق الأرض ودَرَج، بما في ذلك الإنسان والحيوان: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً ﴾، بصيراً بأحوالهم، بصيراً بأعمالهم، بصيراً بما يستحقه كل فرد من ثواب

أو عقـاب، قال القشيري في (لطائف الإشارات) تعليقاً على هذه الآية الكريمة « لو عَجَّل لهم ما يستوجبونه من الثواب والعقاب لم تَفِ أعمارُهم القليلة به، ولم تتسع أيامهم القصيرة له، فأَخَّرَ ذلك ليوم الحشر، فإنه طويل، والله على كل شيء قدير، وبأمور عباده خبير بصير».

والآن وقد انتهينا بفضل الله وتوفيقه من تفسير سورة فاطر المكية نشرع بحول الله وقوته في تفسير سورة (يس) المكية أيضاً، وقد افتتح كتاب الله هذه السورة بحرفين اثنين من حروف الهجاء المقطعة، هما الياء والسين، على غرار ما بدأ به (طه) و(طس) فيما سبق، وعلى غرار (حم) الذي تتكون منه مجموعـة سور (الحواميم) الآتية.

وقد سبق من هذا النوع المبدوء بحروف الهجاء المقطعة مجموعة أولى مكونة من سورتين متتابعتين لا غير، هما سورة البقرة (﴿ الٓمٓ ﴾)، وسورة آل عمران ﴿ الٓمٓ ﴾ أيضاً، ومجموعة ثانية مكونة من ست سور متتالية: أولها سورة يونس ﴿ الٓر ﴾، وآخرها سورة (الحِجْر) أيضـاً ﴿ الٓر ﴾، ومجموعـة ثالثـة تشتمل على سورتين متتابعَتين لا غير، هما سورة مريم ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾، وسورة (طه): ثم مجموعة رابعة تشتمـل على سبع سـور يَتلو بعضها بعضاً، أولها سورة الشعراء ﴿ طَسٓمٓ ﴾، وآخرها سورة السجدة ﴿ الٓمٓ ﴾.

ويـلاحظ أن سورة ﴿ يسٓ ﴾ التي نحن بصـدد تفسيرهـا جاءت على انفراد، إذ لم يأت ما يماثلها من هذا النوع، لا قبلها

ولا بعدها، فقد سبقتها سورة (فاطر)، ولحقتها سورة (الصافّات)، وبدايتهما معاً بحروف التهجي العادية، ونفس الشيء وقع مثله في سورة الأعراف ﴿ الٓمٓصٓ ﴾، التي لم يسبقها ولم يلحقها مباشرة ما يماثلها من نفس النوع، حيث سبقتها سورة (الأنعام)، ولحقتها سورة (الأنفال) وبدايتهما معاً بالحروف العادية أيضاً، ولا بد من التنبيه هنا إلى أنه لا علاقة بين حرف الياء وحرف السين الواردين في فاتحة هذه السورة ﴿يسٓ ﴾، وبين قوله تعالى في سورة (الصافّات) بعدها في ختام قصة «إِلْيَاس عليه السلام: ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ ءَالَ يَاسِينَ ﴾، الذي جاء على غرار قوله تعالى قبل ذلك: ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾، ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ ﴾، ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴾، وقد رواها بعض القرّاء، ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ إِلْيَاسِينَ ﴾، بدلاً من (آل ياسين)، وإِلْيَاسِين وإِلْيَاس ويَاسِين شيء واحد حسبما نص عليه ابن جنى والنحاس ونقله القرطبي. وإذن ففاتحة هذه السورة يجري عليها ما جرى على فواتح السور الأخرى التي تماثلها في التكوين من حروف الهجاء المقطعة، مما سبق وما سَيأتي.

أما قوله تعالى: ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾، فهو قَسَم من الله تعالى يؤكد به للشاكين والكافرين أن محمداً رسول من عند الله حق، وأن دين الإسلام هو دين الحق. وإبرازاً لعظمة القرآن الكريم، وتنبيهاً إلى أنه هو المعجزة الكبرى الباقية والدائمة، الدالة على صدق الرسول وصدق الرسالة في جميع العصور، اختار الحق سبحانه وتعالى أن

يُقسم في هذا المقام بالقرآن نفسه، حتى يَقتنِع كل من في قَلبِه شك أو ريب بأن أحكَمَ كتاب عرفته الإنسانية ـ منذ ميلادها إلى فنائها ـ هو كتاب الله «أحكم الحاكمين»، وكيف لا يكون القرآن «حكيماً» وهو: ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (١١ : ١)، وكيف لا يكون القرآن «حكيماً»، وهو ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾. (٤١ : ٤٢).

ومن وجوه حكَمته أن مبانيه محكمة لا يلحقها عيب ولا خلل، ولا ينشأ من الإقبال عل تلاوتها وتدبرها أدنى سأم أو ملل.

ومن وجوه حكمَته أن معانيه محكمة لا يلحقها تناقض ولا بطلان، ولا تفنى عجائبها ولا تبلَى جدتها بمرُور الزمان.

ومن وجوه حكمته التي أقرتها التجارب المستمرة، الكَرَّة بعد الكَرَّة، أن من اتخذه دليله في حياته من الأفراد والجماعات نَال السعادتين، وفاز في الدارين، فهو دليل حيٌّ ناطق بالحكمة الإلهية، يَهدي من تتبعه وتبعه في كل حين إلى الصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْءَانَ من لَدُن حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ (١٦ : ٦). وسبق في آيات أخرى وصف القرآن بكونه «حكيماً»، مثل قوله تعالى في سورة آل عمران (٥٨): ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْأَيَٰتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾، وقولُه تعالى في سورة يونس (١) وسورة لقمان (٢) معاً، ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْحَكِيمِ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ تنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنْذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾، إشارةٌ إلى رحمة الله بعباده، وأنهم كلما

طَال عليهم الأمد وقست قلوبهم، ونسُوا ما ذكِّروا به، بعث الله إليهم رسولاً من عنده مؤيداً بكتابه، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ويوقظهم من سِنة الغفلة ونشوة الغرور، عسى أن ينالوا حظهم من السعادة، وينالوا الحسنى وزيادة، وكما قال تعالى هنا: ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَّآ أُنْذِرَ ءَابَآؤُهُمْ ﴾، قال تعالى في سورة السجدة (٣): ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أَتَيٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾، وقال تعالى في سورة سبأ (٤٤): ﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا، وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾.

وكلمة ﴿ الْعَزِيزِ ﴾ الملاصقة لكلمة ﴿ الرَّحِيمِ ﴾ في قوله تعالى ﴿ تَنزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾، ترمز إلى معنى الإنذار، لمن رفضوا الهدى وأصروا على الضلال، حيث يعاملهم الحق سبحانه وتعالى بمقتضى وصف «عزته» كما ترمز كلمة ﴿ الرَّحِيمِ ﴾ إلى معنى البشرى، للذين اهتدوا وآمنوا، حيث يعاملهم الحق سبحانه وتعالى بمقتضى وصف «رحمته».

وانتقل كتاب الله إلى وصف حالة المصممين على الكفر، المصرين على الضلال، السابحين في بحار الخيال والوبال، فضرب بحالتهم أشنع وأفجع الأمثال، لأنهم أقاموا بينهم وبين الحق والحقيقة أعظم سور، حتى لا ينفذ إليهم أيُّ شعاع من النور، فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُومِنُونَ، إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلاً فَهِيَ إِلَى الاَذْقَانِ، فَهُم مُّقْمَحُونَ، وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سُدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سُدّاً فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾، مما يدل على أن قلوبهم مُقفلة،

وعقولهم معطلة، و«المُقمَح» هو الرافع رأْسَه الذي لا يستطيع الإطراق، لأنه قيَّد نفسه بقيود تحول بينه وبين الحركة والانعتاق، ومعنى «أغشيناهم» جعلنا على أبصارهم غشاوة، وإذن فلا سبيل إلى إقناعهم والأخذ بيدهم، ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

وبيَّن كتابُ الله أن الدعوة إلى الحق إنما تعمل عملها، وتحدث أثرها ومفعولها، فيمن فتح بصره وبَصيرته للنظر والاعتبار، وكان عنده استعداد خاص للبحث عن الحق والحقيقة، وتقبُّلِ الهداية وتلقِّي الأنوار، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ﴾، أي: راقب الله في سره وإن كان لا يراقبه أحد. ثم قال تعالى مبشراً مَن وُفِّقَ في هذه الخُطوة، فنال من ربه الرضى والحُظْوَة: ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾، و «الأجر الكريم» هنا هو الأجر الكبير الوافر.

وقولُه تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾، ردٌّ على منكري البعث في القديم والحديث، وقد كان البعث ولا يزال موضوع شك وجدل، عند من أصيبت عقولهم بالكَلال والخلل، فتصدى كتاب الله لتقريره بشتى الوجوه حتى يستقر في الأذهان، لأنه عقيدة جوهرية في الدين لها أكبر الأثر في سلوى الإنسان.

وقولُه تعالى: ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَرَهُمْ، وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾، تعريف بمضمون العدل الإلٰهي المطلق نحو كل إنسان كيفما كان، فالله تعالى لا يُضِيعُ عمل

عامل من ذكر أو أنثى ولا ينساه، بل ما من عمل عمله الإنسان ـ خيراً كان أو شراً ـ إلاّ وسجله له أو عليه وأحصاه، لا فرق في ذلك بين عمل الإنسان المباشر وهو على قيد الحياة، وبين الآثار المترتبة على عمله باستمرار بعد الوفاة، سواء كان ذلك الأثر من قبيل الحسنات كعلم نافع علَّمه، أو رباط للجهاد أسسه، أو كان ذلك الأثر من قبيل السيآت، مثل حان هيأه لتناول الخمور، أو ناد زخرفه للقمار، أو ماخور أعده للفسق والفجور، فكلما تجددت منفعة الأثر الحسن كُتِب لصاحبه من الحسنات بقدرها، وكلما تضاعفت مضرة الأثر السيء كُتِب لصاحبه من السيآت بقدرها، بناء على الأصل الإسلامي الثابت في السنة النبوية الشريفة «من سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها، ومن سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة». «وقال ﷺ فيما رواه مسلم في صحيحه: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ من ثلاث: علم ينتفع به، أو ولد صالـح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده» والمراد (بالإمام) في قوله تعالى هنا: ﴿ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾، الكتاب المقتدَى به، الذي هو حجة للإحصاء ويزيد معنى هذه الآية توضيحاً قوله تعالى في سورة الكهف (٤٩): ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ، وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً اِلَّا أَحْصَٰيهَا، وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾.

وليُثبِّت الحقّ سبحانه وتعالى فؤادَ خاتم رسله حتى يتحمل أذى قومه، ويقابل أعراضهم بالصبر والتجمل، وليتأكد عبد الله

ورسوله من أن المكذبين من قومه ليسوا بِدْعاً من الأقوام، بل لهم سلف طَالح في العناد والتكذيب، وجَّه إليه كتابُ الله الخطاب، داعياً إياه إلى التدبر في قصة «أصحاب القرية» الذين جاءتهم رسل من عند الله فكذبوهم، ورفضوا دعوتهم، وقابلوهم بالسوء من القول، وهددوهم بالرجم والتعذيب، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا الْمُرْسَلُونَ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا، فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ، فَقَالُوٓاْ إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ، قَالُواْ ﴾، أي: قال أصحاب القرية المكذبون، ﴿ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا، وَمَآ أَنزَلَ الرَّحْمَـٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ، قَالُوا ﴾، أي: قال رسل الله رداً على أصحاب القرية: ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ، وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا الْبَلَـٰغُ الْمُبِينُ، قَالُوٓاْ ﴾، أي: قال أصحاب القرية المعاندون، ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾، أي: شددنا أزرهما، وقوينا رسالتهما برسول ثالث، وهذه هي القصة الوحيدة التي يتحدث فيها كتاب الله عن تكليف ثلاثة من الرسل في آن واحد، ومكان واحد، بتبليغ رسالة واحدة، وذلك بالإضافة إلى ما هو متعارف عند الجميع، من اشتراك موسى وهارون في تبليغ رسالة واحدة، مما تناولته عدة آيات في عدة سور، من بينها قوله تعالى في سورة «المؤمنون» (٤٥): ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ ﴾.

ومعنى قول أصحاب القرية في خطابهم للرسل الثلاثة:

﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾، أي: تشاءمنا منكم وبكم، تعبيراً عن كراهيتهم للرسل، ونفورهم من الرسالة، مَثلهم في ذلك مَثل قوم فرعون، الذين وصفهم كتاب الله بنفس الشيء، حيث قال تعالى في شأنهم ﴾ (٧: ١٣١): ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥ ﴾، ومثل قوم صالح، الذين واجهوا نبيهم وأخاهم صالحاً بالسوء، فقالوا: ﴿ اطَّيَّرنا بك وبمن معك ﴾ (٢٧ : ٤٧)، لكن الرسل الكرام الذين أرسلهم الله إلى أصحاب القرية ردوا عليهم رداً مُفحماً: ﴿ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾، أي أن الشؤم الذي تحسون به إنما هو نتيجة لفسادعقيدتكم، وأثر من آثار كفركم.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ أَين ذُكِّرْتُمْ ﴾، أي: أَمِن أجل أننا ذكرناكم بالله، ودعوناكم إلى توحيده وعبادته، تطيرتم بنا، وتشاءمتم برسالتنا، وهددتمونا بالرجم والتعذيب، ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ مِن «الاسراف» بمعنى مجاوزة الحد، أي: أنتم قوم مغرقون في الضلال والعصيان، مُمعِنون في الغي والعدوان.

ولعل سائلاً يدفعه حب الاستطاع إلى أن يتساءل ما هي القرية التي جرت فيها هذه القصة؟ والجواب أن بعض قدماء المفسرين، قد اهتموا بهذا الأمر الجانبي، وبناء على ما تلقفوه من بعض الأخبار صرحوا بأن هذه القرية هي «أنطاكية»، لكن ابن كثير، المفسر والمحدث والمؤرخ، تصدَّى في تفسيره لإبطال هذا الرأي من عدة وجوه، مستنداً إلى حجج تاريخية وواقعية مقنعة، وبذلك بقي اسم هذه القرية مبهماً، على ما هو عليه في كتاب الله دون تعيين.

وواضح أن هذه القرية ليست هي القرية الأولى والوحيدة التي وقف أصحابها في وجه الرسل ورسالاتهم، فهذا النوع من المواقف تجدَّدَ كلما تجددت الرسالات عَبْر العصور والأجيال، والعِبرَة في القصة بالمواقف التي سجلتها، لا بالمكان الذي وقعت فيه، إذ ليست للمكان في هذا المقام أدنى خصوصية مميِّزة.

وانتقل كتاب الله إلى حكاية الشق الثاني من قصة أصحاب القرية، وهو ما يتعلق بمواطن آمن بالله وبرسله، فانطلق يدعو قومه إلى اتِّباع الرسل واعتناق دينهم، ويعلن أمام الملأ سفاهة ما عليه قومه من الشرك والضلال، فلم يلبثوا أن ضاقوا به وبدعوته ذَرْعا، وقضوا عليه وعليها قضاءً مبرماً، لكن الحق سبحانه وتعالى أكرمه بدخول الجنة جزاء إيمانه وصَدْعه بالحق، وما كاد يحُل بدار النعيم حتى أخذ يتمنى على الله أن يعرِف قومُه المنزلة الرفيعة التي أنزله فيها، عسى أن يؤمنوا بمثل ما آمن، ويفوزوا بمثل ما فاز به من النعيم المقيم، وذلك حرصاً منه على نجاتهم وسعادتهم، وقد حقق الله أمنيته عندما سجل قصته في كتابه العزيز من بدايتها إلى نهايتها، ليعرفها السلف والخلف، ويلاحظ في الشق الثاني من هذه القصة ذكر لفظ «اَلْمَدِينَةِ»، بدلاً من لفظ «اَلْقَرْيَةِ» الوارد في الشق الأول، وليس في هذا الاستعمال أي إشكال، لأن لفظ «اَلْقَرْيَةِ» في لسان العرب يستعمل في غير ما موضع مرادفاً للفظ «اَلْمَدِينَةِ»، وإلى قصة هذا المؤمن السعيد يشير قولُه تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنَ اَقْصَا اَلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ، قَالَ يَٰقَوْمِ اِتَّبِعُواْ اُلْمُرْسَلِينَ، اَتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ،

وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ، إِنِّيَ إِذًا لَّفِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ، إِنِّيَ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ، قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾.

## الربع الأول من الحزب الخامس والأربعين في المصحف الكريم

وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا
مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾
يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ
إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾
وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا
فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ
وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا
عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى
خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ
وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ
فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ

تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ
عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ
ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾
وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾
وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا
صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾
وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ
مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾
مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي
ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾
قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ
وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً

فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ
نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾
إِنَّ أَصْحَٰبَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ
وَأَزْوَٰجُهُمْ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى الْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾
لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن
رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَامْتَٰزُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾

# الربع الأول من الحزب الخامس والأربعين في المصحف الكريم

**عبـــاد الله**

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأول من الحزب الخامس والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنۢ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ اَلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ وَامْتَـٰزُواْ الْيَومَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾.

في بداية هذا الربع أعاد كتاب الله الحديث عن مصرع أصحاب القرية، الذين حكى قصتهم في الربع الماضي، ليبين ما تعرضوا له من سوء العاقبة، جزاء شركهم بالله، واعتدائهم على كرامة رسله، وحيث أن الحق سبحانه وتعالى يفعل في ملكه ما يشاء ولا يُسأل عما يفعل، ولا يَظلم أحداً، فإنه يختار لكل قوم العقاب اللائق بهم، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى (٢٩ : ٤٠): ﴿ فَمِنْهُم مَّنَ اَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً، وَمِنْهُم مَّنَ اَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ،وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ اِلاَرْضَ، وَمِنْهُم مَّنَ اَغْرَقْنَا ﴾، وقد اختار لعقاب أصحاب القرية الظالِم أهلُها من أنواع العقاب التي أشارت إليها هذه الآية النوع الثاني منها دون غيره، فقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾، أي: قوم «مؤمن القرية» الذي انفرد

عنهم جميعاً بإعلان إيمانه، والثبات عليه، والموت في سبيله، ﴿ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ، وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ، إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾، أي: إن كانت الواقعة أو العقوبة إلّا صيحة واحدة، ﴿ فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾، إشارةً إلى سرعة هلاكهم، وخمود حركتهم، كما تخمُد النار فتصير رماداً.

ونظراً لما اتصف به الحق سبحانه وتعالى من رحمة بعباده، وحِرْصٍ على هدايتهم والأخذ بيدهم، إنجازاً لوعده بتمكينهم من وسائل الهداية حتى لا يبقوا هَمَلاً، ولا يُتركوا سُدًى، مصداقاً لقوله تعالى في سورة البقرة (٣٨): ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾، وقولِه تعالى في سورة طه (١٢٣): ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾، فإن كتاب الله أراد أن يُبرز للعالم أجمع مبلغ التعجب والاستغراب والأسى، الذي يوحِي به موقفُ الضالين المعاندين، المعرِضين عن هداية الله، والمكذِّبين برسله ورسالاته، رغماً عن كونها إنما جاءت لإنقاذهم، وهي منهم «على طَرَف الثُّمام»، مبيّناً لهم أنهم مهما طال عليهم الأمد، فلن يفلتوا من قبضة الله، وأنهم سيساقون جميعاً إلى حضرته، ويقفُون بين يدي جلاله وعظمته، ويا ويلهم من العقاب والعذاب، عند حلول يوم الحساب، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا بإيجاز وإعجاز: ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ، مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ، أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ، وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾.

وحيث أن كثيراً من الناس تسيطر عليهم الغَفلة والنسيان، وتستغرق شهواتُهم وملذاتهم كل أوقاتهم، وإن طال عليهم العمر وامتد بهم الزمان، فلا يلتفتون إلى ما حولهم من آيات الله، ﴿ وَكَأَيِّن مِّنَ ءايَةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾، (١٢: ١٠٥)، ها هو كتاب الله يقرع أسماعهم من جديد، ويثير انتباههم إلى جملة من آياته الكونية الكبرى، عسى أن يستيقظوا من غفلتهم، ويلتفتوا إلى آياته في الأفاق وفي أنفسهم، التفاتة تدبر واعتبار، تنير منهم البصائر والأبصار:

أما الآية الكونية الأولى في هذا السياق فهي الأرض التي جعلها الله للإنسان موطناً ومَرْتَعاً، ومستقراً ومستودعاً، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَاكُلُونَ، وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ، وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَاكُلُواْ مِن ثَمَرِهِ ﴾، أي: ليأكلوا مما خلق الله من الثمر، ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ، أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾.

ومن غريب أمر الإنسان أنه لا يقدّر نعمة الله عليه بالأرض والماء، والنبات والغِذاء، إلّا عند ما ينتشر القحط ويَعُمُّ الجدب، فيصبح شَبَح الجوع والعطش أمامه ماثلاً، ويصبح ميزان عيشه مختلاً وشائلاً، ويحس بقلق بالغ لا مزيد عليه، ويا ليته يرجع ألى الله ويدرك أنه لا ملجأ منه إلّا إليه.

وقولُه تعالى: ﴿ سُبْحَـٰنَ الذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنَ انفُسِهِمْ ﴾، يتضمن الإشارة إلى معنيين جليلين: المعنى الأول ما أبدعته القدرة الإلٓهية في النبات والإنسان،

ومثلهما بقية الحيوان، من أجناس وأنواع وألوان، وما هي عليه من أشكال وصور وأحجام، لا سبيل إلى حصرها ووصفها في هذا المقام، والمعنى الثاني ما قام عليه الكون من الثنائية والازدواج في التكوين من ذَكَر وأنثى وسالِب وموجِب، وتعميم ذلك في النبات والحيوان والإنسان، مما يدل على وحدة التكوين ووحدة المكوِّن سبحانه وتعالى، وسيأتي بهذا المعنى العام،الشامل للثنائية والازدواج،قولُه تعالى في سورة الذاريات (٤٩): ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

ولاتساع البحث ودقته في هذا المجال، وفَتْح باب الاكتشاف فيه أمام الأجيال، قال تعالى في نفس الموضوع: ﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾، أي: مما لا يعلمه المخاطَبون عند نزول القرآن، لكن يمكن أن يكتشفه من يأتي من بعدهم، مَتَى رُفع عنه الحجاب في مستقبل الزمان، وذلك على غرار قوله تعالى في آية سابقة (١٦ : ٨): ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً، وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

وأما الآية الكونية الثانية في نفس السياق فهي آية السماء، وما سخره الله فيها من شمس وقمر، وليل ونهار، لمصلحة الإنسان ومنفعته، وانتظام عيشه وراحته، وتحقيق أكبر حظ من هنائه وسعادته، وذلك قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ، وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، وَالْقَمَرُ قَدَّرْنَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾، فبتنظيم الحياة اليومية للإنسان وتقسيمها إلى وقت

ملائم لليقظة والنشاط والعمل: هو النهار، ووقت ملائم للاستجمام والراحة والنوم هو الليل، ويتعاقب الليل والنهار على الأرض ومن فيها وما فيها، بالحرارة والبرودة الملطفة لها، وبضياء الشمس ونور القمر، استطاع الإنسان أن يتحمل تكاليف العيش فوق سطح الأرض، وأن يكيف حياته فيها التَّكْييف المناسب، وعبّر كتاب الله عن إدْبار النهار بضيائه، وإقبال الليل بظلامه، ببلاغته المعهودة فقال: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ الَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾، أي: خارجون من ضياء النهار، وداخلون في ظلام الليل في الحين.

وقولُه تعالى: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾، أي: تسير على ترتيب معلوم، ونظام مرسوم، لا تفاوت فيه ولا اختلاف، وهذا النظام يتجلى في دورانها حول نفسها أولاً، وفي جريانها حول مَدَارها ثانياً، وذلك دون توقف وفي اتجاه واحد، في الفضاء الكوني الواسع، وبفعل دَوران الأرض حَول نفسها من الغرب إلى الشرق تتراءى لنا الشمس أيضاً وهي تجري من الشرق إلى الغرب، وهذا المعنى الكوني الرائع يؤكده قوله تعالى في آية أخرى (١٤: ٣٣)، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ﴾، أي: لا يفتران ولا يقفان، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾، أما «مُسْتَقَرُّ» ، الشمس الذي نطقت به الآية الكريمة فيصدق بمستقرها في المكان، وهو مَدَارُها الذي لا تتجاوزه في الفضاء، ويصدق بمستقرها في الزمان، وهو ما تتعرض له في الأخير، من انقلاب وتغيير، ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْاَرْضُ غَيْرَ الْاَرْضِ

وَالسَّمَـٰوَٰتُ ﴾ (١٤: ٤٨)، طبقاً لقوله تعـالى (٣١: ٢٩)، ﴿ وَسَخَّرَ اَلشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، كُـلٌّ يَجْرِيَ إِلَىٰ أَجَـلٍ مُّسَمّىً ﴾، وقولِه تعالى (٨١: ١)، ﴿ إِذَا اَلشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وَإِذَا النُّجُـومُ انكَدَرَتْ ﴾، الآية.

وقولُه تعالى: ﴿ وَالْقَمَرُ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ ﴾، أي: وآية لهم القمر، معطوف على ما قبله، فيه إشارةٌ إلى أن الله تعالى جعل سير القمر منازل متوالية، بحيث ينزل كل ليلة منها بمنزل، وعدد منازله ثمانية وعشرون منزلاً، وسبق في سورة يونس قولُه تعالى مبيناً حكمته البالغة في ذلك (٥)، ﴿ هُوَ اَلـذِي جَعَلَ اَلشَّمْسَ ضِيَـآءً، وَالْقَمَـرَ نُـوراً، وَقَـدَّرَهُ مَنَـازِلَ لِتَعْلَمُـواْ عَـدَدَ اَلسِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾.

وحيث أن القمر يشرعُ نورُه في التناقض والتراجع بعد الليلة الرابعَة عشرة، ولا يأتي آخر الشهر حتى يكون قد بلغ غاية النقص، فقد شبهه كتاب الله في هذه الحالة بالعنقود اليابس من الرُّطَب إذا تَقَوَّسَ وانحنى وأصبح عتيقاً، وذلك قولـه تعالى: ﴿ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ اِلْقَدِيمِ ﴾، والعُرْجُون من «الاِنعراج» وهو الانعطاف.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن النواميس الثابتة والسنن المنتظمة، التي يسير بمقتضاها كل جزء من أجزاء الكون، دون خلل ولا اضطراب، حتى لا يعترض أحدُها طريق الآخر، فقال تعالى مُمَثِّلاً بالشمس والقمر والليل والنهار: ﴿ لَا اَلشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَـآ أَنْ تُدْرِكَ اَلْقَمَـرَ، وَلَا اَليْلُ سَـابِقُ النَّهارِ، وَكُـلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾، وسيأتي في سورة المُلْك ما يؤكد نفس المعنى ويزيده

إشراقاً وتألقاً، لكن من زاوية أخرى، حيث قال تعالى (٣: ٤): ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ، فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾، أي: من شقوق وثغرات، ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾، ينصبُّ معناه على الآية الكونية الأولى والآية الكونية الثانية، فهو تعقيب على ما سبقه، وتمهيد لما لحقه، إذ المراد به تنبيه كل غافل أو متغافل، وكل جاهل أو متجاهل، إلى أن هذا التنظيم الدقيق للكـون، الملائم في كلياته وجزئياته لحياة الإنسان، والمنسجمَ مع فطرته وطبيعته، والضامنَ لمنفعتـه ومصلحته، إنمـا هو من صنـع الله وحسن تدبيره، ولولا فضل الله على الإنسان ورحمته به لما تمكن من الانتفاع به، ولعجز عن تسخيره.

وأما الآية الكونيّة الثالثة التي وردت في نهاية هذا السياق فهي آية البحر وتسخير مياهه لجري السفن وحمل الإنسان، ونقل البضائع والأمتعة على وجه التبادل والتجارة من مكان إلى مكان، بحيث أصبح البحر هو الطريق الممهّد والمطرّوق بين القارات، والفُلْك التي تمخُر فيه هي أداة الاتصال المباشـر بين مختلف الأجناس والسلالات، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّـتَهِمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ، وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ، وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَـلَا صَرِيـخَ لَهُمْ ﴾، أي: لا مغيث يغيثهم، ﴿ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ، إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّـا وَمَتَـٰعاً إِلَىٰ حِينٍ ﴾، وسبق في سورة النحل قوله تعالى (١٤): ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ

فِيهِ، وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾، وسيأتي في سورة الجاثية، قوله تعالى (١٢): ﴿ اللَّهُ الذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

وكلمة «الذرية» هنا تصدق على الأبناء والآباء، لأن من الآباء تُذْرَأُ الأبناء، و«الفُلْكُ المشحونُ»، حمله بعض المفسرين على «سفينة نوح» التي كانت أول سفينة من نوعها، وكانت سفينة النجاة لنوح ومن حمل معه من ذرية آدم ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ (١٧ : ٣)، وطبقاً لهذا التفسير يكون وَصفُ «الفُلْكِ»، بالمشحون، لأن نوحاً «شحنَ» فيه من كل زوجين اثنين، إبقاءً على جملة من الكائنات الحية، حتى لا تتعرض للإبادة والفناء بفعل الطوفان، ولفظ «الفُلْكِ»، يستعمل في كتاب الله أحياناً بصفته مفرداً كما جاء في هذه الآية، وأحياناً بصفته جمعاً كما جاء في قوله تعالى (١٦ : ١٤)، ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾، الآية.

والمراد بقوله تعالى: ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ ما أَلْهَمَهُ الله للبشر من بناء السفن الصغرى والكبرى لركوبهم لُجَج البحر، انطلاقاً من سفينة نوح التي كانت بالنسبة للأوائل سفينة نموذجية، وفي هذه الآية تنبؤ صريح بما سيهتدي إليه الإنسان من بناء البواخر والبوارج التي تمخُر البحار، وإيذان من الله بما سيظهر من طائرات الجو وسفن الفضاء، التي يمتطيها الإنسان في الليل والنهار، فهي وما شابهها تندرج كلها تحت قوله تعالى: ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾، والتعبير فيه بصيغة الماضي: ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم ﴾، حقٌّ وصدق، لأن الله تعالى يعلم ما كان وما سيكون.

وبعد أن استعرض كتاب الله جملة من آيات الله في الآفاق والأنفس، عسى أن يهتدي بحكمتها الضالون، ويستيقظ بعظمتها الغافلون، عاد كتاب الله إلى وصف حالة هذا النوع من البشر، الذي استولى عليه الشك والخَوَر، والقلق والضجر، فلم يعد يُصْغِي بسمعه إلى أي مقال، وإذا عُرض عليه الحق قابله بالإعراض واشتط في الجدال، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾، أي: إذا قيل لهم ذلك أعرضوا، ﴿ وَمَا تَاتِيهِم مِّنَ ـايَةٍ مِّنَ ـايَـٰتِ رَبِّهِمُ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾، سواء كانت الآية من الآيات المبثوثة في الكون العظيم، أو من الآيات الواردة في الذكر الحكيم، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾، أي: على الفقراء والمحتاجين ﴿ قَالَ اَلذِينَ كَفَرُواْ لِلذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ، إِنَ اَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾، ناسين أن المال الذي بأيديهم هو مال الله، وإنما استخلفهم فيه، وفيه حق معلوم، للسائل والمحروم.

ثم بين كتاب الله ما هم عليه من شك في البعث، واستهزاء بالوعد والوعيد، وأكد الحق سبحانه وتعالى لمن في قلبه أدنى شك أن كل آت قريب وليس ببعيد، فقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا اَلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ، مَا يَنظُرُونَ ﴾، أي: ما ينتظرون، ﴿ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَاخُذُهُمْ وَهُمْ يَخَصِّمُونَ ﴾، أي: يختصمون، ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

وكشَف كتابُ الله الستار عن هول المفاجأة التي تبهرهم،

وتهز كيانهم، فقال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ ﴾، أي: من القبور، ﴿ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ، قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾، وردّاً على سؤالهم يقال لهم: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾.

وللتذكير بقدرة الله القاهر فوق عباده، قال تعالى: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾، كما قال تعالى في أوائل هذا الربع: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾، وللتذكير بعدل الله المطلق بالنسبة للعاصي والمطيع والمؤمن والكافر، قال تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً، وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

وخُتم هذا الربع بالحديث عن أصحاب الجنة المُكَرمين، وما هم عليه وأزواجهم من نعيم مقيم، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ ﴾، أي: مسرورون مغتبطون بتخطي الأهوال، وتجاوز الأخطار، وجواز الصراط، وضيافة الله لهم في الجنة، ﴿ فِي ظِلَالٍ، عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ، لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ، وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾، أي: ما يتمنّونه ويَطلبُونه يأتيهم، ﴿ سَلَامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾، أي: يدخل عليهم الملائكة بالتحية من رب العالمين، بينما المجرمون يذوقون ألوان العذاب الأليم، ﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾.

# الربع الثاني من الحزب الخامس والأربعين في المصحف الكريم

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ
إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ
مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ
تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾
ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ
أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟
يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟
ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ
فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ
نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ
وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾
لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا
مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾
وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا
مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ
نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ
إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا
خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا
وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ
يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾
الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم
مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾
إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ
الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾

إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ
الْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا
مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الَاعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ
مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ اِلَّا مَنْ خَطِفَ
الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَاسْتَفْتِهِمُۥ أَهُمُۥ أَشَدُّ خَلْقًا
امْ مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾
وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْاْ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾
وَقَالُواْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ اَ۬ذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا
إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا الَاوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾
فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا
يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾

# الربع الثاني من الحزب الخامس والأربعين في المصحف الكريم

## عبــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب الخامس والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة يسٓ المكية: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ الشَّيْطَـٰنَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، إلى قوله تعالى في سورة الصافات المكية أيضاً: ﴿هَـٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

وجه كتاب الله في بداية هذا الربع خطاب تقريع وتوبيخ إلى الجنس البشري كله، مذكراً بني آدم بقصة إبليس الذي وسوس إلى أبيهم آدم، معلناً ما بينه وبينهم من العداوة الراسخة والصراع الدائم إلى يوم الدين، نظراً لما تحداهم به إبليس اللعين، من إغوائهم أجمعين، إلّا عباد الله المُخلَصين: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاًۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ (٢٠ : ١٢٣).

وتساءل كتاب الله كيف يقع بنو آدم في فخ الشيطان، رغماً عن الوصايا المتتالية التي أوصاهم الله بها في جميع رسالاته وكتبه، للحذر من وساوس الشيطان، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِي ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ الشَّيْطَـٰنَ﴾، أي: لا تطيعوه ولا

تمتثلوا أمره، ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾، أي: ثابت العداوة لكم سراً وعلناً ظاهراً وباطناً، ﴿ وَأَنْ اَعْبُدُونِي هَـٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾، فعبادة الله وحده هي الطريق اللاّحب، والنهج الصائب، ﴿ وَلَقَدَ اَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً ﴾، أي: أن الشيطان قد أغوى وأضل منكم خلقاً كثيراً، فكانت عاقبة الضالين منكم هي العذاب الأليم، لانحرافهم عن الصراط المستقيم، ﴿ اَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴾.

وها هو كتاب الله يصف سوء عاقبتهم، حتى أن «أَيْـدِيهِمْ»، التي كانوا يبطشون بها أصبحت هي الشاهدة عليهم بما اجترحوه من الآثام في خطواتهم، بدلاً من أفواههم وألسنتهم، التي لم تعد لها أدنى قدرة على الجواب، لأن أصحابها أُبلسوا عند الحساب، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿ هَـٰذِهِ جَهَنَّمُ التِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ، اَصْلَوْهَا اَلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ، اَلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ، وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ، وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾، وكإرهاص سابق في الدنيا من هذا القَبِيل، ما هو معروف الآن من أن بصَمات الأصابع وفك الأسنان، تكشِف أثناء التحقيق في الجرائم عن شخصية الإنسان. قال القرطبي: (فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى: ﴿ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم ﴾، فجعل ما كان من اليد كلاماً، وما كان من الرّجل شهادة؟ قيل: إن اليد مُباشِرة لعمله والرِّجْلُ حاضرة، وقولُ الحاضر على غيره «شهادة»، وقول الفاعل على نفسه «إقرار» بما قال أو فعل، فلذلك عبَّر عما صدر من الأيدي بالقول، وعما صدر من الأرجل «بالشهادة») وهذه لطيفة من لطائف التفسير ونفائسه.

ومضى كتاب الله ينذر الذين ضلّوا سواء السبيل، بالطمس والمسخ في الآخرة، جزاء ما ارتضوه لأنفسهم في الدنيا من انطماس البصائر والأبصار، وتعطيل العقول وفساد الأفكار، فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ، فَاسْتَبَقُواْ الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ، وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَٰعُواْ مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾، ومن كان عديم الإرادة مشلول الحركة كيف يخترق الصفوف وسط الزحام، ولا سيما عندما تلتف الساق بالساق، ومن كان مطموس العين فاقد البصر كيف يجتاز الصراط الذي هو «أرقُّ من الشعرة وأحدُّ من السيف»، بل كيف ينجح مثله في مثل هذا السباق؟ ألم يقل الحق سبحانه وتعالى في آية سابقة: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ (١٧ : ٧٢).

ومن الإنذار بالمسخ الذي هو تبديل خلقة الإنسان، وقلبها إلى جماد أو حيوان، مِما يُعدُّ عقاباً إلٰهيّاً صارماً، انتقل كتاب الله إلى وصف ما يتعرض له المعمَّرُون الذين طال عليهم العمر في أغلب الأحيان، سواء كانوا أبراراً أو فجاراً، مؤمنين أو كفاراً، فقال تعالى: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾، أي: رددناه بعد القوة إلى الضعف، وبعد النشاط إلى العجز، وبعد الشباب إلى الهرم، وهذه الحالة يصدق عليها معنى النكس والانتكاس، يقال: نكسْتُ الشيء فانتكس إذا قلبتَه على رأسه، ووصف كتاب الله في سورتين سابقتين هذه الحالة «بأرذل العمر»، لما يعتورها من التراجع والتناقص في القوى والملكات، على العكس من «أفضل

العمر»، الذي تنمو فيه القوى والملكات، وتزداد يوماً بعد يوم، فقال تعالى في سورة النحل (٧٠): ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾، وقال تعالى في سورة الحج (٥): ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾.

وتعرض كتاب الله لوصف هذه الحالة نفسها بالتفصيل في سورة الروم السابقة أيضاً، فقال تعالى (٥٤): ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضُعْفٍ، ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضُعْفٍ قُوَّةً، ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضُعْفاً وَشَيْبَةً، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾، وفي صحيح البخاري من حديث سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ ويقول: «أعوذ بك أن أُرَدَّ إلى أرذل العمر»، وقد استجاب الله دعاء رسوله فانتقل إلى الرفيق الأعلى وعمره لا يزيد عن ثلاثة وستين عاماً. ثم قال تعالى تعقيباً على ذلك: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾، إشارةً إلى أن الله الذي خلق الإنسان وقضى بتنكيسه في الخلق، بعد مروره بعدة أطوار، قادر على أن يفعل به ما يشاء من موت وبعث وحشر وحساب، ينتهي بالثواب أو العقاب.

وكأنَّ الحق سبحانه وتعالى إنما منح الإنسان في «أفضل العمر» المزيدَ من القوى والملكات، على العكس من «أرذل العمر»، ليجعله في محَكِّ الاختبار، ويُبرز كل ما في دخيلة نفسه من الطوايا والأسرار، حتى إذا ما حدد اختياره بِمَحض إرادته إصلاحاً أو إفساداً، وقرر مصيره بنفسه إشقاءً أو إسْعاداً، وأخذت قواه وملكاته في التراجع والنقصان، وأحس بالتخلف عن الحركة،

والعجز عن مسايرة الركبان، تولى الحق سبحانه وتعالى إعداده شيئاً فشيئاً لاستقبال الدار الآخرة، التي هي وحدها دار الخلود والإقامة، وهنالك ينال الإنسان ما هو أهل له عند ربه من المهانة أو الكرامة، ﴿ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ (٣٥: ٣٧).

ولِيُبطلَ كتابُ الله إحدى شُبَه المشركين الزائفة التي كان يروّجها أعداء الرسول وخصوم الرسالة في فجر الإسلام، وهي ادِّعاء كون الرسول شاعراً، وكون الكتاب الذي جاء به من عند الله إنما هو من صنف الشعر المتعارف عند العرب، قال تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ الشِّعْرَ، وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾، لأن رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين، التي أرسله الله بها إلى الناس كافة، أجلُّ وأعلى من أن تنزل إلى مستوى الشعر والشعراء أجمعين، فهي مخالفة للشعر شكلاً وموضوعاً، أصولاً وفروعاً، ومنذ ذلك العصر تبخرت هذه الشبهة ولم يعد لها أي رواج. ومما نبّه إليه القاضي أبو بكر (ابن العربي) في هذا المقام «أن قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾، لا يتضمن عيب الشعر، كما أن قوله تعالى (٢٩: ٤٨): ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾، لا يقتضي عيب الكتابة».

ثم نطق كتاب الله بالقول الفصْل في شأن القرآن وشأن الرسالة، فقال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ، لِّتُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً ﴾، أي: من كان حَيّ القلب حَيّ الضمير، أو كل حَيّ على وجه الأرض، ﴿ وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَـٰفِرِينَ ﴾، أي: لتقوم

الحجة عليهم، ومن أنذر فقد أعذر، ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (١٧: ١٥).

وانتقل كتاب الله إلى التذكير بنعمه على الخلق، خصوصاً نعمه الظاهرة التي يتقلب فيها الإنسان كل يوم، ومن بينها (الأنعام) التي سخرها الحق سبحانه وتعالى لمصلحة الإنسان، ومنافعها المتعددة الأصناف والألوان، أكلًا وشرباً ولباساً وتأثيثاً، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ﴾، أي: مما أبدعناه دون شريك ولا معين، ﴿ أَنْعَـٰماً فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴾، أي: يتصرفون فيها، دون منازع ولا مانع، ﴿ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ ﴾، أي: سخرناها لخدمتهم، ووضعناها تحت تصرفهم، قال جار الله الزمخشري: «ولهذا ألزم الله سبحانه الراكب أن يشكر هذه النعمة، ويسبح بقوله: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا، وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ (٤٣: ١٣)، ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ﴾، أي: مركوبهم، كالإبل التي هي سفن الصحراء، ﴿ وَمِنْهَا يَاكُلُونَ ﴾، أي: ما يختارون لحمه للتغذية والأكل الشهي، ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ ﴾، أي: لهم فيها عِلاوة على ما سبق منافع أخرى من الأصواف والأوبار والأشعار والجلود والشحوم، و﴿ مَشَارِبُ ﴾، إشارةً إلى ما يتمتعون به من ألبانها السائغة للشرب، على غرار ما سبق في قوله تعالى في سورة النحْل (٦٦): ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً، نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنۢ بَيْنَ فَرْثٍ وَدَمٍ، لَبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴾، وقوله تعالى في نفس السورة (٨٠): ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتاً

تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ، وَمِنَ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثاً وَمَتَـٰعاً إِلَىٰ حِينٍ ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾، أي: أفلا يتذكرون هذه النعم الجليلة التي لا يطيب لهم العيشُ بِدُونها، ويشكرون الله عليها، بالعبادة الخالصة، والطاعة الدائمة، والتوحيد الكامل الذي لا تخالطه ذَرة من الشرك، لا من الشرك الجليّ ولا من الشرك الخفيّ.

ومن مَقام التذكير بالنعم الإلٓهية التي أسبغها الحق سبحانه وتعالى على خلقه، عسى أن يعودوا إلى الله ويقْدُرُوه حق قَدْرِه يعود كتاب الله إلى وصف ما عليه المشركون الضالون، ومن سلك مسلكهم، من الجهل بعظمة الله، والشرك بربوبيته، وعدم الاعتراف بوحدانيته، وعبادة الأصنام والأوثان بدلاً من عبادته، والتصدي لمقاومة كل من يطعن في معبوداتهم ويكشف عن حقيقتها، أملاً في تلقي نصرها ومعونتها، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى بمنتهى الإيجاز: ﴿ وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ، لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ، وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ ﴾.

وللتخفيف من هموم الرسول ومشاغله، من أجل ما يلقاه عليه الصلاة والسلام من أذى المشركين وتعنتهم كل مطلع شمس، خاطبه ربُّه قائلاً: ﴿ فَلَا يُحْزِنكَ قَوْلُهُمْ، إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾.

وكما ذكَّر كتابُ الله الإنسان بنعمة «الانعام» التي لا يطيب له العيش بدونها ولا المقام، ها هو كتاب الله يذكِّرُ الإنسان

بنفسه التي بين جنبيه، ويتساءل بمنتهى الاستغراب كيف ينسى الإنسان أن الله هو الذي أوجده من العدم، وأنه خلقه من ماء مَهِين، ثم صوره في أحسن صورة، وجعله في أحسن تقويم، وزوده بالعقل والنطق واللسان، إلى أن أصبح فصيحاً بليغاً يحسن الجدل والقول والبيان، وبَدَلاً من أن يعترف بفضل الله عليه، ها هو يجادل في الحق ويكابر، ولا يتورع عن المجاهرة بأسخف سؤال يوجهه المخلوق إلى الخالق، وإلى هذه المعاني يشير قوله تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ اَلاِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ، فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾، أي: يتولى مخاصمة مبدعه وخالقه، ويتشدق بتحدّي ممده ورازقه، ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ: مَنْ يُّحْيِـي اِلْعِظَـٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾، لكن لم يلبث أن جاءه الجواب المُفْحِم القاطع: ﴿ قُلْ يُحْيِـيهَا اَلذِيَ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾، قال القشيري: «وما دامت الإعادة في معنى الإبداء، فأي إشكال يبقى في جواز الإعادة في الانتهاء».

وأضاف كتاب الله إلى هذا الجواب، الذي لا يدخله الشك والارتياب، ظاهرة باهرة أخرى هي ظاهرة انقداح النار من الشجر الأخضر، مع مَا بين الماء والنار من تضاد في المَخْبَر والمَظْهَر، وهي ظاهرة معترف بها في القديم والحديث، وذلك قوله تعالى في نفس السياق: ﴿ اِلذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ اَلشَّجَرِ اِلاَخْضَرِ نَاراً فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾.

وليقضيَ كتاب الله على جحود المتنطعين وعنادهم، وعلى شك المتحذلقين واستبعادهم، ألقى عليهم الحق سبحانه وتعالى

سؤالاً ضخماً لا يمكن أن يكون جوابه إلاّ بالتسليم، من كل ذي عقل سليم، فقال تعالى: ﴿أَوَ لَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم، بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾، الذي عم خلقه كل شيء، وأحاط علمه بكل شيء، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَنْ يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

وختمت سورة (يسٓ) بخاتمة كلها تسبيح وتقديس، واعتراف بحكمة الله الباهرة، وتمجيدٌ لقدرته القاهرة، وتذكير بسطوته الباطنة والظاهرة، ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

والآن وقد انتهينا بحمد الله من تفسير سورة (يسٓ) المكية ننتقل بعون الله إلى تفسير (سورة الصافات المكية) أيضاً، قال تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ. وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا، فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا، فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾.

هذا قَسَم من الله تعالى بملائكته، ﴿ٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ بالملأ الأعلى في عبادته، ﴿وَٱلزَّٰجِرَٰتِ﴾، عبادَه عن معصيته، و﴿ٱلتَّٰلِيَٰتِ﴾، كلامه المنزل على رسله لإرشاد الإنسان وهدايته، وهذه الصفة الأخيرة للملائكة جاءت هنا على غرار قوله تعالى فيما سيأتي في سورة المُرْسَلات (٥ - ٦): ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا، عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾، وقال جار الله الزمخشري: «يجوز أن يُقسِم الله بنفوس العلماء العمال، ﴿ٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾، أَقدامَها في التهجد وسائر الصلوات وصفوف الجماعات، ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ﴾، بالمواعظ والنَصائح، ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ﴾، آيات الله، والدارسات

شرائعه، أو بنفوس قُوّاد الغزاة في سبيل الله، التي «تَصُفُّ» الصفوف، و«تزجُر» الخيل للجهاد، و«تتلو» الذكر مع ذلك، لا تشغلها عنه الشواغل، كما يُحكَى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه».

وجواب القَسَم، المُقسَمُ عليه «بالصافات والزاجرات والتاليات» هو قوله تعالى في نفس السّياق: ﴿ إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ، رَّبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَـٰرِقِ ﴾، وما أحسن ما علق به الإمام القشيري على هذه الآية حيث قال: (ومعنى كونه «واحداً» تفرُّده في حقه عن القسمة، وتقدُّسه في وجوده عن الشبيه، وتنزُّهه في مُلكه عن الشريك، «واحدٌ» في جلاله، «واحدٌ» في جماله، واحدٌ في أفعاله، واحدٌ في كبريائه، بنعت عَلائه، ووصْفِ سنائه) وجُمعت كلمة «الْمَشَارِقِ»، إما باعتبار كل ما يسبح في الفضاء من شموس وأقمار، وإما باعتبار الشروق اليومي للشمس وحدها طيلة كل نهار.

وبمناسبة ذكر السماوات ومشارقها في فاتحة هذه السورة لفت كتاب الله الأنظار إلى السماء الدنيا وزينتها، فقال تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى (٦٧ : ٥): ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ ﴾، ثم عرَّفنا بأن الملأ الأعلى الذي ينزل منه الوحي على الأنبياء والمرسلين، هو على الدوام في مأمن من تطفل الكهان والشياطين، وأن من حاول منهم النفاذ إلى حماه، للتشويش على الوحي المنزل من عند الله، أو لهتك أستار «عالم الغيب»، كان

معرّضاً للطرد والرَّجْـم دون أدنى ريب، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ، لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ، وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ، دُحُوراً ﴾، أي: يطردون طرداً، على غرار قوله تعالى في آية أخرى (٦٧: ٥): ﴿ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُوماً لِّلشَّيَـٰطِينِ ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾، أي: موجِع ومؤلم، من الوَصَب وهو المرض، وقولُه تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾، هذا الاستثناء يرجع إلى غير الوحي، لأن الوحي لا سبيل إلى التطفل عليه، بدليل قوله تعالى هنا: ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾، وقولِه في آية أخرى (٢٦: ٢١٢): ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾، أما «عالَم الشهادة» المادي فهو مفتوح الأبواب، في وجه كل إنسان، منذ قديم الزمان.

ثم أعاد كتاب الله الكرة لمجابهة منكري البعث وخصوم الرسالة، فقال تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً، أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ﴾، أي: من السماوات والأرض وما فيهما، وهذه الآية على غرار قوله تعالى (٤٠: ٥٧): ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾، أي: طين لاصق بعضُه ببعض، ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾، أي: أنت عجبت من إنكارهم للبعث، وهم يسخرون من إثباتك له، ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذْكُرُونَ، وَإِذَا رَأَوْاْ ءَايَةً ﴾، أي: من آيات الله في الآفاق والأنفس، ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾، أي: يبالغون في السخرية والاستهزاء، ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ. أَ.ذَامِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً

وَعِظَـٰماً إِنَّـا لَمَبْعُوثُـونَ أَوَ ءَابَـآؤنَـا الأَوَّلُـونَ. قُـلْ نَعَمْ. وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾، أي: مغلوبون على أمركم صاغرون.

وختم هذا الربع بوصف المفاجأة الكبرى التي تنتظرهم، حيث قـال تعـالى: ﴿ فَـإِنَّمَـا هِيَ زَجْـرَةٌ وَاحِـدَةٌ فَـإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾، أي: إذا هم قيام يَنْظُـر بعضهم إلى بعض، و«الزَّجْرة الواحدة» هنا هي الصيحة الواحدة، ﴿ وَقَالُواْ يَـٰوَيْلَنَـا هَـٰذَا يَوْمُ الـدِّينِ ﴾، فرد عليهم المـلائكـة المـوكّلون بهم: ﴿ هَـٰذَا يَـوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾، والمراد «بيوم الدّين» يـوم الجزاء، و«بيوم الفصل» يوم القضاء، ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ (٤٢: ٧).

# الربع الثالث من الحزب الخامس والأربعين في المصحف الكريم

احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن
دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم
مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾
وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا
عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن
سُلْطَانٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ۖ إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾
فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾
إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ
يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾
بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ
الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾
أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ

ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ﴿٤٥﴾
بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾
وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ ﴿٤٩﴾
فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي
كَانَ لِي قَرِينٞ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا
تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ
فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوۡلَا
نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوۡتَتَنَا
ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثۡلِ
هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا
جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٦٤﴾
طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا
ٱلۡبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى
ٱلۡجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمۡ أَلۡفَوۡاْ ءَابَآءَهُمۡ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمۡ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ
يُهۡرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا
فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾

إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ
ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾
وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾
سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾
إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٢﴾

# الربع الثالث من الحزب الخامس والأربعين في المصحف الكريم

## عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثالث من الحزب الخامس والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ اَحْشُرُواْ الذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اِللَّهِ، فَاهْدُوهُمُ إِلَىٰ صِرَاطِ اِلْجَحِيمِ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا اَلْمُومِنِينَ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا اَلاخَرِينَ ﴾.

لا يزال كتاب الله يواصل الحديث عن المشركين بالله، والمنكرين للبعث والشّاكّين في الوقوف بين يديه، مسجلاً الأوامر الإلٓهية الصادرة في شأنهم وشأن رفقائهم، ليلقَوا الجزاء المناسب عن جريمة الشرك بالله، وجريمة الشك في البعث، اللتّيْن هما أكبر الجرائم، رافعاً الستار عما يدور بين أئمة الكفر الطغاة، وأتباعهم المخدُوعين المغلوبين على أمرهم، وهم يتحاورون في جهنم ويتلاومون، لكن بعد فوات الوقت، ﴿ وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ ﴾ (١٠ : ٥٤)، وأول أمر صدر في حق هؤلاء الأئمة والأتباع سجله كتاب الله في بداية هذا الربع قوله تعالى: ﴿ اَحْشُرُواْ الذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾، أي: أشياعَهم وأتباعهم،

﴿ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ، فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَٰطِ الْجَحِيمِ، وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾، أي: قفوهم للحساب، ثم سوقوهم إلى النار.

وتمهيداً لحكاية الحوار الذي يدور بينهم في هذا المشهد الرهيب قال تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾.

فمن كلام الأتباع المخدوعين، وهم يخاطبون أئمة الكفر، حكى كتاب الله قولهم: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَاتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾، ولفظ ﴿ الْيَمِينِ ﴾، هنا مستعار للقوة والقهر، كما حكى قول نفس الأتباع في التنديد والتشهير بما كان عليه أئمة الكفر من استبداد وطغيان: ﴿ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَٰغِينَ ﴾.

ومن كلام أئمة الكفر الطغاة وهم يخاطبون الأتباع المخدوعين حكى كتاب الله قولهم: ﴿ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُومِنِينَ، وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾، مقلِّدين بهذا الأسلوب في التضليل والتلبيس إمامهم الأكبر إبليس، إذ قال في مثل هذا المجال: ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ، اِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي، فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ﴾ (١٤ : ٢٢).

ثم سجل كتاب الله عليهم اعترافهم ـ بعد اللف والدوران ـ بجُرمهم، واعترافهم بعدل الله في عقابهم على ظلمهم، فقال تعالى على لسانهم بالنسبة للاعتراف الأخير: ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ، إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴾، أي: ذائقون عذابَ الله لا محالة، وقال

تعالى على لسانهم بالنسبة للاعتراف الأول: ﴿ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴾ مخاطبين أتْباعهم.

وفي خلال هذا الحوار وصف كتاب الله ما آل إليه أمر المتبوعين والأتباع من تخاذل واستسلام، في هذا المقام، حيث لم ينصُر أحدُ الفريقين الفريقَ الآخر، للخلاص من العذاب، ولم ينصر كلا الفريقين ما كانوا يعبدونهُ من دون الله، من الشياطين والأوثان والأصنام، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى بمنتهى الإيجاز: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾، أي: ما لكم لا ينصر بعضكم بعضاً الآن، ﴿ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾.

وسجل كتاب الله القول الفصل، والحُكْم العدل في هذه القضية وأمثالها، فقال تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾، لكن لكل فريق منهم نصيبه المناسب لجُرمه، ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾، وسبق في سورة الأحزاب موقف قريب من هذا الموقف، يكشف فيه الأتْباع المخدوعون زيف القادة الذين خدعوهم، ويلعنونهم لعناً كبيراً، وذلك قوله تعالى حكاية عنهم (٦٧): ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا، رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْناً كَثِيراً ﴾، وإنما استحقوا ﴿ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾، لأنهم ضلوا وأضلوا.

وتثبيتاً للحكم الصارم الذي حكم به الحق سبحانه وتعالى في شأنهم جاء كتاب الله بحيثيات الحكم وأسبابه، فقال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾، أي: إذا قيل لهم

قولوا لا إله إلاّ الله، ﴿ يَسْتَكْبِرُونَ، وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾، فهم يشركون بالله ولا يرضون به رباً، وهم يطعنون في الرسول ولا يرضون به نبياً، وكفى بإنكار الربوبية وإنكار النبوءة مبرراً لاستحقاق العذاب، في نظر أولي الألباب، ـ ومنذ أبَى إبليس من السجود لآدم واستكبر فدخل في عداد الكافرين أصبح الاستكبار عن عبادة الله وطاعته سنة متبعة عند أهل الكفر، وقاسماً مشتركاً بينهم في كل جيل وعصر، حتى أنه كلما ذُكِر في القرآن «الكفر والكافرون»، ذُكِر بجانبه في الغالب «الكِبْر والمستكبرون».

ورداً على مزاعم المشركين في حق الرسول، وإبطالاً لها من الأساس، قال تعالى: ﴿ بَلْ جَآءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾، فرسالته عليه الصلاة والسلام تجديد وتكميل لرسالات الرسُل جميعاً، والذي جاء به من عند الله، هو الحق الذي لا حق سواه، وما خالفه كله باطل، ﴿ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾ (١٧ : ٨١)، ورفعاً لكل إبهام والتباس فيما جرى على لسان أئمة الكفر، إذ قالوا فيما سبق: ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴾، قال تعالى موضحاً ومفصحاً: ﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ الْعَذَابِ الَالِيمِ ، وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَاكُنتُم تَعْلَمُونَ ﴾.

وفتح كتاب الله صفحة جديدة في سجِلّ عباد الله المخلَصين الذين لا يذوقون العذاب، ولا يناقَشون الحساب، لوفائهم بعهدهم مع الله، ﴿ وَمَنَ اَوْفىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهِ اِللَّهَ فَسَنُوتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ (٤٨ : ١٠)، ووصَف أنواعَ الإنعام والإكرام

المخصصة لهم في جنات النعيم، فقال تعالى مستثنياً لهم ممن يذوقون العذاب: ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾، ومعنى ﴿ الْمُخْلَصِينَ ﴾، بفتح اللام على قراءة نافع المدني وبرواية ورش المتبعة في المغرب: «الذين أخلصهم الله لطاعته، واستخلصهم لولايته» وقرىء بكسر اللام أيضاً أخذاً من «الإخلاص» بمعنى إفراد الله وحده بالعبادة، وتصفية عبادته من كل الشوائب، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ فَوَٰكِهُ ﴾، أما «الرزق المعلوم» ففي شأنه جاء قوله تعالى في آية أخرى (١٩: ٦٢): ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾، وأما «الفواكه» ففي شأنها جاء قوله تعالى في آية أخرى (٥٦: ٦٢): ﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ، لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾، ثم قال تعالى على وجه التعميم والشمول: ﴿ وَهُمْ مُّكْرَمُونَ فِي جَنَّٰتِ النَّعِيمِ ﴾، والإكرام بمعناه العام لا يقتصر على ما ورد في هذا السياق وما ماثله، بل يشمله ويشمل غيره، «مما لا عين رأتْ، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر، على قلب بشر»، حسبما أخبر بذلك الصادق المصْدُوق عليه أزكى الصلاة وأزكى السلام، وفي طليعة ذلك كله: «رضوان الله» الذي هو غاية الغايات، عند أصفياء الله وأوليائه. قال تعالى (٩: ٧٢): ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ، وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ، ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

ومضى كتاب الله يعدد جملة من نعمه الظاهرة على عباده المخلَصين، فبعد أن وصف طعامهم من قبل، ها هو يصف

مجالس أُنْسِهم، ونوع شرابهم، وحلائل أزواجهم، حيث يقول: ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴾، أي: جالسون على سرر متقابلين، وذلك ليأنس بعضهم ببعض، ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ بَيْضَآءَ، لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ، لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾، أي: بكأس لا تحدث لهم مَغَصاً في البطن، ولا صداعاً في الرأس، ولا غيبوبة في العقل، وكلمة «الغَوْل» هي التي أُبدلت في اللسان الدارج غلطاً باسم «الكحول» تقليداً للنطق الأجنبي المحرف، ﴿ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴾، أي: عندهم زوجات عفيفات يغضضن أبصارهن، وهن حسان الأعين، ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾، أي: مصون.

ومن المشاهد المثيرة والمؤثرة التي سجلها كتاب الله في هذا السياق مشهد أحد نزلاء الجنة وهو يحكي لرفاقه بعض ذكرياته، ومنها محاولة أحد قُرَناء السوء لإغرائه بالكفر وإغوائه، وتشكيكه في أمر البعث والحساب، والثواب والعقاب، وعندما ينتهي من قصته يُبدي لرفاقه رغبته في البحث عن مصير هذا القرين وَمَقَره الأخير في الدار الآخرة، فإذا به يكتشف أن قرينه الذي كان يخادعه في الدنيا يوجد بين نزلاء جهنم، ويحمد الله على أن قرين السوء الذي كان يستدرجه للكفر لم يبلغ منه ما يريد، وإلّا لهلك مثلَه وكان له نفس المصير، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ، قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ أَ. نَّـكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ، أَ. ذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَـٰماً إِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾، أي: مَجزيُّون ومحاسَبون بعد

الموت، ﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴾ أي: قال لرفاقه: هل تشرفون من مكان عال، وتطلَّعون معي على المعذبين، لتروا بأعينكم معي هذا القرين، ﴿ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ الْجَحِيمِ ﴾، أي: رأى قرينه يَرْتَـعُ في بَحْبُوحة جهنم، فلما رآه على تلك الحال، ﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾، أي: قال وكأنّه يتحدث إلى ذلك القرين الشقي: إن كِدتَ لَتُهلكني، وأكد هذا القول بالقَسَم، ثم استحضر العناية الإلٰهية، التي حمته من الوقوع في فخ ذلك القرين والسقوط في الهاوية، فقال مُعترفاً بفضل الله عليه: ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾، أي: لكنت من الذين يساقون إلى جهنم سوق المجرمين.

وتعبيراً عما في ضمائر نزلاء الجنة المنعَّمين، وتمنيهم للحياة فيها حياة لا يذوقون بعدها الموت، نطق كتاب الله بلسان حالهم قائلاً: ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ، وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾، وعندما أدركوا أن ما تمنوه من حياة الخلود هو بفضل الله عليهم من باب تحصيل الحاصل، تيقنوا أن ما يَشغَل الناس في الدنيا ويلهيهم عن الله إنما هو ظل زائل، أما نعيم الآخرة فهو وحده النعيم المقيم، ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾، وليحُضُّوا غيرهم على الاهتداء بهديهم واللحاق بركبهم، قال تعالى على لسانهم: ﴿ لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَـٰمِلُونَ ﴾.

وحيث أن الأشياء إنما تعرف بأضدادها بادر كتاب الله إلى تصوير حالة الأشقياء المعذبين، الذين ظلموا ربهم، فأشركوا به غيره، ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣١: ١٣)، وظلموا عباده،

فاستعبدوهم وأضلوهم، وظلموا أنفسهم، فرفَضُوا دين الحق الذي لا يقبل اللَّهُ سواه، وافتتح كتاب الله هذا العرض بسؤال عجيب لا يجد له الأشقياء جواباً، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا ﴾، أي: أَنُزُل أصحاب الجنة ورزقهم خير، ﴿ أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴾، التي هي نُزُل أصحاب الجحيم، ﴿ إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ ﴾، أي: امتحاناً لهم واختباراً، ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ الْجَحِيمِ، طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَـٰطِينِ ﴾، أي: ثمرُها مكروه مستقبح، كما يكرَه الناسُ ويستقبحون صورةَ الشيطان، التي هي في خيالهم أشدُّ الصور تجسيماً للبشاعة والقبح. وكما اعتقد الناس في «المَلَك» أنه خير محض، فشبهوا به أحسن الصور وأجملها، اعتقدوا في «الشيطان» أنه شر محض، فشبهوا به أقبح الصور وأبشعها، ومن ذلك قوله تعالى على لسان صواحب يوسف في التشبيه بالمَلَك: ﴿ مَا هَـٰذَا بَشَراً، إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ (١٢: ٣١)، ثم قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا ﴾، أي: من شجرة الزقوم، ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ، ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِّنْ حَمِيمٍ ﴾، أي: شراباً من الماء الحار، مَشُوباً ببعض الأخلاط الرديئة، مما يزيدهم عذاباً على عذاب، وعقاباً على عقاب، ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴾، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى (٥٥: ٤٤)، ﴿ هَـٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ، يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾.

وتنبيهاً إلى عدل الله في عقابه للظالمين الذين ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم وظلموا ربهم، وتمسكوا بالتقليد الأعمى

للآباء والأجداد في ضلالهم، وأصروا على اتِّباع آثارهم وحمل أوزارهم، قال تعالى تعقيباً على ما سبق: ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴾، أي: وجدوهم على ضلال فاقتدوا بهم، ﴿ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾، أي: يسيرون عليها سيراً حثيثاً، ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ، وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾، استثناءً من قوله تعالى: ﴿ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴾، عقب قوله: ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ ﴾، أو استثناءً من قوله تعالى: ﴿ عَـٰقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾، عقب قوله (فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ). ويصح أن يكون الاستثناء منهما معاً، لأن «عباد الله المخلَصين» اهتدوا فلم يكونوا، ﴿ مِنَ الضَّآلِّينَ ﴾، وسبقت لهم الحُسْنى والبُشْرى فلم يكونوا، ﴿ مِنَ الْمُنْذَرِينَ ﴾.

وبعد ما أشار كتاب الله إلى المُنذِرين الذين أرسلهم الله لإنذار الضالين وهدايتهم، وإلى المنذَرين الذين أصروا على ضلالتهم، تصدى لذكر نماذج فريدة في نوعها مِن كلا الفريقين، مما فيه عبرة وذكرى لكافة المؤمنين، وترويح وتسلية لخاتم الأنبياء والمرسلين: وأول اسم تصدَّر في هذا المقام اسم «نُوحٍ» عليه السلام، فقال تعالى في شأنه: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ، فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾، أي: بعد أن يئس نوح من هداية قومه ولم يؤمن معه إلّا قليل، استغاث بنا واستنصر، ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَـٰفِرِينَ دَيَّاراً ﴾ (٧١: ٢٦)، واستجبنا دعاءه ونصرناه عليهم، ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾، أي:

نجيناه ومن آمن معه من الطوفان الذي سلطناه على الكافرين من قومه، ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾، لأن الكافرين من قومه بادوا مع ذرياتهم وماتوا غرقاً، فلم يبق منهم عين ولا أثر، وإنما بقي منهم مجرد العبرة والخبر، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى في آية أخرى (١١ : ٤٨): ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ، وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ اَلِيمٌ ﴾.

وتنويهاً برسالة نوح عليه السلام، وإبرازاً لمكانته الخاصة عند الله وعند الناس، قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي اِلَاخِرِينَ،سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَٰلَمِينَ ﴾، أي: أبقينا له ذكراً جميلاً على مر الزمان، وسخرنا للسلام عليه كل لسان، ثم قال تعالى مبيّناً استحقاقَ نوح ومن سار على هديه لحسن الجزاء، وكونَه أهلاً لكل تنويه وثناء: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي اِلْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا اَلْمُومِنِينَ ﴾، فالإيمان والإحسان هما الطريق الموصل إلى رضا الرحمان، ورضا الرحمان هو الوسيلة إلى زرع محبة الإنسان في قلب أخيه الإنسان، أما الذين وقفوا لنوح ورسالته بالمرصاد، فقد انتقم الله منهم شر انتقام، لأنهم طغوا في البلاد، وكانوا من شر العباد: ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا اَلاخَرِينَ ﴾، قال جار الله الزمخشري: «علَّلَ مجازاة نوح عليه السلام بتلك التَّكْرِمة السنية، من تبقية ذكره، وتسليم العالَمين عليه إلى آخر الدهر، بأنه كان محسناً، ثم علل كونه محسناً بأنه كان عبداً مؤمناً، ليُرِيَك جلالة محل الإيمان، وأنه القُصَارَى من صفات المدح والتعظيم، وليُرَغِّبك في تحصيله

والازدياد منه، فاللهمّ زدنا إيماناً وإحساناً، ولْنَتْلُ مرة أخرى تلاوة مجردة قوله تعالى في ختام هذا الربع: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَـٰلَمِينَ، إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُومِنِينَ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا الَاخَرِينَ﴾.

## الربع الأخير من الحزب الخامس والأربعين
## في المصحف الكريم

وَإِنَّ
مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ
قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ
تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾
فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ
فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا
بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾
وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى
ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾
وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾
فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ
أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَٰٓأَبَتِ
ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾

فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤
قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ
هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ١٠٧ وَتَرَكۡنَا
عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ١٠٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي
ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٠ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١١ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ
نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٢ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن
ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ١١٣ وَلَقَدۡ مَنَنَّا
عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١١٤ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ
ٱلۡعَظِيمِ ١١٥ وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٦ وَءَاتَيۡنَٰهُمَا
ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ١١٧ وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١١٨
وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ١١٩ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٠
إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٢١ إِنَّهُمَا مِنۡ
عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٢٢ وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٢٣
إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ١٢٤ أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ
أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٢٥ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٢٦
فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ١٢٧ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ١٢٨

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ ءَالِ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾
إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾
وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾
إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ
لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ
يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ
فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾
فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ
يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾

# الربع الأخير من الحزب الخامس والأربعين في المصحف الكريم

**عبـــاد الله**

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الخامس والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَآءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾، إلى قوله تعالى عن يونس: ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ اَلْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾.

بعدما أوجز كتاب الله الحديث عن نوح عليه السلام في الآيات الثمان الأخيرة من الربع الماضي واصل الحديث في بقية هذه السورة عن إبراهيم الخليل عليه السلام، ثم عن موسى وهارون، ثم عن إلياس، ثم عن لوط، ثم عن يونس، عليهم سلام الله جميعاً، لكن قصة إبراهيم أخذت من هذه السورة الحظ الأوفر بالنسبة إلى قصص الأنبياء الآخرين، فقد استغرقت وحدها إحدى وثلاثين آية، أي: مجموع الثمن الأول من هذا الربع بأكمله. والحديث عن إبراهيم الخليل في كتاب الله وارد في خمس وعشرين سورة من سور القرآن الكريم، من بينها سورة إبراهيم وسورة الأنبياء، وفي سورة الأنبياء السابقة استغرقت قصته ثلاثاً وعشرين آية.

يقول الله تعالى في بداية هذا الربع، عقب الانتهاء من قصة نوح مباشرة: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾، أي: أن إبراهيم كان في الدعوة إلى توحيد الله وطاعته، والتفاني في نشر دينه وإعلاء كلمته، على منهاج نوح وسنته.

وقولُه تعالى: ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾، معناه أن إبراهيم أقبل على ربه بكل قلبه، بحيث لا يشغله عنه شيء سواه، فقلبه خالٍ من الشرك، خالٍ من الشك، نقيٌّ جميع الآفات التي تعترى القلوب. وسبق في سورة الشعراء، في ختام مجموعة من الأدعية الإبراهيمية، التي كان يدعو بها إبراهيم ربه، دعاؤه الذي يقول فيه (٨٩): ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾، فتقبل الله دُعاءه، وحقق في الدنيا قبل الآخرة رجاءه.

وقولُه تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ، أَئِفْكاً ءَالِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾، إشارةٌ إلى ما قام به إبراهيم من دعوة أبيه وقومه إلى عبادة الله وتوحيده، بدلاً من عبادة الأصنام التي يزعمون أنها آلهة، مع أن هذا الزعم لا يعتمد على حجة، ولا يستند إلى برهان، وإنما هو مجردُ أفك وبهتان، وهذه الآية هنا على غرار قوله تعالى فيما سبق من سورة الأنعام (٧٤): ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً ءَالِهَةً، إِنِّي أَرَيٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾، والسؤال الوارد هنا في قوله: ﴿ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾؟ سؤال من إبراهيم، يتضمن الإنكار والاستنكار، لما عليه قومه من ضلال في العقائد والأفكار، وكلمة (الافك) تطلق على أسوأ أنواع

الكذب، وهو الكذب الذي لا يثبت،ويضطرب صاحبه، ولا يعني ذلك أن في الكذب ما هو أحسن أو مستحسن.

وقولُه تعالى على لسان إبراهيم وهو يخاطب قومه: ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ اِلْعَٰلَمِينَ ﴾؟ يؤدي معنيين بإثنين:

ـ المعنى الأول تذكيرهم بـأن الله «رَبَّ اِلْعَٰلَمِينَ»، هو وحده الذي يستحق العبادة من الناس أجمعين، لا هذه الأصنام التي يَسْخَر من عبادتها العقل والدين.

ـ والمعنى الثاني تحذيرهم من لقاء الله وهم به مشركون، والوقوفِ بين يديه وهم لغيره عابدون، إذ بأي وجه يلاقونه، وبأي لسان يخاطبونه.

وقولُه تعالى: ﴿ فَنظَرَ نَظْرَةً فِي اِلنُّجُومِ ﴾، إشارةٌ في منتهى الإيجاز إلى ما حكاه كتاب الله عن إبـراهيم في سورة الأنعـام بتفصيل، حيث قال تعالى (٧٥: ٧٩): ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيَ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ اَلسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضِ، وَلِيَكُون مِنَ اَلْمُوقِنِينَ، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اِلَيْلُ رَءَا كَوْكَباً قَالَ هَٰذَا رَبِّي، فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الَافِلِينَ، فَلَمَّا رَءَا اَلْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَٰذَا رَبِّي، فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ اَلْقَوْمِ اِلضَّآلِّينَ، فَلَمَّا رَءَا اَلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي، هَٰذَآ أَكْبَرُ، فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلذِي فَطَرَ اَلسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضَ حَنِيفاً، وَمَآ أَنَاْ مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ ﴾، فقد كان أبوه وقومُـه يعبدون الأصنام والكواكب، والشمس والقمر، فأراد أن ينبههم على الخطأ

في معتقـداتهم، وأن يرشـدهم إلى طريق النـظر والاستـدلال، ويُعرّفهم بأن النظر الصحيح لا يقبـل أن يكون شيءٌ من تلك المعبودات إلّهاً، ولا يتردد في الإيمان بأن وراء تلك الكواكب مُدبراً دَبَّر طلوعها وأفولها، وانتقالها ومسيرها، وسائر أحوالها.

وقولُه تعالى على لسان إبراهيم: ﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾، أَوْهَمَ به إبراهيمُ قومَه أنه أصيب بسَقَم ومرض، ولعلهم فهموا أن مرضه من أمراض الجسم المُعْدِية، ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾، أي: أدبروا عنه وترَكُوه وحيداً فريداً، فراراً مما تخيَّلُوه من العَدْوى، لكنّ إبراهيم لم يكن سقيماً بالمعنى الذي فهموه، وإنما كـان سقيماً بمعنى آخر، فهو يريد أن يعتزلهم ويختلي بنفسه، ليتمكن من تنفيذ مخططه في الهجوم على أصنامهم والتمثيل بها، وبذلك يزول سقمه، إذ أن الضمير الحي للمؤمن الحق لا يستريح إلّا بتغيير المنكر والقضاء عليه، ولا سيما إذا كان في درجة إبراهيم ومقـامه العـظيم الذي بلغ القِمَّـة، ﴿ اِنَّ إِبْـرَاهِيمَ كَـانَ أُمَّـةً ﴾ (١٦:١٢٠)، وإذن فقولُ إبراهيم: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ لا يندرج تحت معنى «الكذب»، وإنما هو من جملة «المعاريض» التي تستعمل لتحقيق مقصد شرعي مقبول، وثبت في الحديث الشريف: «إن في المعـاريض لَمَنْدُوحـة عن الكـذب»، ومـا ورد في بعض الأحاديث من إطلاق لفظ «الكذب» على مِثل هذا القول وغيره من مقالات إبراهيم المأثورة إنما هو مجرد «تجوز» في التعبير، وليس المراد به الكذب المنهيّ عنه شرعاً، والمستهجن طبعاً، فالأنبياء والرسل ـ وفي طليعتهم إبراهيم خليل الله ـ معصومون من جميع

النقائص، والكذب من أشنع النقائص وأبغضها إلى الله والناس.

ثم قال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ، مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾، هذا وصف موجز لما قام به إبراهيم في غيبة قومه، بعد أن خلا بنفسه وبقي وحده في معبدهم، فقد وجَد أمام الأصنام التي يزعمون أنها آلهة طعاماً أحضروه خصيصاً للمعبد، تقرّباً إلى الأصنام، وتبركاً بها، فلم يسَعْه إلّا أن يخاطب الأصنام التي هي جماد مُخاطبةَ العقلاء، إمعاناً منه في السخرية بها والاستهزاء، وذلك قوله مخاطِباً لإصنامهم: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ، مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾؟ وفي هذه الخلوة الفريدة من نوعها سنحَت له الفرصة التي كان ينتظرها ليتحدى ضلال قومه، ويكشف سفاهة رأيهم وسخافة معتقداتهم، فانهال بيمينه على أصنامهم يضربها ويحطمها، حتى تناثرت أشلاؤها بالهدم والتدمير، ولم يترك منها -لحكمةستظهر من بعد- إلّا الصنم الكبير، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في نفس السياق: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِالْيَمِينِ﴾، وإنما خص الضرب ﴿بِالْيَمِينِ﴾ لأنها أقوى والضرب بها أشد، وسبق قوله تعالى في سورة الأنبياء (٥٨): ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ، فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً﴾، أي: فتاتاً، ﴿إِلَّا كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾، ومعنى «راغ» مال سراً وذهب في خفية، والمصدر رَوْغ ورَوَغان كما يقال: «روغان الثعلب».

ثم قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ، قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾، هذا بيان لما أصاب قوم إبراهيم من هول المفاجأة،

إذ بمجرد ما بلغتهم أصداء ذلك الحَدَث الخطير هبّوا مسرعين إلى معبدهم للدفاع عن أصنامهم، ولما واجهوا هذا العمل بالاستنكار واجههم إبراهيم بالحق الصراح الذي ليس عليه غبار، فأخذ يسأل ويتساءل هل من المعقول أن يعبد الإنسان الصنم الذي ينحَته بيده من الحجر، ولا يعبد الله الذي خلق البشر، وخلق ما يعمله كل من صَنَّع ومَهر، واخترع وابتكر، إذ لولا المواهب والملكات التي وهبها الله للإنسان، والمواد الخام التي سخّرها له، لما كان أيٌّ شيء من ذلك في حيز الإمكان: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، وروى البخاري في صحيحه من حديث حذيفة مرفوعاً: «إن الله تعالى يصنع كل صانع وصنعته».

وأجملَ كتاب الله في هذه السورة ما قام به قوم إبراهيم من «تحقيق» في هذه الحادثة التي أثارت غضبهم، وهيجت تعصبهم، وما آل إليه «التحقيق» من محاكمة علنِيّة أصدروا الحكم في إثرها بإعدام إبراهيم حرقاً، بدلاً من إعدامه شنقاً، مبالغةً في العقاب والتعذيب، لكي لا يتجرأ أحد بعده على سلوك مسلكه الشاذ والغريب، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿قَالُواْ ابْنُواْ لَهُ بُنْيَـٰناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾، أي: في النار الموقدة، لكن الله تعالى لم يحقق حُلْمهم، ونقض حكمهم: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَـٰهُمُ الأَسْفَلِينَ﴾، وسبق في سورة الأنبياء عرض هذا الجانب وغيره من قصة إبراهيم بتفصيل أكثر، ابتداءً من الآية الواحدة والخمسين حيث قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ، وَكُنَّا بِهِ عَـٰلِمِينَ﴾، إلى قوله تعالى في نفس السياق: ﴿قَالُواْ

حَرِّقُوهُ وَانصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ. قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَـٰماً عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ، وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَـٰهُمُ الأَخْسَرِينَ ﴾.

وبعد أن نصر الله خليله إبراهيم على قومه بأعظم أنواع النصرة، ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا ﴾ (٩ : ٤٠)، فكر إبراهيم عليه السلام في اعتزال قومه والهجرة من ديارهم، ليأسه من صلاح حالهم، فتوكل على الله، ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾، أي: ذاهب إلى مكان آمن أتمكن فيه من عبادة الله، وموطن صالح للدعوة أواصل فيه الدعوة إلى توحيد الله، ابتغاء مرضاة الله، قال القرطبي: «هذه الآية أصل في الهجرة والعزلة، وأول من فعل ذلك إبراهيم عليه السلام»، ولثقة إبراهيم بهداية الله إياه، في الحَلِّ والترحال، وتوفيق خطواته في الحال والمآل، عقَّب على ذلك بقوله: ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾، إيماناً منه بأن هداية الله له حاصلة لا محالة، واقتداء بهذه المقالة التي قالها إبراهيم عليه السلام قال موسى عليه السلام أيضاً: ﴿ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَنْ يَّهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (٢٨ : ٢٢)، وقال: «إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (٢٦ : ٦٢).

وليطمئن إبراهيم على انتشار دعوته واستمرارها تمنى على الله أن يرزقه خَلَفاً صالحاً يحمل الدعوة من ذريته، فالتجأ إلى الله يقول: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾، ولفظ «الهبة» يستعمله القرآن في الولد والأخ، لكن يغلب استعماله في الولد، كما ورد في هذه الآية، ومن استعماله في الأخ قوله تعالى (١٩ : ٥٣): ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيّاً ﴾.

وتعليقاً على دعاء إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾، قال فخر الدين الرازي: «أعلم أن الصلاح أفضل الصفات، بدليل أن الخليل عليه السلام طلب الصلاح لنفسه فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّـٰلِحِينَ﴾ (٢٦ : ٨٣)، وطلبه للولد فقال: ﴿هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾، وطلب سليمان الصلاح بعد كَمال درجته في الدين والدنيا فقال: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ (٢٧ : ١٩)، وذلك يدل على أن الصلاح أشرف مقامات العباد».

وكم كانت البشرى باستجابة دعاء إبراهيم سريعة معجَّلة، فضلاً من الله وكرماً، حيث قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ﴾، وكلمة ﴿غُلَـٰمٍ﴾، تفيد أن المولود المتمنى على الله سيكون ذكراً، وأنه سيتجاوز مرحلة الطفولة ويبلغ الحُلُم، وكلمة ﴿حَلِيمٍ﴾، تدل على أنه سيلقى من الابتلاء ما يحتاج إلى الحِلْم في تحمله، وبذلك يكون حليماً مثل أبيه، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾، (١١ : ٧٥) والوصف «بالحِلْم» يشعر بأن الغلام المبشَّر به في هذا المقام هو إسماعيل لا إسحاق، لأن الوصف بالحلم أنسبُ به أكثرَ من أخيه، وأيّ حِلْم أعظم من حِلْمه حين عَرض عليه أبوه الذبح فقال: ﴿سَتَجِدُنِيَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾.

ومن الحديث عن تبشير الله لإبراهيم ﴿بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ﴾، انتقل كتاب الله فجأة إلى عرض الملحمة الكبرى التي ابتلى الله فيها هذا الغلام، ووالده «الإمام» فكانت مناسبة لامتحان مبلغ ما

عند الوالد والولد من «حِلْم» عظيم، وفرصَة لإبراز مالهما عند الله من مقام كريم، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَـٰبُنَيَّ إِنِّيَ أَرىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّيَ أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا ترىٰ؟ قَالَ يَـٰأَبَتِ افْعَلْ مَا تُومَرُ، سَتَجِدُنِي إِن شَآءَ اَللَّهُ مِنَ اَلصَّـٰبِرِينَ، فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَنْ يَّـٰإِبْرٰهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَآ، إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ اَلْبَلَـٰؤُ الْمُبِينُ، وَفَـدَيْنَـٰهُ بِذِبْـحٍ عَظِيمٍ ﴾.

ذلـك أن إبراهيم وإبنـه لما علمـا أن رؤيـا الأنبيـاء من وحي الله، واستسلما لقضاء الله، الأول «إبراهيم» في قُرَّة عينه، والثاني «إسماعيل» في نفسه، وتهيئا للعمل، ذاك بصورة الذابح، وهذا بصورة المذبوح، وكان ما كان من أمر إبراهيم امتثالاً، ومن إسماعيل انقياداً، أكرم الله إبراهيم وابنه ﴿ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾، وإنما كان «عظيماً» لأنه فداء لولد إبراهيم العظيم، وما أدراك ما إبراهيم وآل إبراهيم، ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَـاماً ﴾ (٢ : ١٢٤)، الآية، وبذلـك رفع الحق سبحـانه وتعـالى عن إبراهيم وولـده «الذبيح» مِحْنةً مِزدوجة تَعُمُّ الوالد والولد، ولا محنة أصعب منها ولا أشد، ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ اَلْبَلَـٰؤُ الْمُبِينُ ﴾، ولو تمت تلك الذبيحة لكانت «سنّة»، ولذبح أَتْبـاعُ إبراهيم أبنـاءهم، لكن الله سلم، فشُرِعت الأضحية في الإسلام، رمزاً إليها وتذكيراً بها، وشكراً لله على نعمة الحياة التي أكرمنا بها، ودعانا إلى الحفاظ عليهـا، وأمر الله رسوله «بيوم الأضحى، فجعله عيداً لهذه الأمة» كما ورد ذلك في حديث شريف صححه ابن حبان.

وكما ختَمَ كتابُ الله قصة نوح في الربع الماضي بالتنويه به والثناء عليه إذ قال: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ، سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَـٰلَمِينَ. إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُومِنِينَ﴾، ختم قصة إبراهيم في هذا الربع أيضاً بمثل ذلك، فقال: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ، سَلَـٰمٌ عَلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ، كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُومِنِينَ﴾.

وقبل أن ينتقل كتاب الله إلى الحديث عن قصة موسى وهارون أخبرَ بالبشرى الثانية التي بشر الله بها إبراهيم وهي ولادة إسحاق الذي يَصغُر عن أخيه إسماعيل ببضع عشرة سنة، وأثنى عليه وعلى والده والمحسنين من ذريتهما، فقال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيئاً مِّنَ الصَّـٰلِحِينَ، وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَـٰقَ، وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُّبِينٌ﴾، ومما يلاحظ في هذا الصدد أن البشارة بإسحاق التي وردت في سورة الحِجْر (الآية: ٥٣)، تضمنت وصفه «بِالْغُلَـٰمِ العَلِيمِ»، ﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلِ اِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ﴾، بينما البشارة هنا بأخيه إسماعيل فظلت وصفه «بِالْغُلَـٰمِ الحَلِيمِ»، ﴿فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ﴾، وتأكيداً لحلم إسماعيل وصبره قال تعالى: ﴿وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ، كُلٌّ مِّنَ الصَّـٰبِرِينَ﴾ (٢١ : ٨٥).

وتنويهاً بقدر إسماعيل، على غرار أخيه إسحاق، قال تعالى (١٩ : ٥٤، ٥٥): ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيئاً،وَكَانَ يَامُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ، وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً﴾، وفي حقه وحق أخيه قال تعالى على لسان أبيهما

إبراهيم، حمداً لله وشكراً: ﴿ اَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى اَلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ ﴾ (١٤ : ٣٩).

وكما أجمل كتاب الله في الربع الماضي قصة نوح عليه السلام، أجمل في هذا الربع قصة موسى وهارون، وقصة إلياس، وقصة لوط، وقصة يونس:

فعن موسى وهارون عليهما السلام قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ اَلْكَرْبِ اِلْعَظِيمِ ﴾، أي: من الرق الذي خلَّص منه قومه أولاً، ومن الغرق، الذي لحق فرعون وجنوده وحدهم أخيراً، ﴿ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُواْ هُمُ اُلْغَـٰلِبِينَ، وَءَاتَيْنَـٰهُمَا اَلْكِتَـٰبَ اَلْمُسْتَبِينَ ﴾، ثم ختم كتاب الله قصتهما بنفس الأسلوب الذي ختم به قصة نوح وإبراهيم فقال تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي اِلَاخِرِينَ، سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ، إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي اِلْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا اَلْمُومِنِينَ ﴾.

وعن إلياس عليه السلام قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ اَلْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ، أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ اَلْخَـٰلِقِينَ ﴾، أي: أتدعون صنماً اتخذتموه رباً، وتتركون أحسن من يقال له «خالق»، ﴿ اَللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ اُلاَوَّلِينَ فَكَذَّبُوهُ، فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾، أي: لمسوقون إلى جهنم سَوْقاً، ﴿ إِلَّا عِبَادَ اَللَّهِ اِلْمُخْلَصِينَ ﴾، وسلك كتاب الله في ختام قصة إلياس نفس النمط الذي ختم به قِصص نوح وإبراهيم وموسى

وهارون فقال تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ، سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ ءَالِ يَاسِينَ، إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾، وفي قراءة أخرى سلام على إِلْيَاسين كما يقال في إسماعيل إسماعين.

وفي الآيات الأخيرة من هذا الربع ذكَّر كتابُ الله بقصة لوط وقصة يونس:

فعن لوط عليه السلام قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لُوطاً لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَٰبِرِينَ ﴾، وهي امرأته التي كانت موالية لقومها ممالئة لهم على الضلال، طبقاً لقوله تعالى في آية أخرى (١٥: ٦٠): ﴿ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ الْغَٰبِرِينَ ﴾، أي: الهالكين غير النَّاجين، ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴾، أي: بالرجم بحجارة من سجيل، ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِالَّيْلِ ﴾، أي: تمرون على أرضهم في أسفاركم ليلاً ونهاراً، ومع ذلك لا تعتبرون، ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

وعن يونس عليه السلام قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ، فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾، ذلك أنه فارق قومه متستراً لينجو بنفسه دونهم، فلم يجد إلَّا سفينة مثقلة بالركاب والتحق بها، وسرعان ما أصبحت مهددة بالغرق، «فأقرع» الركاب فيما بينهم ليخففوا من أثقالها، وإذا به يفاجأ بأن يكون نصيبه هو أن يُلقَى في البحر، تنفيذاً لنتيجة «القرعة» التي أجراها ركاب السفينة، ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾، أي: هو داخل في الملامة، لأنه أتى بما يلام

عليه، حيث أنه فارق قومه دون إذن من مولاه، ناسياً أن رقبته ملك خالص لله، قال الترمذي الحكيم: «سماه (آبقاً ومليماً) لأنه أبق عن عبودية الله، ولم يُصب عين الصواب الذي عند الله» ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾، أي: الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح والتقديس، ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ﴾، أي: في بطن الحوت، عقاباً له، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

# الربع الأول من الحزب السادس والأربعين في المصحف الكريم

فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا
عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ
يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ
أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا
وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ
وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾
مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ
مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟
بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾
سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾
فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ
هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا

لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟
لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ
ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ
سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾
وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ
فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ
بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾
وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا
يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾
كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟
أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾
أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ
مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾
مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ

عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا
يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ
الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا
فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾
كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾
وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾
إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا
صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا
قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا
دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ
يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ
أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾

# الربع الأول من الحزب السادس والأربعين في المصحف الكريم

**عبـــاد الله**

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الأول من الحزب السادس والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة الصّافات المكية: ﴿فَنَبَذْنَـٰهُ بِالْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾، إلى قوله تعالى في سورة صٓ المكية أيضاً: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ اَلْخِطَابِ﴾.

والآيات الأولى من هذا الربع هي تتميم لما سبقها في شأن يونس وقومه، ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ اَلْمُرْسَلِينَ﴾، الآيات، ذلك أن يونس عليه السلام بعد أن قضى وقتاً طويلاً في تسفيه معتقدات الشرك والوثنية بين قومه، ولم يصل معهم إلى نتيجة حاسمة، ضاق صدره، ونَفَد صبره، إذ لم يكن مندرجاً بين «أولي العزم» من الرسل، الذين لا يضيق صدرهم، ولا ينفَدُ صبرهم، فغضب على قومه، وقرر الرحيل عنهم والفرار منهم، بعد أن أنذرهم بالعذاب الإلٓهي الشديد، لكنه لم يبن قراره بالرحيل عنهم على وحي إلٓهي صريح، وإنما بناه على مجرد اجتهاد شخصي، وكان الأولى به ـ كما ظهر فيما بعد ـ أن لا يضيق صدره، ولا ينفد

صبره، وأن ينتظر حكم الله بينه وبين قومه، وذهب يونس يضرب في الأرض، فراراً من قومه، حتى انتهى به المطاف إلى شاطىء البحر، فوجد جماعة يَعبُرونه، وركب معهم سفينة مشحونة بالأثقال، غير أنه ما كادت سفينتهم المشحونة تمخُر عباب البحر حتى هاجت عليها الأعاصير، وتلاطمت فوقها الأمواج، ولم يجدوا وسيلة للخلاص من الغرق إلّا بالتخفيف من حُمُولتها، فأقرعوا بين ركابها، ووقعت القرعة على يونس، ثم أعيدت القرعة عدة مرات، لكن نتيجتها كانت مثل المرة الأولى، وضَنَّ الركاب به أن يلقوه في البحر، احتراماً لمظهره المهيب، لكن يونس أدرك بنور إيمانه أن الله سراً وأيَّ سر في «القرعة» التي خرج سهمها فيه، وفيما كتبه الله عليه، فألقى بنفسه في البحر راضياً مطمئناً، مستسلماً لإرادة الله وحكمه الحكيم، فالتقمه الحوت لطفاً من الله، حتى لا يموت غريقاً، وأخذ الحوت يتقلب به في أعماق البحر وهو في بطنه، دون أن يقتطع منه لحماً، أو يكسر له عظماً، وكانت فرصة سانحة ليونس يدرك بها سر الله في البحر وقدرتَه الباهرة، كما أدرك سر الله وقدرته في البرّ، وأحس يونس أن فيمَا كتبه الله عليه نوعاً من التأديب الإلٓهي على ما أقدم عليه من مفارقة قومه، والتوقف عن مواصلة رسالته بينهم، دون إذن سماوي صريح، فما وسعه ـ وهو في بطن الحوت لا يستطيع أن يفلت من قبضة الله ـ إلّا الالتجاء إلى الله بالتضرع والدعاء والندَم على ظلمه لنفسه، والتعلق بواسع عفو الله وخفي لطفه، فاستجاب الله دعاءه، بعد أن نال ما قدره له من جزاء، وألقاه الحوت بأمر الله في أرض عَراء، لا نبات بها ولا بناء، وأذن الله بإنبات شجرة عليه تظله بورقها،

وتطعمه من ثمرها، وما كاد يستعيد عافيته ويزول عنه السقم، حتى بادر للعودة إلى قومه مسرعاً، واستأنف الرسالة السامية التي ألقاها الله على عاتقه، وكم كان سروره عظيماً، وابتهاجه بالغاً، عندما وجد أن الله قد حقق أمنيته، وأن قومه قد شرح الله صدورهم للإيمان، وهجروا الأصنام والأوثان، بمجرد ما شاهدوا نُذُر العذاب الذي كان أنذرهم به، فعرفوا صدقه وآمنوا برسالته، وذلك قوله تعالى في سورة الصافات التي نواصل تفسيرها: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ، فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ، فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ، فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ، وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ، وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ، فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾، ويزيد هذه الآيات تفسيراً وتوضيحاً قولُه تعالى في سورة الأنبياء (٨٧): ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ، فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وقولُه تعالى في سورة (يونس) إحدى سور القرآن المسماة باسمه (٩٨): ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ، إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

ويظهر من السياق أن الحكمة المقصودة من الإتيان بقصة يونس كخاتمة لِقصص الأنبياء والرسل، منذ عهد نوح عليه السلام، في هذه السورة المكية، هي ضرب المَثَل لخاتم الأنبياء والمرسلين، بمن سبقه من «أولى العزم» الأولين، وتحذيره من

التهاون في أداء الرسالة الملقاة على عاتقه، إذ لا يُعفيه منها شيء، وَلَا يبرر التخلي عنها أي أذى يلحقه من قِبَل المشركين، مهما كان أذاهم بالغاً، بل تجب عليه المثابرة ويلزمه الصبر، إلى أن يتحقق النصر، ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ (٨: ١٠) كما تتضمن هذه القِصَّة تنبيهاً صريحاً للرسول عليه السلام، حتى لا يسلك مسلك أخيه يونس، عندما فارق قومه مغاضباً لهم، ساخطاً عليهم، فاضطرته الأقدار للعودة إليهم من جديد، إذْ لا بُدَّ لَهُ من تحقيق مراد الله، وتبليغ رسالته، ولو كره المشركون.

وبهذا التوجيه الوجيه يظهر مغزى ما جاء بعد ذلك في هذا الربع نفسه من الآيات البينات، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى تثبيتاً لرسوله على الحق، والدعوة إليه دون انقطاع ولا فتور (١٧١ : ١٧٢): ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾، وما دام الحق سبحانه وتعالى قد وعد رُسُله بنصره، وعلى رأسهم خاتم الرسل والأنبياء، ووعد جنده بالغلبة، فلا مناص من المثابرة والمصابرة، ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾، ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ﴾ (٤٠ : ٥٥)، ﴿لَا يُخلِفُ الله وعده﴾ (٣٠: ٦).

أما بقية الآيات من سورة الصافات في هذه الحصة فهي وصف كاشف للمُعتقدات الوثنِيّة الباطلة، التي كان عليها مشركو الجاهلية، ومِن قَبلهمْ كافةُ المشركين في العالم، وإتيان القرآن بها يُقصد منه إبراز ما بين الشرك والتوحيد من البون الشاسع، وما بين المشركين والموحدين من تفاوت بالغ في درجة التفكير ومستوى

العقل، ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾، ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ، إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾، ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

والآن فلنشرع على بركة الله في تفسير سورة (ص) المكية أيضاً:

لقد ركزت الآيات الأولى من هذه السورة اهتمامها، في إلقاء الأضواء على خصوم الرسالة المحمدية، وكشفت الستار عن السبب الدفين والوحيد في خصومتهم وعنادهم، فهم من جهة أُلَى اهلُ ﴿ عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾، وهم من جهة ثانية مقيدون بسلاسل التقليد الأعمى لا يستطيعون عنه حِولاً، وذلك قوله تعالى فيما يتصل بالنقطة الأولى: ﴿ صٓ. وَٱلْقُرْءَانِ ذِي ٱلذِّكْرِ، بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ شِقَاقٍ ﴾، «والعزة» هنا بمعنى الاستكبار والحَمِيّة، و«الشقاق» بمعنى التعصب والعناد، ثم قوله تعالى فيما يتعلق بالنقطة الثانية: ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ، وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ، أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَـٰهاً وَاحِداً، إِنَّ هَـٰذَا، لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾.

على أن قادة الشرك وزعماء الوثنية لم يكتفوا بما هم عليه في ذات أنفسهم من كِبْر وعناد، وتقليد للآباء والأجداد، بل رَاحُوا ينظمون الحملات تلو الحملات، لحمل عامة المشركين على التمسك بالوثنية وتشكيكهم في دعوة التوحيد، مدعين زوراً وبهتاناً إن المِلَلَ السابقة على الإسلام لا تؤيد رسالة خاتم الأنبياء عليه السلام، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ وَانطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ

امْشُواْ وَاصْبِرُواْ عَلَىٰ ءَالِهَتِكُمْ، إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ، مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ، إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا اخْتِلَـٰقٌ. أَ.نزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾، ثم أبطل كتاب الله ما أَدْلَوْا به من شُبَه وأباطيل، مشيراً إلى أن الحق سبحانه وتعالى هو وحده الذي يعلم حيث يجعل رسالاته، ويَهَبُ من خزائنه الواسعة ما يريد لمن يريد، فقال تعالى: ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ، أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، فَلْيَرْتَقُواْ فِي الْأَسْبَـٰبِ، جُندٌ مَّا هُنَالِكَ، مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴾.

وأخيراً تولت الآيات الكريمة الإشارة إلى ما قام به من العناد والتكذيب قَبْل مشركي قريش قومُ نوح وعادٌ وثمودُ وقومُ لوط وأصحابُ الأيكة، أي: الغابة الملتفة ـ وفرعونُ «ذُو الْأَوْتَـادِ»، إشارةً إلى الأهرامات الشامخة البناء، التي نصبها الفراعنة، فكانت كالأوتاد الممدودة نحو السماء، وذلك قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُـوطٍ وَأَصْحَـٰبُ لْيْكَةِ، أُوْلَـٰٓئِكَ الْأَحْزَابُ، إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾.

وانتهى هذا الربع بالحديث عن داود عليه السلام، وما آتاه الله من القوة، ومنحه من تسخير الجبال والطير، وجاء ختامه بهذا التنويه الإلّهي الكريم: ﴿ وَشَـدَدْنَا مُلْكَـهُ وَءَاتَيْنَـٰهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾.

# الربع الثاني من الحزب السادس والأربعين في المصحف الكريم

وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟
عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا
عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ
ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ
وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ
ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ
لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا
وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ ۩ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾
يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ
ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ
عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ

وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ
ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ
أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ
وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ
أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ
أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا
عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا
عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا
لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ
تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾
وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ
أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾
وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ
وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا
لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾
وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ

ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي
ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمۡ
عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ
وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ
عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ
كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ﴿٥١﴾

# الربع الثاني من الحزب السادس والأربعين في المصحف الكريم

## عبـــاد الله

موضوع حديث اليوم هو الربع الثاني من الحزب السادس والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾.

ترتبط الآيات الأولى من هذا الربع بما سبقها في نهاية الربع الماضي، والحديث فيها جميعاً يدور حول داود عليه السلام، غير أن القِسْم السابق منها كان تنويهاً بما أكرم الله به حَمَلة الرسالة، ومن بينهم داود عليه السلام، من تأييد وتسخير، ونفوذ روحي لا يقف عند حد، إذ يتجاوز دائرة الإنسان، ويمتد إلى الجماد والحيوان، ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ، وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾، كما كان تنويهاً بما أكرم الله به رسله ـ وداود منهم وإليهم ـ من نصر مؤزر، وفتح مبين، وسلطة رحيمة وحكيمة، يستعملونها لخير الإنسانية جمعاء، ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاتَيْنَٰهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾.

ومغزى هذا الجزء ومعناه الذي يدل عليه السياق هو أن العزيز الوهاب الذي أكرم نبيه داود، وأنعم عليه بالحكمة والسلطان، وتسخير الإنسان والجماد والحيوان، لن يَكِل رسوله محمّداً إلى نفسه، ولن يتركه عُرْضة لأذى المشركين وسيطرتهم، بل إنه سينصره عليهم، وسيُظهِر دينه على أباطيلهم، وسيجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، ودولته أكبر دولة عرفها العالم، فلا ينْبغي له أن يبتئس أو ييأس، وهو في غمرة الكفاح مع الشرك والمشركين، ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٧: ١٢٨).

أما القِسْم الأخير من نفس الآيات في نفس الموضوع، وهو ما جاء في بداية هذا الربع الذي نحن بصدد تفسيره، فهو تقرير «ضِمْنِي» لأن الله تعالى عندما يَكِل إلى رسله سلطة الحُكم بين الناس، والخلافةَ عنه فيهم، لن يتركهم حياري يتخبطون في مشاكل الخلق ونزاعاتهم، دون مَدد ولا سَند، بل إنه سبحانه يُمِدُّهم برعايته وعنايته، وتوفيقه وتوجيهه، باستمرار، ولا يقرّهم في أيّ شأن من الشؤون على الخطأ، إذا اجتهدوا وتعرضوا للخطأ من غير قصد، وكما أمد الحق سبحانه وتعالى داود عليه السلام برعايته وتوجيهه، عندما أولاه مقاليد الحكم، فسيُمِد رسوله محمّداً عليه السلام بنفس المدد، عندما يحين الوقت لذلك، وينصُر رسولَه، ويُظهر دينه، ويقيم دولة الإسلام الكبرى، الخالدة إلى يوم الدين.

وعلى ضوء هذا المعنى نفهم قولَه تعالى مخاطِباً لخاتم الأنبياء والمرسلين: ﴿ وَهَلَ آتيٰكَ نَبَؤُاْ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ

الْمِحْرَابَ، إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ، قَالُواْ لَا تَخَفْ، خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ، فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ، وَاهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ الصِّرَاطِ﴾، ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ، فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ﴾، وقوله تعالى في نفس السياق، مذكِّراً بالخطاب الإلّهي الذي وجهه إلى داود: ﴿يَـٰدَاوُودَ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ، وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وفهمُ القرآن على هذا النحو وشبهه من الإيحاء والتوجيه والإرشاد، وتحليلُ آياته في إطار الجو الذي نزلت فيه، هو ما يدعو إليه كتاب الله نفسُه في هذا السياق، ﴿كِتَـٰبٌ أَنْزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ، لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَـٰتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ الْأَلْبَـٰبِ﴾.

أما قصة الخصمين اللذين احتكما إلى داود عليه السلام، بالتفاصيل التي يذكرها بعض المفسرين، مما لم يرد في كتاب الله، فقد قال عنها الحافظ ابن كثير في تفسيره: «أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روي ابن أبي حاتم ها هنا حديثاً لا يصح سنده، لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه، ويزيد،وإن كان من الصالحين، لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى أن يُقتصَر على مجرد تلاوة القصة، وأن يُرَدَّ علمُها إلى الله عزَّ وجلَّ، فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضاً».

والآن فلنقرأ ما حكاه كتاب الله بإيجاز وإجمال عن مضمون الدعوى، ولْنَسمع كيف عرض المدعِي دعواه على داود عليه

السلام، ولْنُسَجِّل ماذا حكم به داود لصالح المدعِي، إذ سلم له المدعَى عليه ولم يطعن في دعواه: ﴿إِنَّ هَـٰذَآ أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً، وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ، فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾، أي: اجعلها في كفالتي وملكي، ﴿وَعَزَّنِي فِي اِلْخِطَابِ﴾، أي: أغلظ عليّ في القول، ﴿قَالَ﴾، أي: داود، ﴿لَقَد ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ، وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ اَلْخُلَطَآءِ﴾، أي: من الأقرباء والشركاء، ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، أي: يظلم بعضهم بعضاً، ﴿إِلَّا اَلذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ اُلصَّـٰلِحَـٰتِ، وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ، وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ﴾، أي: اختبرناه وامتحنّاه، ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿يَـٰدَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَـةً فِي اِلْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ اَلنَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ اِلْهَوَىٰ﴾، علق عليه ابن كثير في تفسيره فقال: «هذه وصية من الله عزَّ وجلَّ لولاة الأمور، أَنْ يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى، وأن لا يَعدلوا عنه فيضلوا عن سبيله» وذكر (ابن العربي) المعافري في معنى قوله تعالى: ﴿خَلِيفَةً﴾، أن معنى «الخلافة» لغة هو قيام الشيء مقام الشيء، وبين أن الله قد جعل الخلافة لخلقه **على العموم**، كما في قوله عليه السلام: «إن الله مستخلفكم فيها ـ أي في الدنيا ـ فناظرٌ كيف تعملون»، وجعلها **على الخصوص**، كما في قوله تعالى هنا: ﴿يَـٰدَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِي اِلْأَرْضِ﴾، وذكَر أن «الخلفاء» على أقسام: أولهم الإمام الأعظم، وآخرهم العَبْد في مال سيده، واستشهد على ذلك بقوله ﷺ: «كلكم راع

وكلكم مسؤول عن رعيته، والعبد راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته».

وها هنا لطيفة لا ينبغي إغفالها، ألا وهي أن لفظ «المُلْك» لا يناقض لفظ «الخلافة»، وأن من الممكن أن يجتمعا في محل واحد، كما هو الشأن هنا، إذ وقع إطلاقهما معاً في كتاب الله على داود عليه السلام، فهو في آن واحد «مِلك» بدليل قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾، و«خليفة» بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً﴾، والعبرة في استعمالهما وتواردهما على محل واحد: إنما هي بالتزام حدود الله، والاهتداء بهَدْي الوحي المنزل من عند الله، وبناءً على ذلك يكون الخليفة «مِلكاً» ويكون الملك «خليفة».

ثم تناولت الأيات بالذكر شيئاً من حياة سليمان بن داود عليهما السلام وسيرته، وما آتاه الله من نفوذ وتسخير، وما تعرض له إلى جانب ذلك من الامتحان، وناله من الرضى والغفران، وذلك قولُه تعالى تنويهاً بسليمان: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَـٰنَ، نِعْمَ اَلْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، وقولُه تعالى حكايةً لدعاء سليمان: ﴿قَالَ رَبِّ اِغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيَ، إِنَّكَ أَنْتَ اَلْوَهَّابَ﴾، وقولُه تعالى تعريفاً بمكانة سليمان: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

وفي نفس السياق ذكر كتاب الله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ﴿أُوْلِي اِلْاَيْدِي وَاَلْاَبْصَـٰرِ﴾، وإسماعيل واليَسَع وذَا الكِفْل، وكلهم من ﴿اَلْمُصْطَفَيْنَ اَلْاَخْيَارِ﴾، وذكَر كتابُ الله في هذا

المقام قصةَ خاصة - مواساةً لنبيه حتى يصبِر على أذى مشركي قريش - قصة أيوب عليه السلام، الذي يُضرب به المثل في الصبر والرضى، ونوه به قائلاً: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِراً، نِّعْمَ اَلْعَبْدُ، إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾.

وانتهى هذا الربع بالحديث عما أعدّه الله للمتقين من الجزاء الحسن والنعيم المقيم، ﴿ هَـٰذَا ذِكْرٌ، وإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَئَابٍ، جَنَّـٰتِ عَدْنٍ، مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الاَبْوَٰبُ، مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا، يَدْعُونَ فِيهَـا بِفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾.

# الربع الثالث من الحزب السادس والأربعين في المصحف الكريم

وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا
تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا
وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾
هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾
هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾
قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾
قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟
مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا
أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾
قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ
عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾

إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ
بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾
فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ
أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ
وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ
لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ
فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ
لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾
قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾
إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ
ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ
ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا

لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا
لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ
وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلّٞ
يَجْرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾
خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ
لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٖ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ
أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقٗا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ
ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ
عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ
وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾

# الربع الثالث من الحزب السادس والأربعين في المصحف الكريم

## عبـــاد الله

حديثنا في هـذا اليوم يتنـاول الربـع الثالث من الحـزب السادس والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة (صٓ) المكية: ﴿ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴾، إلى قوله تعالى في سورة الزُّمَر المكية أيضاً: ﴿ إِنَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾.

لا يزال كتاب الله يواصل وصفه «المعجز» لِما أعده الله في دار البقـاء، من نعيم يسعد بـه «المتقون»، وعـذاب يشقى به «الطَّاغون». ومما يستلفت النظر هنا ما أبرزه الاستعمال القرآني في هـذا السياق بـالخصـوص، من المقـابلة بين ﴿ الْمُتَّقِينَ ﴾ و﴿ الـطَّـٰغِينَ ﴾، حيث قـال تعـالى: ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾، ثم قال بعد ذلك: ﴿ هَـٰذَا وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾، إذ من شأن «المتقى» أن يكون مُلَازِماً للاحتياط والحذر، واقفاً عند حدود الله، بينما غير المتقى من شأنه أن يكون متجرِئاً على الله، منتهكاً حُرُماتِه، لا يقف أيُّ شيء دون انطلاق أهوائـه وطغيان شهواته، فَهُو لا يعرف الحدود والقيود، ولا يحسُب لهـا أدنى حِساب، وبهذه المقـابلة بين التقوى والـطغيان، التي جـاء بها

القرآن، نستطيع أن نفهم روح التقوى، ونميز مَلامح المتقين.

ومن المناسب في هذا المقام عقد مقارنة ولو على وجه الإجمال بين الوصف الذي وصف به كتاب الله أهل الجنة من ﴿ الْمُتَّقِينَ ﴾، والوصف الذي وصف به أهل النار من ﴿ الطَّـٰغِينَ ﴾، فالآيات القرآنية في ختام الربع الماضي وبداية هذا الربع لم تعرِّج مطلقاً على أي حديث يمكن أن يعتبر حديثاً نابياً بين أهل الجنة فيما بينهم، لأنهم جميعاً يعيشون عيشة راضية، وقد ألَّفت بينهم وحدة العقيدة، ووحدة السلوك، ووحدة المصير، ﴿ إِخْوَٰناً عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴾ (١٥ : ٤٧)، بينما الآيات التي تسجل مشاعر ﴿ الطَّـٰغِينَ ﴾، وهم في جهنم، وانطباعات بعضهم عن بعض، وردود الفعل للمحاورات والمجادلات التي يتبادلونها وهم يتلَقون عذاب الله، كلها تصورهم وهم يتراشقون بالتهم والشتائم واللعنات، ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ اخْتَهَا ﴾ (٧ : ٣٨)، فعندما يفاجَأ بعضهم بقدوم فريق جديد من الطاغين عليهم، ويقال: ﴿ هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ﴾، يرُدُّ ذلك البعض على هذه المقالة شامتاً متشفياً ويقول: ﴿ لَا مَرْحَبا بِهِم، إِنَّهُمْ صَالُواْ النَّارِ ﴾، لكن الفريق الذي يسمع هذه التحية المنكرة، لا يلبث أن يرد على الشامتين تحيتهم، مُلْقياً عليهم مسؤولية التردي في هوة الشقاء والعذاب، ﴿ قَالُواْ بَلَ انتُمْ لَا مَرْحَباً بِكُمُ، أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا، فَبِيسَ اَلْقَرَارُ ﴾، ومن المفارقات في هذا المشهد المفجع أنهم يتجهون إلى الله مهْطعين خاشعين، داعين على من أضلهم وأغواهم، وأمسك بمقادتهم إلى النار: ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا مَن

قَدَّمَ لَنَاهَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ ﴾.

ثم يشير كتاب الله إلى الخيبة التي يُمْنَى بها «الطاغُون» عندما يستقر بهم المَطَاف في جهنم، حيث لا يستَدْبِرُون مفاجأةً إلاّ ليستقبلوا مفاجأة أدهى وأمر. نعم لقد كانوا في حياتهم يَعتبِرون ﴿ اَلْمُصْطَفَيْنَ اَلاَخْيَارِ ﴾، عبارةً عن منبوذين أشرار، لا يستحقون إلّا السخرية والاستهزاء، وها هم الآن يتساءلون عنهم في لهفة وحسرة: أين يوجد أولئك الرجال الذين كانوا يُعدُّونهم أشراراً، هل هم يُرافقونهم في جهنم لكن لا تقع عليهم أعينهم الزائغة؟ أم أنهم ليسوا في جهنم أصلاً: ﴿ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ اَلاَشْرَارِ، أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سُخْرِيّاً، اَمْ زَاغَتْ عنهم الاَبْصَـٰرُ ﴾. ويعقّب كتاب الله على هذا الوصف الكاشف الذي يبرز حَيْـرة الطاغين الخارجين عن طـاعة الله، المكـذبين لرسله، ويكشف الستار عما هم عليه من شقاق وخلاف وتضارب في الآراء، ولو في دار الشقاء، قائلاً: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ: تَخَاصُمُ أَهْلِ اِلنَّارِ ﴾.

وتنتقل الآيات فيما بعد ذلك إلى قصة خلق آدم وسجود الملائكة له، امتثالاً لأمر الله تعالى بتكريمه، وترشيحاً لِما أعدته له الأقدار من الخلافة في الأرض، وحمل أمانة التكليف التي عجزت عن حملها بقية المخلوقات، ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا اَلاَمَانَةَ عَلَى اَلسَّمَـٰوَاتِ وَالاَرْضِ وَالْجِبَـالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَّحْمِلْنَهَـا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا، وَحَمَلَهَا اَلاِنسَـٰنُ ﴾ (٣٣: ٧٢)، وتنتهي القصة بالإشارة إلى أخطر سـابقة في عـالم الكِبْر والغـواية، وهي سـابقة إبليس اللعين: ﴿ فَسَجَدَ اَلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمُ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اَسْتَكْبَرَ وَكَـانَ مِنَ

ٱلْكَـٰفِرِينَ، قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ، أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ، قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ، قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ، وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، ثم حكى كتاب الله تَحدِّيَ إبليس اللعين: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وختمت سورة (صٓ) بآية كريمة هي آية في الإعجاز وتثبيت النبوة، والتنبؤ بما ستلِده الأيام من أحداث واكتشافات تزيد المؤمنين إيماناً، وتبهَر الشاكِّين والمكذبين، فلا يسعهم إلّا أن يذعنوا لها إذعاناً، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ، وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ﴾، إشارةً إلى أن ما جاء به القرآن، وعلَّمه للإنسان، ستثبت الأيام أنه حق لا ريب فيه، وصواب لا خطأ فيه، على مر الأزمان، وما مِن جيل إلّا وسيكتشف من لطائفه وأسراره ما لم يصل إليه غيره، فكتاب الله «لا يَشبَع منه العلماء، وَلَا يَخْلَقُ على كثرة الرَّدّ، وَلا تَنقضي عجائبه»، كما جاء في الأثر عن عليّ كرم الله وجهه، وبمعنى هذه الآية سبق قوله تعالى في سورة الحج (٥٤): ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ، فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ، فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾، وسيأتي في سورة فصلت قوله تعالى (٥٣): ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

والآن فلنشرع على بركة الله في تفسير سورة الزُّمَر «المكية أيضاً، مستعينين بالله، وإنما سميت بهذا الاسم أخذاً من آيتين في نفس السورة وردت فيها كلمة ﴿ٱلزُّمَرِ﴾، جمع «زُمْرة» بمعنى

الفوج والجماعة، حيث قال تعالى (٧١): ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَراً ﴾، وقال تعالى (٧٣): ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَراً ﴾.

وأول موضوع في هذه السورة يطرق الآذان هو موضوع نزول القرآن، حيث قال تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ، إِنَّآ أَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾، وثاني موضوع فيها هو إبراز دعوة التوحيد، والإلحاح على التمسك بها والإخلاص فيها، حيث قال تعالى: ﴿ فَاعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ ٱلدِّينَ، أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾، وثالث الموضوعات يتناول تسفيه أنواع الشرك والكفر التي يدين بها المشركون والكافرون، حيث قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ، مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰ، إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾، وهذا رد على المشركين الذين نسبوا إليه أنه «اتخذ من الملائكة إناثاً» وعلى النصارى الذين نسبوا إليه أنه اتخذ من المسيح ولداً، ﴿ سُبْحَـٰنَهُ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾، والموضوع الرابع تصدى فيه كتاب الله للرد على المعتقدات الباطلة بالبراهين القطعية، والدلائل الكونية، مما يضطر إلى التسليم به، ويتواطأ على قبوله: الحس والعقل والوجدان، وذلك قوله تعالى مذكِّراً بآياته الكونية في الآفاق: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ، يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ، وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمّىً ﴾، وقولُه تعالى مذكراً بآياته الطبيعية في الأنفس:

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا، وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ، يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾، ثم عقَّب كتاب الله على الآيات الباهرة التي أبرزها في الأنفس والآفاق، مستخلصاً منها نتائجها المنطقية، فقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ، فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾.

وبعد هذه الجولة القرآنية في عالم المُلْك والملكوت خاطب الحق سبحانه وتعالى عباده جميعاً، مبيناً لهم أنه سبحانه إنما يريد بهم ولهم خيراً، وأن من اهتدى منهم فلنفسه أحسن، ومن ضل فإنما يضل عليها، وأن كل فرد مسؤول عن نِيَّته وعمله أمام الله، وذلك قوله تعالى في نهاية هذا الربع: ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ، وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ، وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾.

# الربع الأخير من الحزب السادس والأربعين في المصحف الكريم

وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ
ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ
يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ
قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ٨ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ
ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ
هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ
أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ٩ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ
رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ
ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ١٠
قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ١١ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ
ٱلْمُسْلِمِينَ ١٢ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٣
قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ١٤ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ
ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ

هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ
ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟
ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ
عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ
عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟
رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ
بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ
يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾
أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ
لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾
ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ
ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ
ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ

فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾
كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾
فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ
لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن
كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى
عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ
مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾
ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

# الربع الأخير من الحزب السادس والأربعين في المصحف الكريم

## عبـاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب السادس والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾.

في بداية هذا الربع يصف كتاب الله بكل دِقة، وفي إيجاز وإعجاز، نفسية ضعفاء الإيمان من بني الإنسان، ومواقفَهم المتناقضة في كل زمان ومكان، ولا سيما الموقف الذي يكونون عليه في حالة الضراء، والموقف الذي ينقلبون إليه في حالة السراء، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ، ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ، وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾، على غرار قوله تعالى في آية ثانية (١٠: ١٢): ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾، وقوله تعالى في آية ثالثة (١٧: ٦٧): ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ، فَلَمَّا نَجَّيْكُمْ إِلَى الْبَرِّ

أَعْرَضْتُمْ، وَكَانَ اَلاِنسَـٰنُ كَفُوراً ﴾، وقولـه تعالى في آيـة رابعة (٣٩: ٤٩): ﴿ فَإِذَا مَسَّ اَلاِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا، ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍۢ، بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ، وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

وجميع هذه الآيات تسجل على ضعفاء الإيمان ما هم عليه من تناقض وتذبذب وتردد، وتكشف الستار عن خَلَجات نُفوسهم ونبضات قلوبهم في حالتي اليسر والعسر، والشدة والرخاء، فهم حينما تنزل بساحتهم كارثة من الكوارث، أو داهية من الدواهي، يجزَعون ويفزَعون، ويُحسُّون من أعماق أعماقهم بما هم عليه من الضعف والعجز والهوان على الله وعلى النـاس، ويـدركـون بغريزتهم الفطرية أنهم لا يستطيعون لما نزل بهم دفعاً، وأنه لا خلاص لهم من المحنة، ولا نجاة لهم من الكَرْب، إلّا بالالتجاء إلى الله وحده القاهر فوق عباده، ويجدون أنفسهم مدفوعين بدافع قهرى وخفي إلى التمرغ في أعتاب مَن بيده المُلك والمَلَكوت، طارقين بَابَه بمنتهى الخضوع والخشوع، حتى إذا ما استجاب الله دعـاءهم، بواسـع رحمته، وجميـل لطفـه، نَسُوا الله فـأنسـاهم أنفسهم، ولم يعُـودُوا يتذكـرون المحنة التي نَكَّست رؤوسهم، وأثقلت ظهـورهم، وأقضت مضاجعهم، وزلـزلت كيـانهم، بـل استانفوا من جديد كل ما كانوا عليه من التظاهر والتجاهر بالفساد والـطغيان، ولَجُّـوا في العناد والعـدوان، وأقبلوا على ممارسـة شهـواتهم، والانغمـاس في لـذاتهم، والجـري وراء أهـوائهم، والتسابق إلى الطاعـة العمياء، لمن يشـركونهم بـالله من السادة

والكبراء، وإن كان في رضاهم سخط الله، وفي الاعتماد عليهم شِرْك بالله، وذلك كله من أجل متعة مؤقتة مآلُها إلى زوال، وفي سبيل منفعة عاجلة نهايتُها إلى وبال، وإلى هذا الموقف المزري الذي يقفه ضعفاء الإيمان في وقفتهم الخاسرة، ومقابلتهم لطف الله بالجحود بدلاً من الشكر، وبالإساءة بدلاً من الإحسان، ينظر قوله تعالى في نفس الموضوع: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً، اِنَّكَ مِنَ اَصْحَٰبِ اِلنَّارِ﴾، بينما المتحررون من رِبْقة الشرك الظاهر والخفي، ومن كل عبودية لغير الله، جاءتهم البشرى من الحق سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَالذِينَ اَجْتَنَبُواْ الطَّٰغُوتَ أَنْ يَّعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى اَللَّهِ لَهُمُ اَلْبُشْرَىٰ، فَبَشِّرْ عِبَادِ اِلذِينَ يَسْتَمِعُونَ اَلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾.

وتعالج آية أخرى من هذا الربع بالوصف والبيان، حالة الإنسان الكامل، الذي أكرمه الله بقوة الإيمان، بحيث لا تأخذه سِنَةُ الغفلة والنسيان، فهو قانت خاشع، معلَّق قلبُه بين الخوف والرجاء، إذا خاف فإنه لَا يخاف شيئاً إلاّ عذاب الله، وإذا رجا فإنه لا يرجو أحداً وإنما يرجو رحمة الله، وذلك قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ـانَاءَ اَلْيْلِ سَاجِداً وَقَآئِماً يَحْذَرُ الاَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾، وأدْرِجت الآيةُ ﴿ـانَاءَ اَلْيْلِ﴾، في هذا المقام بالخصوص وهو مَقامُ الذكر والفكر، لأن ساعات الليل في الواقع هي أصلح الأوقات لسكون النفس، وطمأنينة القلب، وتركيز الفكر في مناجاة الرب، وهي أبرك اللحظات للتأمل في جلال الكون وجماله، وإدراك قدرة المكوِّن وكماله. وكما ذُكِرَتْ ﴿ـانَآءُ

ٱلَّيْلِ ﴾، في هذه الآية تنويهاً بقدرها، وإشارةً إلى خفي سرها، فقد ذُكِرَتْ مرة أخرى في قوله تعالى (٣: ١١٣): ﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً، مِّنَ اَهْلِ اِلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ، يَتْلُونَ ءَايَٰتِ اِللَّهِ ءَانَآءَ اَلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾.

وحيث أن أسمى غاية للعلم والمعرفة بالنسبة للإنسان هي الوصول إلى «الحقيقة الأولى» التي هي مصدر النور ومنبع الحياة، وربط الاتصال بها قلباً وقالباً، جاء كتاب الله ينوه بها، ويلفت النظر إليها، معتبراً أن كل علم لا يؤدِّي إليها، ولا يصل بصاحبه إلَى إدْراكها، إنما هو نوع من الجهل، بل هو «الجهل المركب الغليظ»، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي اِلذِينَ يَعْلَمُونَ وَالذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، في أعقاب قوله تعالى: ﴿ سَاجِداً وَقَآئِماً، يَحْذَرُ الَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾، فمن لا يرجو الله ولا يخافه معدود بين الجهلاء، وإن كان عند نفسه وعند الناس من العلماء.

وتأتي آية خاصة في هذا الربع لتصف مَآل الخاسرين، ثم تتلوها آية أخرى لتصف مَآل الفائزين، غير أن الربح والخسارة في لغة القرآن لهما ميزان خاص، غير الموازين المتعارفة بين الناس، فالخاسرون في هذا الميدان هم أولئك الذين خرجوا من هذه الدار وقد ضيعوا رأس مالهم، وهو خلاص أنفسهم ونجاتها، وضيعوا الربح الذي كان على مقربة منهم، وهو خلاص أهلهم وذويهم ممن كانوا تحت ولايتهم، فلا هم اهتدوا في أنفسهم، ولا هم أعانوا على الهداية مَن كانوا إلى نظرهم من الأزواج والأولاد

والخَدَم، ولم يَقُوا أنفسَهم وأهليهم ناراً، وذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ، أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ، لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾.

أما الفائزون الذين لم تلحقهم خسارة ولا إفلاس فهم على العكس من ذلك: أولئك الذين نجوا بأنفسهم فلم يخسِرُوها، إذ صرفوا حياتهم -وهي رأس مَالهم- في الرُّشْد والخير والصلاح، ولم يخسروا أهليهم وذويهم، بل قادوهم إلى طرق الخير والبر، فكان ربحهم مضاعَفاً: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾، ﴿ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ، وَعْدَ ٱللَّهِ، لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴾.

وتمضي الآيات الباقية من هذا الربع في تعداد نِعَم الله على خلقه، ووصف مظاهر لطفه بهم مادياً وروحياً، والمقارنة بين نور الإسلام وظلمة الكفر، وآثار كل منهما في النفوس، حيث قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُ يَنَـٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ، ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَٰنُهُ ﴾، وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ، فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ، أُو۟لَـٰٓئِكَ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾، ثم تمضي في استعراض خصائص القرآن العظيم الذي يجب أن يظل نِبْراساً للمسلمين إلى يوم الدين، ووَصْفِ ما خَلَع الله عليه من حلل المهابة والجلال، وجعل له من السيطرة على القلوب،

والهيمنة على المشاعر، حيث قال تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ، تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ، قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾.

ومعنى قوله تعالى هنا: ﴿ مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ ﴾، حسبما رُوي عن سفيان بن عيينة، (أن سياقات القرآن تارة تكون في معنى واحد يشبه بعضُه بعضاً، فهذا من «المتشابه»، وتارة تكون بذكر الشيء وضده، أي في معنيين اثنين، كذكْرِ المؤمنين ثم الكافرين، وكوصف الجنة ثم وصف النار، وما أشبه هذا، فهذا من «المثاني» مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ، وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ (٨٢: ١٤). قال ابن كثير: «وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم عندما يسمعون كلام الله من تلاوة رسوله ﷺ تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله، ولم يكونوا يتصارخون ولا يتكلفون ما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون، والأدب والخشية ما لا يلحقهم فيه أحد، ولهذا فازوا بالمدح من الرب الأعلى في الدنيا والآخرة، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم، والغشيان عليهم، إنما هذا في أهل البدع، وهو من الشيطان».

ومعنى قوله تعالى هنا في وصف كتابه العزيز: ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾، إنه نزل بلسان عربي مبين لا التباس فيه ولا انحراف، ولا تناقض ولا اختلاف، على غرار قوله تعالى في

سورة الكهف[١]: ﴿ اِلْحَمْدُ لِلَّهِ اِلذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ اِلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجاً ﴾، وقوله تعالى في سورة النساء (٨٢): ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اِللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اِخْتِلَٰفاً كَثِيراً ﴾.

وخُتِم هذا الربع بضرب المثل للمشرك التي يعبد آلهة مع الله، والمؤمن المخلص الذي لا يعبد إلّا الله وحده لا شريك له، وبأن الموت هو مصير جميع الأحياء، وأن الكفار سَيُخاصِم بعضُهم بعضاً في الدار الآخرة، وسيحتج عليهم الرسول بأنه بلَّغهم فكذبوا، ودعاهم فلم يستجيبوا، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ اَللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ، وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ، هَلْ يَسْتَوِيَٰنِ مَثَلاً، اِلْحَمْدُ لِلَّهِ، بَلَ اَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ اَلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾.

# الربع الأول من الحزب السابع والأربعين في المصحف الكريم

فَمَنْ اَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اَللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ
إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالذِے
جَآءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ اُلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾
لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ اُلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾
لِيُكَفِّرَ اَللَّهُ عَنْهُمُۥٓ أَسْوَأَ اَلذِے عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمُۥٓ
أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ اِلذِے كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ اَللَّهُ
بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُّضْلِلِ
اِللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَّهْدِ اِللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ
اَلَيْسَ اَللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِے اِنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ
خَلَقَ اَلسَّمَٰوَٰتِ وَالْاَرْضَ لَيَقُولُنَّ اَللَّهُ قُلْ اَفَرَآيْتُم
مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اِللَّهِ إِنْ اَرَادَنِيَ اَللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ
كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوَ اَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ

قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ
ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾
مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾
إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ
فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم
بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ
فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ
إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾
أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا
يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا
لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾
وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا
هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي
مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ

جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَافْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾
وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ
نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ
عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا
كَسَبُواْ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا
كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ
ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾
قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن
رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾

# الربع الأول من الحزب السابع والأربعين في المصحف الكريم

**عبــاد الله**

حديث هذا اليوم نخصصه للربع الأول من الحزب السابع والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ فَمَنَ اَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اَللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اَللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً، اِنَّهُ هُوَ اَلْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾.

وأول ما يواجهنا في هذا الربع هو تقريعٌ وتوبيخٌ يوجهه كتاب الله لخصُوم الرسالة وأعداء التوحيد، أولئك الذين يفترون على الله الكذب، فينسبون إليه من الصفات والنعوت والشُّركاء ما هو منزه عنه سبحانه، ثم لا يكتفون بكذبهم وافترائهم على الله، بل يضيفون إليه تكذيب كتبه ورسله دون حياء ولا خجل، وفي إصرار وعناد، فهؤلاء أجرأ خلق الله على الظلم: ظلم الحق، وظلم الحقيقة، ﴿ إِنَّ اَلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣١: ١٣)، وذلك قوله تعالى في صيغة سؤال على وجه التقرير: ﴿ فَمَنَ اَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اَللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقَ إِذْ جَآءَهُ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴾، بمعنى أنه لا أحد أشدُّ ظلماً من هذا الصنفِ من الخلق، لأنه جمع بين طرفي الباطل، فقد كذَب على الله وكذَّب

رسله، وقال الباطل ورد الحق، وعلى العكس من ذلك أولئك الذين جاءوا بالصدق عن الله، فلم يصِفوه سبحانه وتعالى إلّا بصفات الكمال، ونعوت الجلال، والذين صدَّقوهم، فآمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله دون شك ولا جدال، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَالذِي جَآءَ بِالصِّدقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ، لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ، ذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ الْمُحْسِنِينَ ﴾، فالذي ﴿ جَآءَ بِالصِّدْقِ ﴾، إشارةٌ إلى الأنبياء والرسل، والذي ﴿ صَدَّقَ بِهِ ﴾، إشارةٌ لأتباعهم من المؤمنين إلى يوم الدين.

وكما أعلن الحق سبحانه وتعالى في الآية السابقة جزاء الظالمين المكذبين إذ قال: ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴾، أعلن في الآية التالية جزاء الصادقين والمصدِّقين، فقال تعالى: ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ، ذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ الْمُحْسِنِينَ ﴾، وفي هذه الصيغة من دلائل الرضى والإكرام ما يؤكد أن الله سيكرمهم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وتَعرِض آيات أُخَر، ما حاوله المشركون ومن لَفَّ لفهم من تهديد الرسول وتخويفه بأذى الأصنام وسخط الأوثان، لأنه أشهر عليها الحرب العوان، وناوأها العدوان، وفي نفس الوقت ترسُم نفسُ الآية للرسول عليه السلام، ولكل من سار على نهجه في مقاومة الباطل وأهله، طريق الغلبة والنصر، وذلك بالاعتماد الكلي على الله، والاعتصام بحبله، والثقة بوعده، فقال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اَللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ،وَيُخَوِّفُونَكَ بِالذِينَ مِن دُونِهِ ﴾، وقال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اَللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي اِنتِقَامٍ ﴾، وقال تعالى: ﴿ قُلَ

أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ، هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِ، أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ، هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِ، قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ، عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ، قُلْ يَـٰقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَـٰمِلٌ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾.

وينتقل السياق فجأة إلى الحديث عن كتاب الله المنزل، وعن الحكمة في نزوله، وعن الرسالة التي يؤديها إلى الناس كافة، مبيناً أن شعار هذا الكتاب الإلٓهي الكريم هو «الحَقّ»، وإن دعوته هي دعوة «الحَقّ»، وأن شريعته هي الدين «الحق»، وأن النهج الذي اختطه للسلوك في جميع مجالات الحياة وجنباتها بالنسبة لجميع الناس هو النهج «الحق»، وذلك ما تضمنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾، وكلمة ﴿ لِلنَّاسِ ﴾، في هذا المقام لها أكثر من معنى، فكتاب الله لم ينزل على رسوله ليصبح تميمة من التمائم، أو يُكتفَى بقراءته على الأموات في القبور، وإنما نزل ليكون حَكَماً بين الناس، حاكماً عليهم، ورائداً موجهاً لهم، حيثما حلوا وارتحلوا، ولا سيما بين المنتمين إلى الإسلام، فإذا اتخذوا القرآن مهجوراً كانوا أحق الناس بالخزي والملام، وإلى هذا المعنى ينظر قوله تعالى هنا: ﴿ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ، وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا، وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾، في أعقاب قوله تعالى قبله: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾، مباشرة، دون فاصل بين الاثنين.

وذكَّر كتاب الله الناس أجمعين بما يتعرض له كل إنسان من «الوفاة الصغرى» عند النوم، و«الوفاة الكبرى» عند الموت: وأن بيده سبحانه أرواح الخلق، يمسك منها ما يشاء، ويرسل منها ما يشاء، فقال تعالى: ﴿ اِللَّهُ يَتَوَفَّى اَلانفُسَ حِينَ مَوْتِهَا، وَالتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا، فَيُمْسِكُ التِي قَضىٰ عَلَيْهَا اَلْمَوْتَ، وَيُرْسِلُ الاُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمّىً، اِنَّ فِي ذَٰلِكَ ءَلَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتفَكَّرُونَ ﴾، وسبق هذا المعنى بتفصيل في سورة الأنعام (٦٠ ـ ٦١).

وفي هذا الربع آية عجيبة هي وحدها كافية لأن تكون إحدى المعجزات، إذ إنها وصفت بكل دقة ملامح الشاكين والمترددين، ومشاعر الملحدين الضالين، لا في عهد الجاهلية الأولى وحدها ولكن في جميع العصور، أولئك الذين إذاذكر الله اشمأزت قلوبهم، وانقبضت نفوسهم، وإذا ذكر الذين من دونه هشوا وبشوا وانطلقت أسارير وجوههم، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اَللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الذِينَ لَا يُومِنُونَ بِالَاخِرَةِ، وَإِذَا ذُكِرَ اَلذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾، والسر فيما عليه هذا الفريق من التنكر للهداية، والتفتح للضلال، هو ما أصابهم من انحراف الفطرة، نتيجةً لسوء التربية وفساد التوجيه، فتنكروا لجميع القيم الروحية، واستهانوا بسائر المُثُل العليا، وأكبرُها وأجلُّها الإيمان بالله، والثقة بتوجيهه، وانشراح الصدر لإشراق نوره، وتلقي مدده، وحيث أن الإسلام دين الإقناع والإقتناع، لا دين الإكراه والاستكراه، فقد جاء التعقيب مباشرة على الآية التي وصفت المنحرفين الضالين، بقوله تعالى: ﴿ قُلِ اِللَّهُمَّ فَاطِرَ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ، عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ، أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

ويُختَم هذا الربع الأول من الحزب السابع والأربعين بأَرْجَى آية وردت في كتاب الله، إذ أنها تفتح باب التوبة والإنابة في وجه العصاة اليائسين، والمذنبين القانطين، بعدما أغواهم الشيطان، وأسرفوا في العصيان، وذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ، إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعاً، إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾، قال ابن عباس: «من أَيْأَسَ عباد الله من التوبة بَعْدَ هذا، فقد جحد كتاب الله عزّ وجلّ»، وقال ابن كثير في تفسيره: «هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة، من الكَفَرة وغيرهم، إلى التوبة والإنابة، وإخبارٌ بأن الله تعالى يغفر الذنوب جميعاً، لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زَبَد البحر، ولا يصح حملها على غير التوبة، لأن الشرك لا يُغفر لمن لم يتب منه، ولا يقنطَنَّ عبدٌ من رحمة الله، وإن عظمت ذنوبه وكثرت، فإن باب الرحمة والتوبة واسع، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾، وقال عزّ وجلّ (٤ : ١١٠): ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾.

# الربع الثاني من الحزب السابع والأربعين في المصحف الكريم

وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ
ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ
إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً
وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ
مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾
أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ
حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾
بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ
مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى
ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾
وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ

كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ
ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ
إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ
وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن
مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ
وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ
مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾
وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا
مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾
وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ
وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾
وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾
وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا
فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ
يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ

هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾
قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى
ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى
ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ
لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾
وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ
نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾
وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ
رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

# الربع الثاني من الحزب السابع والأربعين في المصحف الكريم

## عبـــاد الله

يتناول حديث اليوم تفسير الربع الثاني من الحزب السابع والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُ مِن قَبْلِ أَنْ يَّأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾، إلى قوله تعالى في ختام سورة الزُّمر المكية: ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ، وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴾.

في مطلع هذا الربع تتناول الآيات البيّنات وصف عدة أصناف من أهل الزيغ والضلال، فتُسجِّل ما كانوا عليه من سوء الحال في الدنيا، وتتنبأ بما سيتعللون به من أتفه الأسباب والعلل في الدار الآخرة، فمنهم الساخر المستهزىء الذي كان يتهكم على الوحي والرسالة والإيمان، ويعتبر الحياة التي يقضيها مجرد مهزلة ومسخرة، بحيث لا يلزم التفكير فيما وراءها، ولا الاستعداد لما بعدها. ومنهم الفاسق الغارق في أوحال الفسق، والمتردي في مهاوي الفساد طيلة حَياته، دُون أن يحاول إصلاح حاله، فضلاً عن أن يفكر في مصيره، ومنهم المسيء إلى نفسه وإلى الناس، المتجني على شخصه وعلى المجتمع، دون أن يفكر في اكتساب

حسنة أو إسداء إحسان، حتى إذا فارقوا الدنيا وأتاهم اليقين أخذوا يَعَضُّون بَنان الندم، ويحاولون أن يبرِّرُوا أمام أنفسهم وأمام الله مواقفَهم الشاذة، وأعمالهم المنكرة.

فالساخر المتهكم يدرك حينئذ أن الأمر أمر جَدٍّ لا هزل، وَيَتَيَقَّنُ أنه قد فرّط في حق الله، فتذهب نفسه حسرات، ويقول فيما تحكي عنه الآية: ﴿ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُّ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ اَلسَّـٰخِرِينَ ﴾، لكن ماذا تنفعه الحسرة، وماذا يجديه الاعتراف بعد فوات الإبّان؟.

والفاسق الذي أحاطت به سيآته من كل جانب يحاول أن يَجِدَ له تُكَأَة يتكىء عليها في عقيدة «الجَبْرية والقَدَرية» فيقول فيما تحكي عنه الآية: ﴿ لَـوَ اَنَّ اَللَّهَ هَدٰينِي لَكُنتُ مِنَ اَلْمُتَّقِينَ ﴾، وهذه تَعِلَّة كافة الفسّاق والمنحرفين، في جميع العصور والأزمان، كأَنَّ الله لم يبعث الرسل، وكأنه لم يمنح للناس جميعاً مَلَكة العقل والتمييز، ـ وهي الميزان الذي يزنون به حقائق الأشياء ـ، ووحيَ الوجدان والضمير، ليختاروا طريق الهدى، ويتجنبوا طريق الضلال «وهديناه النجْدَيْن».

والمسيء الذي لم يعرف في حياته طريق الحسنة والعمل الصالح، ولم يتمتع أبداً بلذة الإحسان والبر، يتمنى العودة إلى الدنيا ليدارك ما فات، وهيهات هيهات، فيقول فيما تحكي عنه الآية: ﴿ لَوَ اَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

وأُمنية العودة إلى الدنيا بعد الإقامة في دار العذاب هي

أمنية جميع المسيئين، الذين يظلون طيلة حياتهم سكارى بعبادة أنفسهم وشهواتهم، حتى إذا ما حلوا بدار الجزاء ندموا على ما ضيعوا من الفرص في دار العمل، فالواجب على كل إنسان عاقل أن يبادر لاستثمار وقته - ما دام في الحياة الدنيا - استثماراً جِدِّياً، يضمن له الأمن والنعيم، عندما ينتقل إلى الدار الآخرة، وذلك باتباع النهج القويم، الذي رسمه الله لسلوك الصالحين من عباده، وبالتنازل عن مرضاة النفس الأمارة بالسوء، في سبيل مرضاة الله ورسوله، وإلى هذه المعاني وما يتصل بها يشير قوله تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ، وَاتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم، مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ، أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ، أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ، أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

ورداً على أولئك المترددين الضالين، المتعللين بالعلل الفارغة، والمتمنين للأماني الكاذبة، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ بَلَىٰ، قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا ﴾، وهذا خطاب لمن كان يسخر من دين الله، ﴿ وَٱسْتَكْبَرْتَ ﴾، وهذا خطاب لمن كان ينتهك حرمات الله ويتعدى حدوده، ﴿ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾، وهذا خطاب لمن لم يشكر نعمة الله عليه، فاستعملها في السيآت دون الحسنات، وفي الإساءة دون الإحسان.

ثم تنتقل الآيات الكريمة إلى وصف الحالة التي يكون

عليها أهل النار، والحالة التي يكون عليها أهل الجنة، فالذين كَذَبوا على الله وكفروا به وافتروا عليه بما خَيَّلَت لهم أوهامهم الفاسدة، وعقولهم الضالة، سينالهم من عذاب الله وعقابه، ما يجعلهم عبرة لمن اعتبر، وسينالهم من التقريع والتوبيخ في دار العذاب، والاستجواب والحساب، ما يُنَكِّس رؤوسهم، ويُخجِل كبرياءَهم.

أما أهل النار فقد جاء وصفهم في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَراً، حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا. قَالُواْ: بَلَىٰ﴾، وقولُه تعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا، فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

ومما تجب ملاحظته في هذا المقام ما ورد فيه من التأكيد في وصف أهل النار بصفة «التكبر»، فقد وُصِفوا به في هذا الربع مرتين متتاليتين، المرة الأولى في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾، والمرة الثانية في قوله تعالى: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾. والسر في ذلك أن خصلة «الكِبْر» وممارسة «التكبر» ـ مما يعتاده ضعفاء النفوس وسخفاء العقول ـ هي أكبر سبب في ضلال الضالين، وسخرية الساخرين، وأكبر حافز للكافرين والفاسقين على تحدي الحق المبين، ومن لم تصبه عاهة «الكِبْر» كان أسرع إلى قبول النصيحة فَوْرَ سماعها، وإلى اتباع الهداية بمجرد إشراق نورها.

وأما أهل الجنة الفائزون فقد جاء في وصفهم قوله تعالى: ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الذِينَ اتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ، لَا يَمَسُّهُمُ السُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ الذِينَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمُ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً، حَتَّىٰ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِّحَتَ اَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا: سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴾، ثم يصف كتاب الله كيف تكون ارتسامات أهل الجنة وانطباعاتهم، لأوّل حلولهم بدار النعيم، فيقول حاكياً على لسانهم: ﴿ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ، وَأَوْرَثَنَا الاَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ، فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَـٰمِلِينَ ﴾.

وقوله تعالى في هذا السياق: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴾، أي: طابت أعمالكم وأقوالكم، وطاب سعيكم وجزاؤكم، كما في تفسير ابن كثير.

وقوله تعالى على لسان أهل الجنة عند حلولهم بها: ﴿ اَلْحَمْدُ لِلَّهِ الذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾، ينظر إلى قوله تعالى في آية أخرى حاكياً الدعاء الذي كان يجري على ألسنتهم في الدنيا: ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ، إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾.

وقوله تعالى على لسان أهل الجنة: ﴿ وَأَوْرَثَنَا الاَرْضَ ﴾، المراد بالأرض هنا أرض الجنة نفسها، كما فسر ذلك أبو العالية وأبو صالح وقتادة والسُّدِّي وابن زيد، بدليل قول أهل الجنة مباشرة بعد ذلك فيما تحكيه الآية عنهم: ﴿ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾،

أي: حيث شئنا حللنا، فنعم الأجر أجرنا، وبمثل هذا المعنى فسر ابن كثير قوله تعالى في الآية الأخرى (٢ : ١٠٥): ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾، فالأرض التي يرثها الصالحون من عباده إرثاً خالداً مؤبّداً هي أرض الجنة، لا هذه الأرض التي يعيش الإنسان على ظهرها إلى الوقت المعلوم، والتي يشير إليها قوله تعالى (٣٠ : ٢٥): ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾.

وقولُه تعالى بعد فصل القضاء في مصير الكافرين والمتقين: ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾، تصويرٌ للحالة التي يكون عليها الملائكة وهم محدقُون بالعرش، من الطمأنينة والارتياح، عندما يرون كل فريق قد نال جزاءهُ العادل، ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ (٤٢ : ٧)، فتنطلق ألسنتهم بحمد الله وتقديسه وتنزيهه، إذ هو الحَكَم العدل الذي لا يظلم الناس مثقال ذرة.

وقولُه تعالى: ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ ﴾، الضمير هنا إما أن يعود على أقرب مذكور، وهو لفظ ﴿ الْمَلَائِكَةَ ﴾، بمعنى أن الملائكة يتفاضَلُون أيضاً في الثواب، نظراً لِتَفاضُل مراتبهم وتفاضل أعمالهم، وذلك هو القضاء بينهم بالحق، وإما أن يعود الضمير على العباد كلهم والخلائق بأجمعهم، ويكون القضاء بينهم بالحق هو إدخال بعضهم النار، وإدخال بعضهم الجنة.

وخُتِم هذا الربع بقوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾، وقد فسره ابن كثير على وجه طريف يُعَدُّ من لَطَائف التفسير فقال: «أي نَطَقَ الكونُ أجمعه، ناطقه وبَهِيمُه، بالحمد لله رب العالمين، في حكمه وعدله، ولهذا لم يُسنِد القول إلى قائل، بل أطلقه، فدل على أن جميع المخلوقات شهدت لله بالحمد، ﴿ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

# الربع الثالث من الحزب السابع والأربعين في المصحف الكريم

بِسْمِ اِ۬للَّهِ اِ۬لرَّحْمَٰنِ اِ۬لرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ اُ۬لْكِتَٰبِ مِنَ اَ۬للَّهِ اِ۬لْعَزِيزِ اِ۬لْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ اِ۬لذَّنۢبِ وَقَابِلِ
اِ۬لتَّوْبِ شَدِيدِ اِ۬لْعِقَابِ ذِے اِ۬لطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ اِ۬لْمَصِيرُ ﴿٣﴾
مَا يُجَٰدِلُ فِےٓ ءَايَٰتِ اِ۬للَّهِ إِلَّا اَ۬لذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِے
اِ۬لْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٖ وَالَاحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ
كُلُّ أُمَّةِۢ بِرَسُولِهِمْ لِيَاخُذُوهُ وَجَٰدَلُواْ بِالْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ اِ۬لْحَقَّ
فَأَخَذتُّهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَٰتُ رَبِّكَ عَلَى
اَ۬لذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ اُ۬لنَّارِ ﴿٦﴾ اِ۬لذِينَ يَحْمِلُونَ اَ۬لْعَرْشَ وَمَنْ
حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُومِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ
لِلذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَےْءٖ رَّحْمَةٗ وَعِلْماٗ فَاغْفِرْ
لِلذِينَ تَابُواْ وَاتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ اَ۬لْجَحِيمِ ﴿٧﴾
رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ اِ۬لتِے وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ

مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ
فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ
إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا
ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ
خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ
كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ
ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ
مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ
ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ
لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾
ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ
ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى

ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ
يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ
يَقْضِي بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ
ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾

# الربع الثالث من الحزب السابع والأربعين في المصحف الكريم

## عبــاد الله

حديث هذا اليوم نخصصه لتفسير الربع الثالث من الحزب السابع والأربعين، في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في مطلع سورة غافر المكية: ﴿ بِسْمِ اِللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ اِلرَّحِيمِ حمٓ، تَنزِيلُ الْكِتَـٰبِ مِنَ اَللَّهِ اِلْعَزِيزِ اِلْعَلِيمِ، غَـافِرِ الذَّنبِ، وَقَابِلِ التَّوْبِ، شَدِيدِ اِلْعِقَابِ، ذِي اِلطَّوْلِ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ، وَالذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ، اِنَّ اَللَّهَ هُوَ اَلسَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾.

من الآيات التي تستلفت النظر بوجه خاص في مطلع هذه السورة قولُه تعالى: ﴿ مَا يُجَـٰدِلُ فِيٓ ءَايَـٰتِ اِللَّهِ إِلَّا اَلذِينَ كَفَرُواْ، فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي اِلْبِلَـٰدِ، كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالَاحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ، وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَاخُذُوهُ، وَجَـٰدَلُواْ بِالْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ الْحَقَّ، فَأَخَذتُّهُمْ، فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾، ففي هذه الآيات وصف مُوجَز للصراع القائم المستمر بين الحق والباطل، والضلال والهدى، ووصف للمَعركة الفاصلة بين الاِثنين، وتعريف بأن مآل هذه المعركة دائماً إلى غلبة الحق

وانهزام الباطل، وبأن العقاب الإلّهي يتدخل في نهاية الأمر، ليضع حداً لِكَذب المكذبين، وجدل المبطلين.

وها هنا يكشف الحق سبحانه وتعالى النقاب عن حقيقة كبرى قلَّما يلتفت إليها كثير من الناس، ألا وهي أن جميع ما خلقه الله من العوالم والأكوان، بما فيها من جماد ونبات وحيوان، يَدين كله بالطاعة لله، ويسبح بحمده، ولا يجادل في آية من آياته، ما عدا شرذمة كافرة مستهترة من بني الإنسان، هي التي تجادل في آياته، وتقف موقف التحدي لتوجيهاته، وتتبرم بطاعته، وتتصدي لمعصيته، ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ اِللَّهِ إِلَّا اَلذِينَ كَفَرُواْ﴾، لكن الله تعالى يُطَمْئِن رسوله والمؤمنين في نفس الوقت على أن مصير هذه الشرذمة من الكافرين، الذين يتظاهرون بالكِبْر والجبروت والاستعلاء، سيكون مصيراً مُفْجِعاً ومُفزِعاً، وأن الثمرة الوحيدة التي سيجنونها من جدالهم في آيات الله، وتصديهم للكفر به، عناداً واستكباراً، لن تكون إلّا الخيبة والبوار، والهزيمة المُرة، في الدنيا أولاً، والآخرة ثانياً، ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي اِلْبِلَٰدِ﴾، ولقد صدقَ الله نبيَّه وعده، عندما انهزم الشرك والمشركون في جزيرة العرب أولاً، ثم في غيرها من بقية أطراف العالم ثانياً، وظهر الإسلام على غيره من المعتقدات الباطلة، في كثير من بقاع المعمور، وها هو لا يزال يشق طريقه المرسوم، إلى أن يتم له النصر والظهور. وكما مرت في الربع الماضي آية خاصة في خاتمة سورة الزُّمَر، تصف وضع الملائكة وهم حول العرش يسبحون الله ويحمدونه (٧٥): ﴿وَتَرَى اَلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ اِلْعَرْشِ

يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾، جاءت في هذا الربع أيضاً آية كريمة أخرى تهز أعطاف المؤمنين الصادقين، إذ في هذه الآية تحدَّثَ كتاب الله عن حَمَلَة العرش من الملائكة، وأنهم ـ عِلَاوَة على كونهم يسبحون بحمده سبحانه ـ يتطوعون بالاستغفار للذين آمنوا من أهل الأرض، وفيها حكى كتاب الله نفس الأدعية التي يَدْعون بها ربهم وهم في الملأ الأعلى لخير المؤمنين، مما يُعطِي الدليل القوي على متانة «رابطة الإيمان» التي تجمع بين ملائكة السماء والمؤمنين في الأرض، ويُوضِّح إلى أي حد بلغت درجة التعاطف والتجاوب بين هاذين الفريقين من المؤمنين، وذلك قوله تعالى: ﴿ اِلذِينَ يَحْمِلُونَ اَلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُومِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، فها هنا يبين كتاب الله لكافة المؤمنين في الأرض أنهم ليسوا غرباء في هذا الكون ولا مجهولين، بل إن لهم إخواناً في الله يفكرون فيهم وفي مصيرهم، من عالم الملائكة والملأ الأعلى، ولا سيما بين حَمَلة العرش المقربين إلى الله، فها هم الملائكة، إخوان المؤمنين، يتوجهون إلى الله في أدب وخشوع، طالبين من الله لإخوانهم في الأرض، توبةً من «واسع الرحمة» ومغفرةً من «واسع العلم»، ممهِّدين للدعاء، بهذا النداء: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً ﴾، ثم يدْعُون لإخوانهم المؤمنين التائبين، الملتزمين للصراط المستقيم، بغفران الذنوب، والنجاة من الكروب، ﴿ فَاغْفِرْ لِلذِينَ تَابُواْ وَاتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ اَلْجَحِيمِ ﴾، ولا يكتفون بهذا الدعاء وحده، بل يضيفون إليه دعاء ثانياً يتضمن التماس الوفاء من الله بوعده الصادق، وإدخالَ المؤمنين إلى جنات عَدْن، وها

هنا لا يَقصُرون الدعاء على المؤمنين وحدهم، بل يُدرِجون في دُعائهم ويدمجون فيه كل من صلَح من آباء المؤمنين، وأزواج المؤمنين، وذريات المؤمنين، سائلين لهم من الله جميعاً الرضى والرضوان، والإلتحاق بهم في جنات عَدْن، تتميماً للنعمة عليهم، بجمع الشمل في دار البقاء، بعد انتشاره في دار الفناء: ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَـدْنٍ اِلتِي وَعَـدتَّهُمْ، وَمَن صَلَحَ مِنَ ـابَـآئِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَـٰتِهِمُ، إِنَّـكَ أَنتَ اَلْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.

وقولُه تعالى على لسان الملائكة: ﴿ وَمَن صَلَحَ ﴾، إخراجٌ لمن لم يكن من الصـالحين من آباء المؤمنين أو أزوَاجهم أو ذرياتهم، فهؤلاء لا يلحقون بهذا الركب في الآخرة، بعدما فارقوه عقيدةً وسلوكاً، طيلة حياتهم وهم في الدنيا، ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ﴾ (١١ : ٤٦)، ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ (٢٣ : ١٠١).

ويختم حَمَلة العرش من الملائكة دعاءهم المستجاب في الملأ الأعلى لخير المؤمنين، بالتضرع إلى الله أن يحـول بين هؤلاء وبين ارتكاب السيآت، وأن يحميهم من العِثَار في مزالقها والسقوط في مهاويها، مبينين أن وقاية الله للمؤمن من ارتكاب السيآت تُعَدُّ أجل رحمة وأعظم فوز، إذ أن السيئة تدعو إلى مثلها حتى تجر صاحبها إلى الهلاك والبوار، ويكون من أهل النار: ﴿ وَقِهِمُ السَّيِـَٔاتِ، وَمَن تَقِ اِلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ، وَذَٰلِكَ هُوَ اَلْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ وَقِهِمُ السَّيِّـَٔاتِ، وَمَن تَقِ السَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ

فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴾، يدل على أن المعنى الأصلي المراد من استعمال كلمة «التقوى» هو أن يجعل المؤمن بينه وبين ارتكاب السيآت وممارستها حائلاً قوياً، وحاجزا حصيناً، وأن يتخذ للوقاية منها جميع التدابير.

ويَمضِي الحديث في هذا الربع من كتاب الله، في وصفِ ما أعده الله من العقاب والعذاب لمن دعاهم الرسول إلى الإيمَان، فأصروا على الكفر والضلال، ووَصْفِ ما ينالهم يوم القيامة من مَقْت الله وخزيه البالغ، عِلاوة على المقت الذي يشعرون به آنذاك من أنفسهم نحو أنفسهم، من أعماق الأعماق، وذلك قولُه تعالى: ﴿ إِنَّ اَلذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمُ أَنفُسَكُمْ، إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى اَلاِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ، قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اَثْنَتَيْنِ، وَأَحْيَيْتَنَا اَثْنَتَيْنِ، فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا، فَهَلِ اِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾، لكن لا سبيل لهم إلى الخروج ولا رجاء، وقولُه تعالى: ﴿ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ، لَا يَخْفَىٰ عَلَى اَللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴾، وقولُه تعالى: ﴿ إِذِ اِلْقُلُوبُ لَدَى اَلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ، مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ، يَعْلَمُ خَآئِنَةَ اَلاَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي اِلصُّدُورُ﴾.

ولا بد من وقفة خاصة عندما حكاه كتاب الله على لسان الكافرين الذين كانوا يكذبون بالبعث والدار الآخرة، ثم لما استقروا في دار الجحيم، ﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اَثْنَتَيْنِ، وَأَحْيَيْتَنَا اَثْنَتَيْنِ ﴾، فما معنى الموت مرتين، وما معنى الحياة مرتين، وما هو ترتيب الموتَتَيْن والحياتين؟.

والجواب المأثور في هذا الصدد عن عبد الله بن مسعود

وابن عباس وجملة من مفسري السلف هو أن أحسن تفسير لهذه الآية يؤخذ من نص الآية الثانية والعشرين، الـواردة في سورة البقرة، حيث قال تعالى مخاطباً للكافرين محتجاً عليهم (٢٨): ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ، وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً، فَأَحْيَاكُمْ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾، فمعنى ﴿ كُنتُمْ أَمْوَاتاً ﴾، في هذه الآية: كنتم عَدَماً قبل أن يمنّ الله عليكم بنعمة الإيجاد، على حد قوله تعالى في آية أخرى (٧٦: ١): ﴿ هَلَ اَتىٰ عَلَى اَلِانْسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ اَلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾، ومعنى ﴿ فَأَحْيَاكُمْ ﴾: أخـرجكم من العدم ونفـخ فيكم روح الحيـاة، ومعنى: ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ أي: يقبض أرواحكم عند حلول الأجل ومفارقة الدنيا، ومعنى ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ، ثُمَّ إِلَيْـهِ تُرْجَعُـونَ ﴾، أي: يبعثكم من مرقدكم يوم القيامة للحساب في دار الجزاء، وبذلك يتضح معنى المَوتَتَيْن ومعنى الحياتين، وهكـذا يكون الموت الأول ـ على سبيل المجاز ـ هو العدم السـابق قبل الخلق، والمـوت الثاني بالنسبة إليه هو قبض الروح عند مفارقة الدنيا، وهـذا هو أول «موت حقيقي» بعد ممارسة الحياة، وقد نفى كتاب الله الابتلاء به في دار النعيم بعد الابتلاء به في الدنيا، فقال تعالى في سورة الدخان (٥٦): ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا اَلْمَوْتَ، إِلَّا اَلْـمَوْتَةَ اَلْأُولَىٰ ﴾، أما الحياة الأولى فهي الخلق والإيجاد بعد العدم، أو الحياة الثانية فهي الإحياء للبعث يوم القيامة، وهذا القول في تفسير الآية هو الذي اختاره ابن عَطِيَّة، وصححه ابن كثير، ترجيحاً لتفسير القرآن بالقرآن. ويسجل كتاب الله ما يتميز به الموقف في يوم القيامة من الهول والجلال والسلطان الإلّهي المطلق، والعدل الإلّهي الكامل،

إذ يقول: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾، ويقول: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ، لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، ويقول: ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، ويقول في النهاية: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ، وَالذِينَ تَدْعُونَ من دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

# الربع الأخير من الحزب السابع والأربعين في المصحف الكريم

أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ هُمُۥ
أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ
بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ
إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ
بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ
فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا
قَالُواْ اقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَاسْتَحْيُواْ
نِسَآءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾
وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ
أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ وَأَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ

مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ
لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ
يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ
جَآءَكُم بِالْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ
وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ
لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ
الْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ اللَّهِ إِن
جَآءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا
سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم
مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ
وَالَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ
إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم
مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾
وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي
شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ
مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ

مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ اِ۬لذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِےٓ ءَايَٰتِ اِ۬للَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ
اَتَيٰهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اَ۬للَّهِ وَعِندَ اَ۬لذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ
يَطْبَعُ اُ۬للَّهُ عَلَيٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ
يَٰهَٰمَٰنُ اُ۪بْنِ لِے صَرْحاً لَّعَلِّيَ أَبْلُغُ اُ۬لَاسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ
اَ۬لسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعُ إِلَيٰٓ إِلَٰهِ مُوسَيٰ وَإِنِّے لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِباً
وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصَدَّ عَنِ اِ۬لسَّبِيلِ
وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِے تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ اَ۬لذِےٓ ءَامَنَ
يَٰقَوْمِ اِ۪تَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ اَ۬لرَّشَادِ ﴿٣٨﴾
يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ اِ۬لْحَيَوٰةُ اُ۬لدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ اَ۬لَاخِرَةَ
هِيَ دَارُ اُ۬لْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَيٰٓ إِلَّا
مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحاً مِّن ذَكَرٍ اَوُ اُنث۪يٰ وَهُوَ مُومِنٌ
فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ اَ۬لْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾

# الربع الأخير من الحزب السابع والأربعين في المصحف الكريم

**عبـــاد الله**

حصة هذا اليوم نعالج فيها الربع الأخير من الحزب السابع والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُواْ فِي اِلْاَرْضِ فَيَنْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الـذِينَ كَانُـواْ مِن قَبْلِهِمْ ﴾، إلى قوله عز وجل: ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحاً مِّن ذَكَرٍ اَو اُنثىٰ وَهُوَ مُومِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ اَلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

في بداية هذا الربـع يعرض القـرآن الكريم على أنـظار المشركين الذين لا يزالون متمسكين بمعتقدات الجاهلية الأولى ومن ماثلَهم نبذة من أحوال الأمم الغابرة، مبيناً بعض ما جرى لها من مجريات، ونزل بها من أحداث، وخاصة ما دار في ديارها من صراع عنيف بين دعوة الأنبياء والرسل الذين أُرسِلوا لهدايتها، ودعاية المتكبرين، والجبابرة الضالين، الذين أَضلوها وأصروا على التحكم في مصيرها.

وفي نفس الـوقت يحضّ كتـاب الله كـل بـاحث عن الحق، متطلِّعٍ إلى معرفة الحقيقة في أمر النبوات والرسالات، على أن يسير في أرض الله باحثاً منقباً لاستكشاف آثار الأمم الغابرة،

ومشاهدة البقية الباقية من حضارتها الذاهبة، ففي ذلك العبرة البالغة، والدليل القاطع، على المصير المظلم الذي ينتظر الضالين، والنهاية المحزنة التي تصيب الكافرين، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ، كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَاراً فِي الْأَرْضِ، فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ، وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ، إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾، ففي هذه الآية وما ماثلها يبين الحق سبحانه وتعالى ما أصاب الأمم الغابرة، والحضارات القديمة، من التلاشي والزوال، وما نزل بساحتها من الدمار والاضمحلال، ويؤكد كتاب الله أن أكبر سبب للدمار الذي أصابها، والاضمحلال الذي نزل بها، هو أنها سلكت طريقاً مضاداً من كل الوجوه، للتوجيه الإلٰهي الرشيد، الذي جاء به الأنبياء والرسل، ولم تتبع سنة الله التي رسمها لصلاح الخلق ورشادهم في هذه الدنيا، فانقلبت قوتها القاهرة، إلى ضعف وفناء، وأصبحت آثارها الباهرة، عبارة عن أطلال وأشلاء، رغم كل ما بذلته في سبيلها من المال والجهد والعناء، ﴿ وَكَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَاراً فِي الْأَرْضِ، فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾.

وتتولى الآيات التالية فيما بعد عَرْض نموذج حَيٍّ من الحضارات الزائلة والأمم الغابرة، وذلك بالحديث عن قصة موسى الكليم وفرعون مصر، حديثاً يكشف الستار، عما جرى من الصراع بين الحق والباطل في تلك الديار، فها هو موسى

يرسله الله إلى فرعون وهامان وقارون، اللذَيْن هما أقرب المقربين إليه، وها هو فرعون يحاول أن يقتل موسى للتخلص منه، وها هو موسى يتحصن بالله ويعتصم به، فيعصمه من عدوان فرعون، وها هو فرعون ورجالُه يضعون خطة للقضاء على دعوة موسى، بقتل أبناء الذين آمنوا به، حتى لا يبقى لدعوته أيّ أثر في الجيل الصاعد، وها هو فرعون يُدلِّس على قومه، مصرّاً على تضليلهم، محاولاً إقناعهم بوجوب التمسك بما هُم عَليه من المعتقدات الباطلة، والتقاليد الزائفة، مدعياً أمامهم أنه يخاف عليهم من أن يبدِّل موسى دين أجدادهم، وأن يُظهر الفساد في ديارهم، مثيراً بذلك حَمِيَّتهم، وموقداً نار التعصب في نفوسهم، بل ها هو فرعون يتحدى قدرة الله ساخراً مستهزئاً، فيطلب إلى هامان أن يبني له صرحاً شامخاً، وبُرجاً مرتفعاً في عَنان السماء، عسى أن يطرق بيده أبواب السماوات، و «يطَّلِعَ إلى إلَاه مُوسَىٰ» على حد تعبيره الذي حكاه عنه كتاب الله، إذ أن فرعون في ذلك الوقت لم يكن يعترف بإلَه موسى إلَهاً له وللعالَمين، فضلاً عن أن يعترف بصدق موسى وكونه من المرسلين، وإلى هـذه المواقف تشير الآيات التالية: ﴿ وَلَقَدَ اَرسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ اِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَـٰنَ وَقَارُونَ، فَقَالُواْ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ، فَلَمَّا جَآءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ اقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ اَلذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ، وَاسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ﴾، ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيَ أَقْتُلْ مُوسَىٰ، وَلْيَدْعُ رَبَّهُ، إِنِّيَ أَخَافُ أَنْ يُّبَدِّلَ دِينَكُمْ، وَأَنْ يُّظْهِرَ فِي اِلْاَرْضِ اِلْفَسَادَ، وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُومِنُ بِيَوْمِ اِلْحِسَابِ ﴾، ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمُ إِلَّا مَآ أَرىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمُ إِلَّا سَبِيلَ اَلرَّشَادِ ﴾، ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَامَـٰنُ ابْنِ

لِي صِرْحاً لَّعَلِّيَ أَبْلُغُ اَلاَسْبَٰبَ أَسْبَٰبَ اَلسَّمَٰوَٰتِ، فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ، وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَٰذِباً﴾.

وجاء تعقيب الآيات على قصة فرعون، وخطته الماكرة للقضاء على موسى والتخلص من دعوته، بما يؤكد فشل خطة فرعون ورجاله بدءاً وختاماً، وذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِ، وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ، وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾، وقولُه تعالى من قبل: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾.

ويبرز كتاب الله في وسط هذه المعركة القائمة بين الحق والباطل، ما تركته دعوة موسى - رغماً عن مقاومة فرعون ورجاله - من الأثر العميق والحميد بين آل فرعون أنفسهم وبعض قرابته الأقربين، فالبذرة الصالحة مَتى وجدت تربة طيبة أسرثت إلى النمو فوراً، ذلك أن رجلا من آل فرعون قد شرح الله صدره للإيمان بما جاء به موسى من عند الله، لكنه كَتَم إيمانه عن فرعون فترة من الزمن، ولم يعلنه لأحد من الناس، وبدافع من إيمانه الخفي المكتوم أخذ على عاتقه الدفاع عن موسى حتى لا يناله أذى فرعون، وبسبب تدخله لم يُقدِم فرعون على تنفيذ حكم الأعدام في موسى، بل إن هذا المؤمن من آل فرعون مضى في سبيل الدفاع عن عقيدته الإيمانية الجديدة خُطوة أبعد، فأخذ يمهد السبيل ويهيء الجوّ، حتى يتمكن موسى من أن ينشر دعوته بين الناس وهو آمن على نفسه وعلى دعوته، دون مضايقة ولا متابعة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤمِنٌ مِّنَ ـالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا اَنْ يَّقُولَ رَبِّيَ اَللَّهُ، وَقَدْ جَآءَكُم

بِالْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ، وَإِن يَكُ كَٰذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ، وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الذِي يَعِدُكُمْ ﴾.

وينص كتاب الله على أن مؤمن آل فرعون ـ وإن كان لم يعلن إيمانه بموسى في الحين ـ فقد تولى بنفسه نشر جزء مهم من دعوة موسى بين أعضاء الحاشية التابعة لفرعون، بصفة أنه مجرد «ناصح لقومه أمين» لا بصفة كونه تابعاً من أتباع موسى وصحبه، وذلك ما تحكيه الآيات الكريمة على لسان «مؤمن آل فرعون» نفسه إذ يقول: ﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ، ظَٰهِرِينَ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ يَّنْصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ اِللَّهِ إن جَآءَنَا ﴾، ﴿ وَقَالَ اَلذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ اِلْاحْزَابِ، مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ، وَمَا اَللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ، وَيَٰقَوْمِ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ اَلتَّنَادِ، يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اَللَّهِ مِنْ عَٰصِمٍ ﴾، ﴿ وَقَالَ اَلذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ اِتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ اَلرَّشَادِ، يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ اِلْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا مَتَٰعٌ، وَإِنَّ اَلْاخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾.

ومُؤمنُ آل فرعون باختياره لهذا التعبير بالخصوص وهو: ﴿ اِتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ اَلرَّشَادِ ﴾، كان يقصد، من بعيد، إبطالَ ما ادعاه فرعون أمام قومه عندما قال لهم مضللاً مزوّراً: ﴿ مَآ أُرِيكُمُ إِلَّا مَآ أَرىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمُ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾، وذلك لنقض ادعائه الباطل، وهكذا أيد الله موسى وهو يصارع فرعون ويقارعه، فلم تذهب دعوته سُدىً، ورزقته العناية الإلّهية من بين آل فرعون أنفسهم سنداً وَمَدداً.

ومما يحسن التنبيه إليه من مفردات هذا الربع كلمة «سُلْطَٰنٍ»، وكلمة «اِلَاحْزَابِ»، وكلمة «اَلتَّنَادِ»، فقد وردت كلمة «سُلْطَٰن»، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدَ اَرْسَلْنَا مُوسى بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ ثم في قوله تعالى: ﴿اِلذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِي ءَايَٰتِ اِللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ اَتَيٰهُمْ﴾،

والمراد بها في كلتا الآيتين: الحجة والبرهان، التي تفرض نفسها على الخصم، ولا يسعه عند سماعها إلّا الاقتناع والإذعان، ووردت كلمة «اِلَاحْزَابِ»، في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اَلذِيَ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ اِلَاحْزَابِ، مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ، وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾، وكما استعملها كتاب الله في «سورة الأحزاب» للتعبير عن المجتمعين الذين تحالَفوا على محاربة النبي ﷺ والمؤمنين، استُعملت في هذا الربع وغيره من بقية السُّور، للتعبير عن جميع من تَحَزَّبوا على أنبياء الله ورسله، وتصدَّوا لهم بالمعارضَة والمقاومة في مختلف الأجيال والعصور، فكان لكل «حزب» منهم يومه الموعود، ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ اَلَاحْزَابِ﴾ (٣٨: ١١)، ووردت كلمة «اَلتَّنَادِ»، في قوله تعالى على لسان مؤمن فرعون: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ اَلتَّنَادِ﴾، وهي مصدر: «تَنادَى القومُ، أي نادى بعضُهم بعضاً. قال ابن عباس وغيره: «التناد» خفيفة الدال، هي التنادي، والمراد «بيوم التناد» يوم القيامة، وسمي بذلك لما يقع فيه من نداء الناس بعضهم بعضاً عند قيام الساعة والتوجه إلى المحشر، وما يقع فيه من مناداة كل قوم بأعمالهم عند الحساب،

ومناداةِ أهل النار لأهل الجنة: ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَـٰبُ النَّارِ أَصْحَـٰبَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ، قَالُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَـٰفِرِينَ ﴾ (٧: ٥٠)، ومناداةِ أهل الجنة لأهل النار: ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَـٰبُ الْجَنَّةِ أَصْحَـٰبَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً، فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً، قَالُواْ نَعَمْ ﴾ (٧: ٤٤)، ومناداةِ: «أَصْحَابِ الأَعْرَافِ»، للوافدين عليهم لتمييز أهل الجنة من أهل النار، ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَـٰبُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ﴾ (٧: ٤٨)، قال ابن كثير: (واختار البغوي أن يوم القيامة سمي «بيوم التناد» لِمجموع هذه المعاني، وهو قول حسن جيد، والله أعلم).

# الربع الأول من الحزب الثامن والأربعين في المصحف الكريم

وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾
تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ
عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ
أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي
ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ
ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ
إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ
مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾
ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ
أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ
فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا
لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ
حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ
جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾
قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ
قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾
إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ
وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى
الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى
وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ
حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ
وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ
بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ
مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ
مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا يَتَذَكَّرُونَ ٥٨
إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يُؤْمِنُونَ ٥٩ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ
إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ
دَاخِرِينَ ٦٠ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا
فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ٦١ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ
خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ٦٢
كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ٦٣
اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً
وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ
ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٦٤
هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٦٥

# الربع الأول من الحزب الثامن والأربعين في المصحف الكريم

## عبــاد الله

موضوع حديثنا اليوم هو الربع الأول من الحـزب الثامن والأربعين في المصحف الكريم ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَيَـٰقَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، اَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ اِلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

لا تزال الآيات البيّنات تحكي في هذا الربع ذيول قصة موسى وفرعون، وتصف الدور الإيماني الكبير الذي اضطلع به «مؤمن آل فرعون» بعدما كان يكتم إيمانه بموسى ورسالته، فانتقل تدريجياً من مرحلة الكتمان، إلى مرحلة الجهر بالإيمان، وأخذ يوجه النقد اللاذع لما عليه فرعون وقومه من معتقدات باطلة، لا علاقة لها بالحق والصدق، لا من قريب ولا من بعيد، مبيناً لهم أن ما يَدْعُونه ويعبدونه من دون الله لا يضر ولا ينفع، وأن التعلق بغير الله محض ضلال وخبال، وذلك قوله تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون بعد ما جهَـر بإيمانه: ﴿ وَيَـٰقَوْمِ مَالِيٓ أَدْعُـوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى اَلنَّارِ، تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ، وَأَنَآ أَدْعُوكُمْ إِلَى اَلْعَزِيزِ اِلْغَفَّـٰرِ، لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ

إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ، وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ، فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ، وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

ثم يشير كتاب الله إلى العناية الإلهية التي عصمت «مؤمن آل فرعون» من أذى فرعون ومكره، كما عصمت موسى من قبله، فلم تمتد إليه يد فرعون بالقتل والتعذيب، بينما تَعرَّض فرعون ورجاله لعقاب الله وعذابه، فكانوا مضرب الأمثال لمن بعدهم من أهل الكِبْر والجبروت، وذلك قوله تعالى عن مؤمن فرعون أولاً: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾، وعن آل فرعون ثانياً: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾، يستفاد منه أمران:

الأمر الأول: أن فرعون وآله ممن كذَّبوا موسى ولم يؤمنوا برسالته يعذبون باستمرار، عقاباً لهم من الله، فأرواحهم تُعرَض على النار صباحاً ومساءً منذ عوقبوا بالغَرَق إلى قيام الساعة.

الأمر الثاني: أنه إذا قامت القيامة ووقع النشر والحشر والحساب فإن الحق سبحانه وتعالى يأمر خَزَنة جهنم بأن يدخلوا فرعون وآله أشد العذاب ألماً، وأعظمه نكالاً، جزاءً وفاقاً. قال ابن كثير في تفسيره: «وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور، وهي قوله تعالى: ﴿النَّارُ

يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً ﴾»، ثم بيّن ابن كثير: أن هذه الآية إنما دلت على عرض الأرواح على النار غدواً وعشياً في البرزخ، وليس فيها دلالة على اتصال تألمها بأجسادها في القبور، إذ قد يكون ذلك مختصّاً بالروح، فأما حصول ذلك للجسد في البرزخ وتألمه بسببه فلم تدل عليه إلّا السنة، قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عُرِض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال هذا مقعدُك، حتى يبعثك الله عز وجلّ إليه يوم القيامة»، أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث مالك عن نافع عن ابن عمر.

ويعقِّب كتاب الله على ما يتعرض له الأنبياء والرسل ومن آمن بهم من المحن والمتاعب، مبيناً ما ينالهم في النهاية، بعد الثبات والصبر، من الفوز المبين، والنصر المكين، إذ يقول الحق سبحانه وتعالى في صيغة من التأكيد لا تأكيد فوقها: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالذِينَ ءَامَنُواْ فِي اِلْحَيَوٰةِ اِلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الاَشْهَـٰدُ، يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ، وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدّارِ ﴾.

ويصف كتاب الله ـ بمناسبة ذكره لقصة موسى وفرعون ـ ما يكون عليه يوم القيامة حالُ الأقوياء الضالين المضلين، وحال الضعفاء من أتباعهم المستضعفين، حيث يحتج الأتباع على المتبوعين والمَرْءُوسون على الرؤساء، طالبين منهم أن يتحملوا عنهم بعض أثقالهم، وأن يقوموا مقامهم في أخذ نصيبهم من العقاب والعذاب، إذْ أنهم إنما ذهبوا ضحية تضليلهم، وفريسة أغوائهم،

لكن كُبَرَاءهم الذين استكبروا عن قبول دعوة الحق يجيبونهم صاغرين محْزونين، معتذرين لهم بأنهم هم أيضاً لهم نصيبهم من النار، بل إن نصيبهم من العذاب أكبر وأشد، على قدر ضلالهم في أنفسهم وإضلالهم لغيرهم، إذ كانوا قدوة سيئة «فالمرء في ميزانه أتباعه»، ومن سنَّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» كما قال عليه الصلاة والسلام، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي اِلنَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَٰؤُاْ لِلذِينَ اَسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبعاً فَهَلَ اَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ اَلنَّارِ؟ قَالَ اَلذِينَ اَسْتَكْبَرُوٓاْ: إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ، إِنَّ اَللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ اَلْعِبَادِ﴾.

ثم تنتقل الآيات الكريمة للحديث عن بعض المفارَقات التي تبرز بين المعذبين في النار، فها هم أولئك الذين كانوا طيلة حياتهم يسخَرون من الإيمان والمؤمنين، ويستهزئون بالرسالة والرسل، ويكفرون بالله أو يشركون به غيره، يعُودون في دار العذاب إلى صوابهم، ويدركون ما هم عليه من الضعف والهوان، لكن بعد فوات الأوان، ويمدُّونَ يَد الضراعة إلى «خَزَنة جهنم» أنفسهم، طالبين منهم صالح الدعاء، عسى أن يخفف الله عنهم العذاب ولو يوماً واحداً، إلّا أن «خَزَنة جهنم» يوجهون إليهم سؤال استفسار واستنكار في وقت واحد، إذ يسألونهم عن الرسل هل جاؤوهم بالبينات؟ هل بلَّغوهم الرسالة أم لا؟ فلا يسع ضيوف جهنم أيّ إنكار أو استنكار، بل يعترفون بأن الرسل قد بلَّغوا رسالاتهم عن الله كاملة غير منقوصة، وحينئذ يأمر خَزَنَةُ جهنم أولئك المعذبين أن يتولوا الدعاء لأنفسهم بأنفسهم، ويرفضون

الدعاء لهم، إذ لا يستطيعون التدخل في شأنهم، ولا الشفاعة فيهم لتخفيف العذاب، وهم يعرفون مُسْبَقاً أن دعاء الكافرين الذين لم يتوبوا من كفرهم ـ وهم في حياتهم ـ لا يقبل ولا يستجاب، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اَلذِينَ فِي اِلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ اَدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ اَلْعَذَابِ، قَالُوٓاْ: أَوَ لَمْ تَكُ تَاتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَٰتِ. قَالُواْ: بَلَىٰ: قَالُواْ فَادْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ الْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾.

وتناولت آيات هذا الربع بالإشارة ذكر موسى عليه السلام، وذكر بني إسرائيل قبل أن ينحرفوا ويُحرِّفوا، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدَ ـاتَيْنَا مُوسَى اَلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ اَلْكِتَٰبَ، هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي الاَلْبَٰبِ﴾. ثم اتجهت الآيات الكريمة إلى مجابهة منكري البعث الذي يُصِرُّون على إنكاره دون حجة ولا برهان، كِبْراً منهم عن الانقياد للحق، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اَلذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ اِللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ اَتَيٰهُمُ، إِن فِي صُدُورِهِمُ إِلَّا كِبْرٌ﴾، وتعبيراً عما تُمْنَى به مخططاتهم من خيبة وفشل، قال تعالى في نفس السياق: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾، وأتبعه بقوله: ﴿لَخَلْقُ السَّمَٰوَٰتِ وَالاَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ اِلنَّاسِ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ اَلنَّاسِ لَا تَعْلَمُونَ﴾. إشارةً إلى أن خلق السماوات والأرض أكبر مما يستغربون منه ويتعجبون من أمره، وهو بعث الناس وخلقهم مرة أخرى بعد أن صاروا رميماً، على أن هذه الآية تتضمن في نفس الوقت حقيقة كونية كبرى هي تحديد «مركز الإنسان» بالنسبة إلى بقية الأكوان، حتى لا يداخله الزَّهْوُ والغرور، ولا يضع مقادته بيد الشيطان «الغَرُور».

وقولُه تعالى: ﴿ ادْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾، معناه أستجبْ لكم إن شئت، بدليل قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ بَلِ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ ﴾ (٦: ٤١)، والاستجابة تكون إما بنفس الشيء، وإما بما هو خير منه، وتكون عاجلة كما تكون آجلة، ومفتاح الدعاء: الحاجة والاضطرار، وشرطه: الأكل من الحلال، وقد تكون الاستجابة بصرف السوء عن الداعي، قال عليه السلام: «ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلاّ آتاه الله تعالى إياها، أو صرف عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم» رواه الترمذي والحاكم.

ومضى كتاب الله يعرض على الإنسان جملة من آياته الكونية، وبراهينه الفطرية، متحدثاً عن تعاقب الليل والنهار، الذي جعله الله موافقاً لنظام حياة الإنسان كل الموافقة، وعن تكوين السماء والأرض، المطابق لتكوين الإنسان والمستجيب لاحتياجاته كل المطابقة، فقال تعالى: ﴿ اَللَّهُ الذِي جَعَلَ لَكُمُ اُليْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً ﴾ وقال تعالى: ﴿ اَللَّهُ الذِي جَعَلَ اَلاَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾.

ونظراً لما يتعرض له الإنسان، ويسيطر عليه من الغفلة والنسيان، ذكَّره كتاب الله بما أسبغ عليه من النعم، وما منحه من واسع الكرم، فقال تعالى في نفس اليساق: ﴿ إِنَّ اَللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى اَلنَّاسِ، وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ اَلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ، وَرَزَقَكُم مِّنَ اَلطَّيِّبَـٰتِ ﴾، وفي هذا الخطاب الموجه بالخصوص إلى الناس، من «رب الناس ملك

الناس» غاية الإكرام والتكريم، لمن جعله الله خليفة في الأرض وأنزل عليه الذكر الحكيم، وقال في حقه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

وجاء مسك الختام مُطَابقاً لما يوحي به المقام، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ، فَتَبَـٰرَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ، هُوَ ٱلْحَيُّ، لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ، فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ. ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

# الربع الثاني من الحزّب الثامن والأربعين في المصحف الكريم

قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ
أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ
مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾
هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ
ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟
شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى
وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ
أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ
يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾
إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى
ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا

كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ
نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾
ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ
تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى
الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ
بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ
وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن
يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ
وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا
مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ
تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾
أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي
الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ
ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡاْ
بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾
فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ
ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا
لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾
وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ
بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ
يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ
وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ
كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٨﴾

# الربع الثاني من الحزب الثامن والأربعين في المصحف الكريم

## عبـــاد الله

حصة هذا اليوم تتناول الربع الثـاني من الجزب الثـامن والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة غـافر المكيـة: ﴿ قُلِ اِنِّي نُهِيتُ أَنَ اَعْبُـدَ اَلذِينَ تَـدْعُـونَ مِن دُونِ اِللَّهِ ﴾، إلى قوله جلَّ علاه في سورة فصلت المكية أيضاً: ﴿ إِنَّ اَلذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمُ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾.

في هـذا الربـع يتجدد الحـديث عن جملة من الحقائق الإيمانية، تثبيتاً لها في النفوس، وتركيزاً لها في العقول:

من جملتهـا قصة حيـاة الإنسان، ووصف نشـأتـه الأولى وتطوره في مختلف الأطوار.

ومن جملتها وصف حالـة الأنبياء والـرسل، ومـا يعترض طريقهم من العقبات، وما يلزمهم في سبيل إبلاغ الرسالة الإلّهية من العزم والثبات والصبر، وما يؤول إليه أمرهم من الفوز والغَلَبة والنصر.

ومن جملتها ما يحُلُّ بساحة المعاندين الذين يجادلون في آيات الله ويتحدون رسله، من الهلاك والدمار في دار الدنيا، وما

يحاولونه في آخر ساعة من تدارك للإيمان، بعد فوات الأوان، ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا، سُنَّتَ اَللَّهِ اِلتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ اَلْكَـٰفِرُونَ ﴾.

ومن جملتها ما ينتظر المكذبين بالله وكتبه ورسله من الوعيد الشديد في الدار الآخرة، ﴿ فَإِذَا جَاءَ امْـرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ اَلْمُبْطِلُونَ ﴾.

وأول آية من هذا الربع هي خطاب من الله تعالى لنبيه يُلَقِّن فيها رسوله كيف ينبغي له أن يرد على المشركين، مسَفِّهاً سعيهم لحمله على مهادنة الشرك وعدم التعرض لعبادة الأصنام والأوثان، وقاطعاً لهم كل أمل في الإبقـاء على المعتقدات الـزائغة التي يدينون بها، والتقاليد الزائفة التي يقدسونها، وهذه الآية تتضمن في نفس الوقت بيان السبب الرئيسي الذي من أجْله أشهر الرسول عليه الصلاة والسلام حرباً شعواء على الشرك والمشركين، فقد أنزل الله عليه من البينات الصارخة، والحجج القارعة، منذ اختاره رسـولاً إلى العالمين، مـا يهدم صـروح الشرك، ويدُكُّ قـلاع المشـركين، وقد أمـره الله أن يحرر البشـرية كلهـا من أغـلال الشـرك بالله، وأن يعيـدها إلى فـطرتهـا الأولى، وهي الإسـلام والاستسلام لله، ﴿ فِطْرَتَ اَللَّهِ اِلتِي فَطَرَ اَلنَّاسَ عَلَيْهَا، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اِللَّهِ ﴾ (٣٠: ٣٠)، وذلك قوله تعالى مخاطباً لنبيه وملقناً: ﴿ قُلِ: اِنِّي نُهِيتُ أَنَ اَعْبُدَ اَلذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اِللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ اَلْبَيِّنَـٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنُ اسْلِمَ لِرَبِّ اِلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

وتـأتي آية أخـرى تذكِّـر الغافلين من بني الإنسـان ـ وما

أكثرهم - بما لله من أسرار وآثار في نشأتهم الأولى ونشأتهم الآخرة، وما يتقلبون فيه من حالات وأطوَار، قبل خروجهم من بطون أمهاتهم وحلولهم بهذه الدار، إذ أنهم على الرغم من مشاهدتهم لقصة الحياة والموت على مر الأيام، وعلى الرغم من عجزهم البالغ أمام هذه القصة السَّرْمدية، المتكررة في كل لحظة وثانية، وعلى الرغم من جهلهم الفاضح بأسرارها وأطوارها، وبداياتها ونهاياتها، لا يتذكرون ولا يعتبرون، وفي آيات الله البارزة، وحججه البالغة، لا يزالون يجادلون، وذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ اَلذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ، ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ، ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً، ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ، ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخاً، وَمِنكُم مَّنْ يُّتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ، وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلاً مُّسَمّىً، وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، هُوَ اَلذِي يُحْيِ ، وَيُمِيتُ، فَإِذَا قَضىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن، فَيَكُونُ، أَلَمْ تَرَ إِلَى اَلذِينَ يُجَـٰدِلُوْنَ فِيٓ ءَايَـٰتِ اِللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾.

وقولُه تعالى في نفس هذه الآية: ﴿ وَلَعَلَكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ بعد قوله: ﴿ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلاً مُّسَمّىً ﴾ وقبل قوله: ﴿ هُوَ اَلذِي يُحْيِ وَيُمِيتُ ﴾ فيه إشارةٌ صريحة إلى أن الإنسان متى فكر في مراحل نشأته وحياته وموته بعقل يَقِظ، وبصيرة نافذة، عرف الله حق المعرفة، وآمن به حق الإيمان، وأحس من أعماق قلبه أنه عاجز أمام القوة الإلَهية لا يستطيع لتصرفها رداً ولا دفعاً، وأنه مدين لها بكل مَلَكاته وجوارحه، وبجميع النعم التي يتقلب فيها، وأن الله قد أحسن إليه وفيه صنعاً.

وفي هذا الربع آية كريمة لا بدّ من الوقوف عندها وقفة

خاصّة، ذلك أن طائفة كبيرة من الناس بلغ بها الكِبْر والأنانية إلى حد أن تستغرق حياتها في المُتَع واللذات، وتستنفد طاقتها في الجري وراء الشهوات، فهي لا تفكر في الليل أو النهار، إلّا في قضاء ما لـذّ لها وطاب من مختلف الأوطار، ناسية ما وراء ذلك من الـواجبات والتَّبِعات، والحقـوق التي عليهـا نحو الله ونحـو الناس، حتى إذا ما حان حينها، ووافاها الأجل، أدركت أنها لم تتزود بأي زاد، ووجدت رصيدها في حالة يرثى لها من الخُسرَان والإفـلاس، وإلى هذه الـطائفـة التي بلغت الغـايـة في الغفلة والتغفيل، ومن شابهها من الأنانيين والمتكبرين، يشير قوله تعالى: ﴿ ذَالِكُم بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي اِ۬لَارْضِ بِغَيْرِ اِ۬لْحَقِّ، وَبِمَا كُنتُمْ تَمْـرَحُـونَ، اَدْخُلُوٓاْ أَبْـوَابَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَـا، فَبِيسَ مَثْـوَى اَ۬لْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.

وأمامَنا آية أخرى تعتبر أكبر عُدَّة لدعاة الحق، الصابرين المصابرين من الأنبياء والرسل وأتباعهم الصـادقين، ومضمونهـا الدعوة إلى الثبات على الحق، وإلى التفاني في نشره ونصره، والدفاع عنه مهما كلف من التضحيات والمتاعب، وهي في آن واحد تجديد لعهد الله القاطع، بنصر من نصره، وتأكيد لوعده الصادق، بغلبة أهل الحق وهزيمة أهل الباطل، وهي في نفس الوقت بشارةٌ من الله لجنده، بأنهم سيجنون بعض ثمرات جهدهم وهم على قيد الحياة، وأنهم سيرون انتصار الحق وزهوق الباطل رأي العين، وذلك قوله تعالى في خطابه لنبيه، ولكل من سار على نهجه القويم في حمل الأمانة: ﴿ فَاصْبِرِ اِنَّ وَعْدَ اَللَّهِ حَقٌّ، فَإِمَّا

نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾، وكما حقق الله وعده، ونصر جنده فيما مَضى، فدان بدينه العرب والعجم، ودخلت فيه عدة شعوب وأمم، فسيحقق وعده فيما يستقبل من الأيام، وسيظهر الله دينه الحق في مشارق الأرض ومغاربها، وسيحفظ «ذكره الحكيم» إلى أن يرث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

أما «سورة فصلت المكية» التي تقع بدايتها في آخر هذا الربع، فقد تحدثت آياتها الأولى أولاً عن كتاب الله العزيز ونزوله باللسان العربي المبين، والحكمةِ في نزوله على رسوله الصادق الأمين، وثانياً عن أول موقف وقفه المشركون من كتاب الله، عندما كانت حُجُب الشرك الغليظة لا تزال تحول بينهم وبين الاهتداء بنوره، وثالثاً عن الجواب «الحليم الحكيم» الذي أجابهم به رسول الله وهو يدعوهم إلى الحق، ويتفانى في سبيل هدايتهم وهداية بقية الخلق، ورابعاً عَرضت نموذجاً من «النذارة» التي وجهها القرآن الكريم إلى المشركين ومن سار على نهجهم، ونموذجاً من «البشارة» التي وجهها إلى المؤمنين الأولين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

ففيما يخص النقطة الأولى جاء قوله تعالى: ﴿حمٓ. تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ، كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ ويَبرُزُ «تفصيل آياته» البينات فيما ورد منها في وصف ذات الله وصفاته وعجائب خلقه في الأنفس والآفاق، وفيما ورد منها في التكاليف المتعلقة بالقلوب

والجوارح، وحقوق الله وحقوق العباد، وفيما ورد منها في الوعد والوعيد، والثواب والعقاب، ودرجات أهل الجنة ودركات أهل النار، وفيما ورد منها في تهذيب الأخلاق ورياضة النفوس والنصائح والمواعظ، وفيما ورد منها في قصص الأولين وتواريخ الماضين، إلى غير ذلك من الموضوعَات والمباحث، قال فخر الدين الرازي: «وبالجملة، فمن أنصف عَلِم أنه ليس في يَدِ الخلق كتاب اجتمع فيه من العلوم المختلفة والمَباحث المتنوعة مثل ما في القرآن».

وفيما يخص النقطة الثانية جاء قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، وصَوَّر كتاب الله أروع تصوير رفض المشركين لقبول الحق واعتناقه، وتقززهم من سماعه، والهُوَّة السحيقة التي تفصل بينهم وبين عقيدة التوحيد التي جاء بها الرسول، فقال حكاية عنهم: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾، مثل قولهم في آية أخرى (٢ : ٨٨) ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ﴾، و«الأكنة» جمع «كِنان» وهو الغطاء، و«الغلف» جمع «غلاف» وهو الغشاء، ﴿وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾، أي: صمم ﴿وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾.

وفيما يخص النقطة الثالثة حكى كتاب الله جواب رسوله لهم متلطفاً ومتعطفاً، طبقاً لمقتضى الحكمة والموعظة الحسنة، ﴿قُلْ: إِنَّمَا أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحىٰ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ، فَاسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾.

وفيما يخص النقطة الرابعة قال تعالى في كتابه بصفته

«نذيراً»: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾، وقال تعالى في كتابه بصفته «بَشيراً»: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾.

# الربع الثالث من الحزب الثامن والأربعين في المصحف الكريم

قُلَ اَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالذِے خَلَقَ اَ۬لَارْضَ فِے يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ
لَهُۥٓ أَندَاداٗۖ ذَٰلِكَ رَبُّ اُ۬لْعَٰلَمِينَۖ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن
فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِے أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءٗ
لِّلسَّآئِلِينَۖ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اَسْتَوَىٰٓ إِلَى اَ۬لسَّمَآءِ وَهْيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا
وَلِلَارْضِ إِيتِيَا طَوْعاً اَوْ كَرْهاٗۖ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَۖ ﴿١١﴾
فَقَضَيٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٖ فِے يَوْمَيْنِ وَأَوْحَيٰ فِے كُلِّ سَمَآءٍ
اَمْرَهَاۖ وَزَيَّنَّا اَ۬لسَّمَآءَ اَ۬لدُّنْيا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظاٗۖ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ اُ۬لْعَزِيزِ
اِ۬لْعَلِيمِۖ ﴿١٢﴾ فَإِنَ اَعْرَضُواْ فَقُلَ اَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةٗ مِّثْلَ صَٰعِقَةِ
عَادٖ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ اُ۬لرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ
خَلْفِهِمُۥٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا اَ۬للَّهَۖ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ
فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَۖ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٞ فَاسْتَكْبَرُواْ فِے اِ۬لَارْضِ
بِغَيْرِ اِ۬لْحَقِّ وَقَالُواْ مَنَ اَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ اَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اَ۬للَّهَ اَ۬لذِے

خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ
عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ
لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ
فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾
وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ
ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ
عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾
وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ
كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ
تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ
وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ
ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾
فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾

# الربع الثالث من الحزب الثامن والأربعين في المصحف الكريم

**عبـــاد الله**

موضوع حديث اليوم هو الربع الثالث من الحزب الثامن والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿قُلْ اينَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالذِي خَلَقَ اَلاَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنداداً، ذَالِكَ رَبُّ الْعَـٰلَمِينَ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَّصْبِرُواْ فَـالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ، وَإِنْ يَّسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّن اَلْمُعْتَبِينَ﴾.

يتحدث هذ الربع لأول ما يبدأ، مخاطباً الكافرين المصرِّين، على كفرهم عِناداً واستكباراً، مستغرِباً موقفهم الشاذ الذي ليس مفهوماً بالمرة، ذلك أنهم عِلاوة على ما يجهلون من أسرار أنفسهم وما لله فيها من آيات قائمة ـ وهي أقرب شيء إليهم ـ يجهلون أو يتجاهلون كل ما حولهم من العوالم والأكوان، فهم في غفلة عنها معرضون، فلا عيـون متفتحة، ولا عقول متبصرة، ولا قلوب مستيقظة، وهذه الأرض بكل من عليها، وتلك السماء بكل ما فيها، لا تثير في نفوسهم أية رغبة في الاستطلاع، ولا تُنيرُ في ضمائرهم شعلة الإيمان، رغماً عما فيهما من دلائل القدرة ومظاهر الإبداع، وذلك قوله تعالى: ﴿قُلَ اَينَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالذِي خَلَقَ

اَلاَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنداداً، ذَلِكَ رَبُّ الْعَـٰلَمِينَ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا، وَبَـٰرَكَ فِيهَا، وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ، ثُمَّ اَسْتَوَىٰ إِلَى اَلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلاَرْضِ : اِيتِيَا طَوْعاً اَوْ كَرْهاً. قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ، فَقَضَيْـهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ، وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا. وَزَيَّنَّا اَلسَّمَآءَ اَلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ، وَحِفْظاً. ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾. وها هنا يحسن بنا أن نلفت النظر إلى أن «أيام الله» التي تشير إليها هذه الآيات، بالنسبة لخلق الأرض والسماوات، لا تُقدَّر بقدر أيامنا التي نعرفها في كوكبنا الأرضيّ الخاص، بل هي من نوع آخر يعلمه خالق الزمان والمكان، علىٰ حد قوله تعالى في سورة الحج (٤٧): ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾، وقوله تعالى في سورة السجدة (٥): ﴿ يُدَبِّـرُ الاَمْرَ مِنَ السَّمَـآءِ إِلَى اَلاَرْضِ، ثُمَّ يَعْـرُجُ إِلَيْهِ فِي يَـوْمٍ كَانَ مِقْـدَارُهُ أَلْفَ سَنَـةٍ مِّمَّـا تَعُدُّونَ ﴾.

ومفاد هذه الآيات التي نحن بصدد تفسيرها اليوم: أن الله قد خلق الأرض بما عليها في أربعة أيام من «أيام الله» فَخَلْقُ أصلِ الأرض تَمَّ بأمر الله في يومين، وإليه يشير قوله تعـالى: ﴿ الذِي خَلَقَ اَلاَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾، وخَلْقُ ما عليها تَمَّ بأمر الله في يومين آخرين، وبهما كمل خلق الأرض أصلاً وفرعاً، وتم عدد الأيام المحددة لخلقها أربعة، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا ﴾، إشارةً إلى الجبال التي تُرسِي الأرض حتى لا تميد، ﴿ وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ

أيَّامٍ ﴾، أما خلق السماوات فقد تم بأمر الله في يومين اثنين، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ فَقَضَيٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾، ويرى بعض المفسرين من القدماء والمحدثين أن عدد «السبع» الوارد في كتاب الله عند ذكر السماوات لَا يُراد منه حصرها في نفس ذلك العدد ونفي ما سواه، حسبما يقتضيه المفهوم، وإنما هو وارد على حد قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَّغْفِرَ اَللَّهُ لَهُمْ ﴾، فالسبع في تلك الآية كالسبعين في هذه الآية، ومن يدري فقد تكشف الأيام من أسرار الكون مَا يوضح معنى «السبع» الوارد في غير ما آية فِي كتاب الله، ومن بينها قوله تعالى في سورة الطلاق: (١٢) ﴿ اِللَّهُ الذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ، وَمِنَ اَلْاَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾، فالكون لا يزال لغزاً كبيراً، ولا يُشكِل على تفسير الآيات التي هي موضوع هذا الحديث قوله تعالى في سورة النازعات (٢٧ ـ ٣٣): ﴿ ءَآنتُمُ أَشَدُّ خَلْقاً اَمِ اِلسَّمَآءُ. بَنَيٰهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّيٰهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَيٰهَا، وَالاَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَيٰهَآ: أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَيٰهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَيٰهَا. مَتَٰعاً لَّكُمُ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾، لأن المعنى المقصود من هذه الآية كما أجاب به ابن عباس وذكره البخاري في صحيحه عند تفسيره لها: هو أن دَحْو الأرض وحده هو الذي كان بعد خلق السماء. وقد تولت الآية الكريمة نفسها تفسير معنى الدَّحْو حيث قالت: ﴿ دَحَيٰهَآ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَيٰهَا، وَالْجِبَالِ أَرْسَيٰهَا، مَتَٰعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾، وليس المقصود منها أن خلق أصل الأرض كان متأخراً، كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان.

أما قولُه تعالى في نفس السياق: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً، قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾، فمن المفسرين من حمله على أنه حوار حقيقي صحبته الحياة والإدراك والنطق الفعلي من الأرض والسماء، على غرار قوله تعالى في نفس السورة (٢١): ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا، قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، ومنهم من حمله على أنه مجرد مجاز، من باب ضرب المثل، أي لا يتعسر عليه سبحانه شيء مِمَّا خلقه، فله من خلقه ما أراده، والمقصود إنما هو تصوير أثر قدرته في المقدورات لا غير، دون أن يكون هناك خطاب ولا جواب.

وقولُه تعالى: ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ بعد قوله: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾، إشارةٌ إلى سَعَة رحمة الله، وبسط مائدة رزقه لكافة خلقه، دون تمييز بين طبقة وأخرى، ولا بين أمة وأخرى، فالبساط الإلّهي ممدود لجميع السائلين على السواء، على حد قوله تعالى في آية أخرى (١٤: ٣٤): ﴿وَءَاتَيٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾. وقولُه تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾، إشارةٌ إلى أن أقوات الخلق مقدرة في الأرض بتقدير إلّهي حكيم. ويوضح هذا المعنى قوله تعالى في سورة الحِجْر (٢١): ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُ، وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾.

وقولُه هنا: ﴿وَحِفْظاً ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾، ينظر إلى قوله تعالى في آية الكرسي: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ. وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا، وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾، فكما أن الله تعالى هو

الذي أبدع الأكوان، وخلق العوالم على غير مثال سبق، وجهزها بجميع ما قَدَّرَ احتياجَها إليه من النواميس والقُوَى والطاقات، تكفل هو سبحانه كذلك بإمدادها بعد إيجادها، وتعهد جلّ علاه بتدبيرها وصيانتها وحفظها من كل خلل، دون أن يؤثر ذلك كله على قدرته القاهرة، وحكمته الباهرة، في قليل ولا كثير.

ويتحدث كتاب الله مرة أخرى عن إعراض المشركين عن الحق، ويذكّرهم بما آل إليه أمر عاد وثمود، وما تعرضوا له من عذاب الله، جزاء إعراضهم عن الإيمان به وبرسله، ﴿ فَإِنَ اَعْرَضُواْ فَقُلَ اَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ، إِذْ جَآءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمُ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا اَللَّهَ ﴾، ويصف استكبارَ عاد عن قبول دعوة الحق، كما يصف استهتارَ ثمود، وتنكرها لهداية الله: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُواْ فِي اِلْأَرْضِ بِغَيْرِ اِلْحَقِّ ﴾، ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ، فَاسْتَحَبُّواْ الْعَمَىٰ عَلَى اَلْهُدَىٰ ﴾، رُوِي أن عتبة بن ربيعة ذهب إلى رسول الله ﷺ لينتقدَ عليه مخالفته لقومه، فلما تكلم عتبة قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ حمٓ ﴾، ومر في صدرها حتى انتهى إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِنَ اَعْرَضُواْ فَقُلَ اَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾، فأُرْعِد عتبةُ بن ربيعة، ووقف شَعَرُه، وأمسك على فم رسول الله ﷺ بيده، وناشده بالرَّحِم أن يمسك، وقال حين فارقه: «واللَّهِ لقد سمعت شيئاً ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، ولقد ظننت أن صاعقة العذاب على رأسي».

وتصف الآيات الكريمة حال أعداء الله وحال أوليائه في الدار

الآخرة:. ﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ، وَيَوْمَ نَحْشُرُ أَعْدَآءَ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾.

ويفضح الحق سبحانه وتعالى في ذلك المشهد الرهيب، أمام الملا، أعداءه وأعداء رسله، فضيحة كبرى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ. وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا؟ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ. وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ. وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾، وفي مثل هذا المعنى سبق قوله تعالى في سورة يس (٦٥): ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ، وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ، وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾.

# الربع الأخير من الحزب الثامن والأربعين
# في المصحف الكريم

وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ
عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ
إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا
ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى
كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ
فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾
وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ
وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ
ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ

ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ
وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾
وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي
مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ
بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ
وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ
إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ
فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ
ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ
وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ
إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ
رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَۤ ﴿٣٨﴾
وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا
ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ
كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ
عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ

ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ
يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ
إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ
أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ
ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى
وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ
عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى
ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ
بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ
وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

# الربع الأخير من الحزب الثامن والأربعين في المصحف الكريم

## عبـــاد الله

في حديث اليوم نتناول الربع الأخير من الحـزب الثامن والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾، إلى قوله تعالى جلّ علاه: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحاً فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ اَسَآءَ فَعَلَيْهَا، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾.

في بدَاية هذا الربع يتولى كتاب الله وصف دعاة الباطل وقرنائهم، ودعاة الحق وأوليائهم، بمـا يوضـح سِماتهم للنـاس جميعاً في جميع العصور:

أما دعاة الباطل فمن شأنهم إغواء الخلق، وإغراؤهم على مقاومة الحق، وهم معتزون بالباطل الذي هم عليه، مصرّون على التمسك به، لا يحاولون أن يعيدوا فيه النظر، ولا أن يستبدلوا به غيره أبداً، وبحكم الغواية التي اختاروا طريقها لا يجدون لهم أي أُنس أو متعة في الحياة، إلّا في معاشرة قرناء السوء ومتابعتهم، والثقة بوساوسهم في جميع الشؤون.

والشأن في «قرناء السوء» تشجيع قرينهم على الاندفاع في

طريق الباطل، وإعانته على إعداد مشاريع السوء بالنسبة للحاضر والمستقبل، وتزيين جميع ما قام به في الماضي من الأعمال والمساعي المنكرة، واستحسانها ولو بلغت أقصى غاية في الانحراف والشذوذ، فهم لا يُقدِّمون لقرينهم أي نصح، ولا ينيرون له أي طريق من طرق الخير، وإنما يزيدونه خبالاً في الفكر، وعماءً في البصيرة، إلى أن يسقط في مهاوي الهلاك، وتحق عليه كلمة العذاب، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ، فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، وَحَقَ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ، فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِم، مِّنَ اَلْجِنِّ وَالِانسِ، إِنَّهُمْ كَانُواْ خَـٰسِرِينَ ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى (٦: ١١٢): ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٓءٍ عَدُوّاً شَيَـٰطِينَ اَلانِسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمُ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ اَلْقَوْلِ غُرُوراً ﴾.

وفي نفس هذا السياق جاء كتاب الله بنموذج حيّ يوضح طريقة دعاة الباطل وقرناء السوء الملازمين لهم، ونوع الدعوات الضالة التي يقومون بها، وينشرونها بين الناس، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ اَلذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا اَلْقُرْءَانِ وَالْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾، فها هم أولاء يَدْعُون الناس لأن يقفلوا آذانهم عن سماع القرآن، أي يدعونهم لمقابلته بالإعراض والإهمال، والعناد وعدم الانقياد، إذ من شأن الإنسان مَتَى أصغى إلى الحق، واستمع إليه بانتباه وروِيَّة، أن يتمعن ويتدبر ويتأثر، فإذا لم يستمع إليه كان بِنَجْوة من تأثير الدعوة، وفي مأْمَن من مفعولها المنتظر، في أغلب الأحيان.

ثم ها هم أولاء يَدْعون الناس إذا اخترق القرآن أسماعهم ونفذ إليها بالرغم عنهم، أن يَلْغُوا فيه، ومعنى «اللغو» فيه: افتعال الضجيج والصفير والمكاء والتخليط، ومواجهتُه بالتعييب، والتشكيك، ومقابلته بالجحود والإنكار.

ولقد كانت هذه الطريقة، التي كشف كتاب الله عنها الستار، ولا تزال هي الطريقة التقليدية التي يتبعها دعاة الباطل وقرناؤهم لمحاربة أهل الحق، ومقاومة دعوتهم في كل زمان ومكان، فهم يأمرون أتباعهم المضلَّلين بالابتعاد عن دعاة الحق، ويتفادي الاحتكاك بهم، وعدم غشيان مجالسهم، فإذا أخذت دعوة أهل الحق في الانتشار، رغماً عنهم، تصدَّوْا لها بالنقض والتشكيك والمهاترات، وعملوا بكل الوسائل على خنقها وإغراقها في بحر لُجِّيٍّ من أمواج الباطل المتراكمة، لعلهم يغلبون الحق عن طريق الباطل، لكن الحق سبحانه وتعالى يتولى دعاة الباطل وقرناءهم، من الكفار فَمَن دونهم، بما هم أهل له من الخذلان والعقاب والعذاب، وذلك قوله تعالى في نفس السياق: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ اَلذِينَ كَفَرُواْ عَذَاباً شَدِيداً، وَلَنَجْزِيَنَّهُمُ أَسْوَأَ اَلذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، أي: أنه تعالى سيجزيهم بشر أفعالهم، وسيء أعمالهم. وبعدما يصفهم كتاب الله بأنهم «أعداء الله» يواصل الحديث عن الجزاء الذي ينتظرهم، ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ اَعْدَآءِ اِللَّهِ اِلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ، جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

ثم يشير كتاب الله إلى الحيرة والحسرة التي يكون عليها دعاة الباطل، من الكفر فما دونه، في دار العذاب، إذ يتساءلون

في جهنم عن قرنائهم الذين أعانوهم على الضلال، ضارعين إلى الله أن يُرِيَهم مكانهم في جهنم، متمنين على الله أن يكون أولئك القرناء أشدَّ منهم عذاباً، بل تحت أقدامهم في الدَّرك الأسفل من النار، لأنهم زينوا لهم أعمالهم، وأضلوهم ولم ينصحوهم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اَلذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا اَلذَيْنِ أَضَلَّـنَا مِنَ اَلْجِنِّ وَالِانسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا، لِيَكُونَا مِنَ اَلَاسْفَلِينَ﴾. ونقل ابن كثير في تفسيره عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن معنى ﴿اَلذَيْنِ أَضَلَّـنَا﴾، الوارد في هذه الآية بصيغة المُثَنَّى: إبليس من جهة، وابنُ آدم الذي قتل أخاه من جهة أخرى، واسمه قابيل، فإبليس يدعو بدعوته كلَّ صاحب شرك، وابن آدم القاتل لأخيه يدعو بدعوته كلَّ مرتكِب كبيرة، وثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما قُتِلَت نفسٌ ظلماً إلّا كان على ابن آدم الأول كِفل من دَمِها، لأنه أول من سن القتل.

وأما دعاة الحق فمن شأنهم الإيمان بالله، والاستقامة على هداه، والثبات على شرائط الإيمان بِجُملتها، دون الإخلال بأي شيء منها، وضربُ المثل الصالح لغيرهم، بِممارسة الأعمال الصالحة، والدعوةُ إلى الله دون انقطاع، وهم لا يعتزون بغير الإسلام، ولا ينتمون إلى ما سواه من المذاهب والأقوام، ولا يلتزمون نحو غيره بأيّ التزام، وفي سبيل الدعوة التي يقومون بها ويمارسونها يتحملون الأذى بصَدر رحب، فلا يقابلون الإساءة بمثلها، وإنما يَدْفعُون الإساءة بالإحسان، وإن كانوا أبعد الناس عن وصف

الضعف والهوان، وبذلك يؤثِّرون على النفوس الجامحة، فتُسلِس لهم قيادها، وتعود إلى رشدها، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحاً، وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ، ادْفَعْ بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَإِذَا الذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ، وَمَا يُلَقَّيهَآ إِلاَّ الذِينَ صَبَرُواْ، وَمَا يُلَقَّيهَآ إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾، قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: «أمَرَ الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحِلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوُّهم كأنه ولي حميم»، وقال عمر بن الخطاب: «ما عاقبْتَ مَن عصى الله فيك، بمثل أَنْ تُطِيعَ الله فيه» ومعنى ﴿ ادْفَعْ بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ادفع السيئة بالخَصْلة التي هي أحسن، فإذا أساء إليك أحد كانت «الحَسَنة» أن تعفو عنه ولا تعامله بالمثل، «والتي هي أحسن»: أن تحسن إليه مكان إساءته إليك، ومعنى ﴿ فَإِذَا الذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾: أنك إذا فعلت ذلك صافاك عدوّي واقترب منك، وأشبه الولي الحميم، وهذا لا يستلزم أن يصير ولياً مخلصاً بالمرة، ومعنى قوله: ﴿ وَمَا يُلَقَّيهَآ إِلاَّ الذِينَ صَبَرُواْ ﴾ ما يُلَقَّى هذه الخصلة ويقوم بحقها، أو ما يمتثل هذه الوصية ويعمل بها - وهي مقابلة الإساءة بالإحسان - إلّا من تعوَّد على الصبر في معاناة الخلق، على غرار قوله تعالى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (٤٢: ٤٣) ومعنى ﴿ وَمَا يُلَقَّيهَآ إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾: ما يلقاها إلّا ذو نصيب وافر من الخير والتوفيق.

وكما تحدث كتاب الله فيما سبق عن قرناء السوء الذين يُزيِّنون لدعاة الباطل أعمالهم، والذين يوحون إليهم بمحاربة الحق وأهله، وبيَّن موقف بعضهم من بعض في الدنيا والآخرة، تحدث كتاب الله أيضاً عن «أولياء» أهل الحق، الذين يثبِّتون قلوبهم، ويسددون خطواتهم، ويعينونهم على التزام الحق، والدعوة إليه، وتحمل الأذى في سبيله، حتى لا يحزنوا ولا يخافوا، وبيّن كتاب الله أن هؤلاء الأولياء الذين يتولون دعاة الحق في الدنيا والآخرة هم من الملائكة المقربين، وأنهم يتَنَزَّلون عليهم، ويكونون بجانبهم في مختلف المواقف، ولا سيما في المواقف الحرجة التي قد تزِلُّ فيها الأقدام، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللَّهُ، ثُمَّ اَسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِم اَلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِالْجَنَّةِ اِلتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ، نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنيا وَفِي اِلَاخِرَةِ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيَ أَنفُسُكُمْ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾، أي: مهما طلبتم وجدتم، وحضر بين أيديكم كما اخترتم ﴿ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾، أي: ضيافةً وعطاءً من غفور لذنوبكم، رحيم بكم، قال زيد بن أسلم في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَبْشِرُواْ بِالْجَنَّةِ اِلتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾، أنهم يُبشِّرون الداعي إلى الله عند موته، وفي قبره، وحين يُبعث. قال ابن كثير: «وهذا القول يجمع الأقوال كلها، وهو حَسَن جداً».

# الربع الأول من الحزب التاسع والأربعين في المصحف الكريم

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا
وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ
أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم
مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ
ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾
وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا
لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ
لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟
وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ
أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾
قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ
مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ

ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ
ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٥٣ أَلَآ إِنَّهُمۡ
فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ٥٤

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ١ عٓسٓقٓ ٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ
ٱلۡحَكِيمُ ٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٤
يَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَنفَطِرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ
رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ
ٱلرَّحِيمُ ٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ
وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ٦ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا
لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ
فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ
وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ
وَلَا نَصِيرٍ ٨ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ
ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٩ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ
إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ١٠

فَاطِرُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ
الْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ
لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

# الربع الأول من الحزب التاسع والأربعين في المصحف الكريم

**عبـــاد الله**

موضوع حديثنا اليوم تفسير الربع الأول من الحزب التاسع والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ في سورة فصلت المكية، إلى قوله جلّ علاّه: في سورة الشورى المكية أيضاً: ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَآءُ وَيَقْدِرُ، إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

والثمن الأول من هذا الربع، وهو خاتمة سورة فصلت المكية، يتناول بالذكر موضوعات أربعة.

الموضوع الأول: ما ينفرد بعلمه علاّم الغيوب دون خلقه، من المغيبات.

الموضوع الثاني: ما يكون عليه الإنسان من أحوال مختلفة، ومشاعر متباينة، في ظروف الشدة والرخاء.

الموضوع الثالث: ما يكون عليه حال الذين كفروا بكتاب الله العزيز، من الحيرة والتردد.

الموضوع الرابع: ما وعد به الحق سبحانه وتعالى عند نزول

القرآن، من الحقائق الكونية والنفسية المؤيدة للإيمان، التي سيَكشِف عنها لبني الإنسان في مستقبل الأزمان.

ففي الموضوع الأول ورد ذكر القرآن للساعة وموعد قيامها، وللثمرات المستورَة في أكمامها، وأحمال النساء المستقرة في أرحامها، فالساعة التي يضع الله فيها حداً للحياة على سطح هذا الكوكب الأرضي موكول علمها إلى الله وحده، لا يعلمها أحد سواه، وفي شأن السؤال عنها أجاب رسولُ الله ﷺ جبريل عليه السلام قائلاً: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» والشيء الوحيد الذي تناقلته السنّة في موضوع الساعة هو التنصيص على بعض «أشراطها»، ووصف بعض العلامات التي تسبقها، مثل ما رواه البخاري في صحيحه في «باب يَقِلُّ الرجالُ ويكثر النساء» عن أنس رضي الله عنه قال: «لأُحَدِّثَنكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لا يحدثكم به أحد غيري، سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن من أشراط الساعة أن يُرفَع العِلْم، ويَكثُر الجهل، ويكثر الزنا، ويكثر شرب الخمر، ويقلَّ الرجال، ويكثرَ النساء، حتى يكون لخمسين امرأة القيِّمُ الواحد» قال البخاري: «وقال أبو موسى عن النبي ﷺ: وترى الرجل الواحد يتبعه أربعون امرأة، يَلُذْن به من قلة الرجال وكثرة النساء».

وكما أن عِلْم الساعة موكول إلى الله دون سواه، فكذلك الثمرات التي هي في باطن النبات قبل أن تخرج وتبرز تُعَدُّ سِرّاً مكتوماً في عالَم الغيب لاَ يستطيع أمهر الزراعيين معرفته على وجه التحقيق قبل أن يُبرزه الله،

ومِثْل ذلك الحَمْلُ قبل ظهوره، لا يستطيع أن يعرفه الرجل ولا المرأة، فالله سبحانه هو المنفرد بعلم مَآل النطفة، هل يترتب عليها إخصاب وإنجاب، أم لا يترتب عليها شيءً مطلقاً، ومثل ذلك الحملُ قبل وضعه، هل سيوضع حياً أو ميتاً، ذكراً أم أنثى، هل سيوضع ليلاً أم نهاراً؟ هل سيوضع اليوم أو غداً؟ لا يعلم أمره على وجه القطع إلّا الله وحده، وذلك قوله تعالى في شأن الأمور الثلاثة: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنَ اَكْمَامِهَا، وَمَا تَحْمِلُ مِنُ انثىٰ وَلَا تَضَعُ، إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾، وبمثل هذا المعنى ورد قولُه تعالى في سورة الأعراف (١٨٧): ﴿لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ وقوله تعالى في سورة الأنعام (٥٩): ﴿وَمَا تَسْقُطُ يَابِسٍ اِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، وقولُه تعالى في سورة الرعد (٨): ﴿اِللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثىٰ وَمَا تَغِيضُ الَارْحَامُ وَمَا تَـزْدَادُ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾.

وفي الموضوع الثاني ورد وصف القرآن لأنانية الإنسان، وما هو عليه من شدة الإلحاح والمبالغة في طلب الخير لنفسه، فهو لا يَسأم ولا يمل من دعاء ربه لطلب «الخَيْر»، والمراد «بالخير» هنا المال والصحة وما ناسبهما من المطالب العـديدة المؤدية إلى السعادة حسبما يتخيلها الإنسان، كما ورد وصفه باليأس والقنُوط عندما يمسه أدنى شر أو أذىً، بحيث ينقلب في الحين متذمراً ساخطاً، قَلِق الفكر، حرِج الصدر، ويكثر من الدعاء والابتهال إلى أقصى حد، حتى إذا كشف الله عنه الضر وأذاقه رحمة من عنده أخذ حينئذ يتبَجَّح ويتكبر، مستعلياً بنفسه، معتزاً بمكانته،

مدعياً أن ما ناله من الخير بعد الشر إنما ناله عن جدارة واستحقاق، وأنه إنما وصل إليه بمقدرته الفائقة، وعبقريته النادرة المثال، وكأنَّ لسان حاله ينفي أن يكون عليه فيمَا ناله أيُّ فضل لله أو منّة منه سبحانه، بل إنه ليبلغ به البَلَه والبطر والغرور إلى حد أن ينسى نعمة الله عليه ويُعرض عنه بالمرة، ويتصرف تصرف من لا يومن بقيام الساعة ولا ينتظرها مطلقاً، وإذا مَرَّ بخاطره أن الساعة آتية ـ على سبيل الفرض عنده والتقدير ـ فإنه يعلن بكل تبجح وصفاقة وجه أنه حتى في هذه الحالة لن يكون إلاّ منعماً مكرماً، وأنه لن يجد عند ربه إلاّ الحسنى، لأنه عند نفسه وفي نظره القاصر يتمتع بامتيازات وحصانات خاصة من لدن الله، وهو في تقديره الخاص فوق القانون السماوي والعدل الإلٓهي، اللذين يسري مفعولهما على بقية الناس، وذلك ما ينطق به قوله تعالى: ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ الإنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ اِلْخَيْـرِ، وَإِن مَّسَّهُ الشَّـرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ، وَلَئِنَ اَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَآ لِي. وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً، وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيَ إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ﴾، ويؤكده قوله تعالى في نفس السّياق: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى اَلانسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾.

وفي الموضوع الثالث ورد استفسار القرآن الكريم للكافرين به، ماذا يكون عليه موقفهم عندما يتأكدُ لهم أَنَّهُ من عند الله، ويجدون أنفسهم قد ضيعوا فرصَة لن تعود، إذ كفروا به وأعرضوا عنه، ويدركون أنهم أخسر الناس صفقة، إذ كانوا أشد الناس

ضلالاً وخبالاً، وذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ، مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾.

وفي الموضوع الرابع وعد كتاب الله المؤمنين خاصة وبني الإنسان عامة، بأن الحق الذي قامت على أساسه السماوات والأرضون، وقامت على أساسه عقيدة القرآن وشريعته وأخلاقه، سيزداد جلاءً وظهوراً بمرور الأيام، وأن الله تعالى سيرفع الحجاب عن الفكر الإنساني، وسيلهمه أن يكتشف من خفايا الطبيعة وخبايا النفس ما يكون سَنَداً لذلك الحق، ودِعامة للإيمان بخالق الخلق، وذلك قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ، حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾، وقد أنجز الله وعده لبني الإنسان، بمقتضى ما وعد به عند نزول القرآن، فكشف لهم خلال الأربعة عشر قرناً من ظهور الإسلام، ما لم تعرفه البشرية من قبل في عشرات القرون وآلاف السنين، ولا يزال باب الكشف مفتوحاً بإذن الله، وفي كل كشف آية جديدة تدل على صدق كتاب الله.

والآن فلنوجز موضوعات الثُّمُن الثاني من هذا الربع، وهو فاتحة «سورة الشورى» المكية:

إن الحديث في فاتحة هذه السورة يتناول بالذكر إثبات الوحي من الله إلى رسوله ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾، ويتناول استغفار الملائكة للمؤمنين في الأرض: ﴿ وَالْمَلَـٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ﴾، ويتناول بيان الحكمة في نزول القرآن: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَاناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾،

ويتناول ضرورة التحاكم إلى الله، عند ظهور الاختلاف بين الناس: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

وفيما بين هذه الموضوعات يزيد كتاب الله معتقدات الشرك تسفيهاً وتفنيداً، كما يزيد عقائد التوحيد بياناً وتأييداً: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ. لَهُ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ، يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَآءُ وَيَقْدِرُ. إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

# الربع الثاني من الحزب التاسع والأربعين
# في المصحف الكريم

شَرَعَ لَكُم مِّنَ
ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا
بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟
فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ
إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟
إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ
ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾
فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ
وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ
بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ
بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾
وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ

دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾
ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ
لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ
أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾
ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾
مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن
كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ
مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ
مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ
وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ
مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا
يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾
ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ
قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ

حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ
افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ
اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾
وَهُوَ الَّذِے يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ السَّيِّئَاتِ
وَيَعْلَمُ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ
وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾

# الربع الثاني من الحزب التاسع والأربعين في المصحف الكريم

## عبـاد الله

في حديث هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب التاسع والأربعين في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ اَلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً، وَالذِيّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنَ اَقِيمُواْ الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾، ونهايته قوله جلّ علاّه: ﴿وَالْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

في بداية هذا الربع يؤكد كتاب الله قاعدة أساسية من القواعد التي قام عليها الإسلام، ألا وهي أن الدين الذي بعث الله به الأنبياء والرسل جيلاً بعد جيل إنما هو في جوهره دين واحد، متَّسِم بطابع الوحدة والتسلسل عَبْر القرون، وذلك لأن منبع الدين ومصدر الوحي واحد أزلاً وأبداً، وهو الله تعالى الذي خلق الكون وسن لتسييره السنن والنواميس الطبيعية المناسبة، وخلق الإنسان وسنّ لسلوكه السنن والنواميس الأخلاقية الملائمة، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالَامْرُ﴾ (٧ : ٥٤)، وهذه القاعدة الأساسية من قواعد الإسلام هي التي تفسر ما فرضه الله على المسلم من الإيمان بالله وبجميع رسله وجميع كتبه دون تمييز ولا استثناء، حتى أن من كفر برسول

واحد أرسله الله، أو كتاب مُنزل من عند الله، يعتبر في دين الإسلام كافراً غير مؤمن، فالمسلم يحترم النبوات والرسالات جميعاً، والمسلم يؤمن بالكتب المنزلة كلها ما دامت محتفظة بنصها الأصلي، لا يستثنى من ذلك شيئاً إلّا ما أُدخِل على نصوصه «تحريف» أو «تأويل سيء»، مما قام به الذين يحرفون الكَلِمَ عن مواضعه، وبفضل هذه العقيدة الأساسية في الإسلام لا يحس المسلم بأي حقد أو ضغينة أو عقدة نفسية نحو بقية الأنبياء والرسل، فضلاً عن أن ينظر بعين النقص إلى مقامهم الرفيع عند الله، جملة أو تفصيلاً.

وكما أكد كتاب الله في هذا السياق معنى الوحدة الاعتقادية والدينية، القائمة بين جميع الأنبياء والرسل، تبعاً لوحدة الواحد الأحد، واهب النبوات والرسالات، الذي نبَّأهم وأرسلهم إلى خلقه، فإنه حَضَّ المؤمنين جميعاً على حفظ تلك الوحدة الدينية التي تمسك بها الأنبياء والرسل، وأمرهم بصيانتها من عوامل الفرقة والاختلاف.

وهذا التوجيه القرآني ـ وإن كان موجهاً بالأصالة إلى المسلمين ـ فإنه يمكن أن يمتد أثره حتى إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى، بل إلى نفس المشركين العرب، ما داموا يدَّعون أنهم من بقايا ملة إبراهيم، فهؤلاء جميعاً إذا أنصفوا وراجعوا أنفسهم، وعادوا إلى المنبع الأول والصافي للدين الحق، يلتقون جميعاً في نقطة واحدة، ويجتمعون على كلمة سواء، وهي كلمة الإسلام، وذلك قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ

نُوحاً، وَالذِيّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ، وَمَا وَصَّيْنا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى أَنَ اَقِيمُواْ الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾.

قال ابن كثير في تفسيره: (يقول تعالى لهذه الأمة: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ اَلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالذِيّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ﴾، فذكر أول الرسل بعد آدم عليه السلام، وهو نوح عليه السلام، وآخرَهم وهو محمد ﷺ، ثم ذكر مَنْ بَيْنَ ذلك مِنْ أولي العزم، وهم إبراهيم وموسى وعيسى، وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة، كما اشتملت آية الأحزاب عليهم في قوله تبارك وتعالى (٣٣: ٧): ﴿ وَإِذَ اَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّـِنَ مِيثَـٰقَهُمْ، وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى اَبْنِ مَرْيَمَ ﴾ الآية. والدين الذي جاءت به الرسل كلهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال عزّ وجلّ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا يُوحَىٰ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: ٢٥)، وفي الحديث: «نحن معشر الأنبياء أولاد عَلَّات، دينُنا واحد»، أي: أن القَدْر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم، كقوله جلّ جلاله (٥: ٤٨): ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾)، انتهى ما قاله ابن كثير.

وذكر أبو بكر (ابن العربي) المعافري في كتابه «أحكام القرآن» عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ اَلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً ﴾ نبذة مهمة تُلقِي كثيراً من الأضواء على هذا الموضوع إذ قال: «إن آدم كان أول نبي بغير إشكال، غير أنه لم يكن معه إلَّا بَنُوه، ولم تُفرَض له الفرائض، ولا شُرِعَت له المَحارم، وإنما كان

ما عنده تنبيهاً على بعض الأمور، واقتصاراً على ضرورات المعاش، وأخذاً بوظائف الحياة والبقاء»، ثم قال ابن العربي: «واستقرَّ المَدَى إلى نوح، وهو أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض، فبعثه الله بتحريم الأمهات والبنات والأخوات، ووظف عليه الواجبات، وأوضح له الآدَاب في الديانات، ولم يزل ذلك يتأكد بالرسل، ويتناصر بالأنبياء صلوات الله عليهم، واحداً بعد واحد، وشريعة إِثْر شريعة، حتى ختمها الله بخير الملل، ملتنا، على لسان أكرم الرسل، نبينا ﷺ، فكان المعنى - أي معنى الآية - أوصيناك يا محمد ونوحاً ديناً واحداً، يعني في الأصول التي لا تختلف فيها الشرائع، وهي: التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج، والتقرُب إلى الله تعالى بصالح الأعمال، والتزلُف إليه بما يَرُدُّ القلب والجارحة إليه، والصدقُ، والوفاءُ بالعهد، وأداءُ الأمانة، وصلةُ الرحم، وتحريمُ الكفر والقتل والزنا، وتحريمُ الإذاية للخلق كيفما كانت، وتحريمُ الاعتداء على الحيوان كيفما كان، وتحريمُ اقتحام الدناءات، وما يعود بخَرْم المُرُوءات، فهذا كله شُرِع ديناً واحداً، وملة متحدة، لم يختلف على ألسنة الأنبياء، وإن اختلفت أعدادهم، وذلك قوله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُواْ الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾، أي: اجعلوه قائماً، يريد: دائماً مستمراً، محفوظاً مستقراً، من غير خلاف فيه، ولا اضطراب عليه، فمن الخلق مَن وَفَّي بذلك، ومنهم من نَكَثَ به، «فَمَن نكَثَ فإنما يَنكُث على نفسه» (٤٨ : ١٠)، وَختم «ابن العربي» تحليله لهذا الموضوع» قائلاً: «واختلفت الشرائع وراء هذا في معان، حسبما أراده الله، مما

اقتضته المصلحة، وأوجبت الحكمة وضعه في الأزمنة على الأمم، والله أعلم».

ثم مَضى كتابُ الله يبين السر في موقف العناد الذي يقفه المشركون من الرسول عليه السلام، وأنهم فوجئوا بما اختاره الله له من الرسالة دونهم جميعاً: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ. ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَنْ يَّشَآءُ، وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ يُّنِيبُ﴾.

وبَيَّنت الآيات الكريمة أن الفُرقة التي آل إليها أمر أهل الملل والأديان إنما جاءت بعد العلم بالدين الواحد والملّة المتحدة، وأن سبب الفُرقة بين الملل ليس نابعاً من أصل الدين الصحيح، وإنما هو ناشىء عن تأثير الأغراض والشهوات، التي سيطرَتْ على أَتباع الديانات، فالفُرقة من صنع الناس لا من وحي الدين، ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ﴾، كما بينت الآيات الكريمة أن الشك الذي يوجد عند «أهل الكتاب» ممن عاصروا عهد الرسالة المحمدية، والحَيْرة التي تتجلى في مواقفهم المتناقضة من الإسلام، يعود الأمر فيهما إلى ما ورثوه عن أسلافهم في الدين، من خلافات واختلافات، أدت بهم إلى الشك في نفس الكتب التي أنزلت عليهم، نظراً لما أصابها من التحريف والتأويل والتدليس، ﴿وَإِنَّ ٱلذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾.

ويخاطب الحقُّ سبحانه وتعالى رسولَه، مُحَصِّناً له من أهواء المشركين، وأهل الكتاب المختلفين المتفرقين، داعياً إياه إلى

التمسك بالدعوة، والقيام بحقها، والاستقامة عليها، مذكراً بجوهر الدعوة وأساسها المتين، ألا وهو الإيمانُ بالله وبكتبه، وإقامةُ العدل بين خلقه، ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرتَ وَلَا تَتَّبِعَ اَهْوَآءَهُمْ وَقُلَ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ اَللَّهُ مِن كِتَٰبٍ، وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ. اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾، وهذا الخطاب موجه إلى كل مؤمن ومؤمنة، ولا سيما ولاة المسلمين وعلمائهم، وقولُه تعالى في نفس السياق: ﴿ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمُ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾ معناه أننا برآء من كل ما خالف دعوة الإسلام، على غرار قوله تعالى في آية أخرى (١٠ : ٤١): ﴿ أنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

وانتقلت الآيات بعد ذلك إلى الحديث عن الساعة وموقف الذين يؤمنون بها، والذين يمارون فيها، ﴿ أَلَا إِنَّ اَلذِينَ يُمَارُونَ فِي اِلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلٍۢ بَعِيدٍ ﴾، ووصفت ما ينتظر الظالمين من عذاب مقيم، وما ينتظر الصالحين من عباده من فضل كبير، وأكدت أن الرسول عليه السلام لا يَقبَلُ على أداء رسالته أي أَجْر، وإنما يريد أن تترك له حرية الدعوة إلى الله، حتى لا تتأزم العلاقات بينه وبين ذوي قُرْباه، ﴿ قُلْ لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً، اِلَّا اَلْمَوَدَّةَ فِي اِلْقُرْبَىٰ ﴾.

روى البخاري في صحيحه وانفرد به، بسنده إلى عبد الملك بن مَيْسَرة قال: سمعت طاووساً يحدث عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿ اِلَّا اَلْمَوَدَّةَ فِي اِلْقُرْبَىٰ ﴾، فقال سعيد بن جُبَيْر: «قُرْبَى آل محمد»، فقال ابن عباس: «عجِلتَ. إن النبي ﷺ لم يكن بطن من بطون قريش إلاّ

كان له فيهم قرابة، فقال: «إلّا أن تَصِلوا ما بيني وبينكم من القرابة»، ونبَّه الحافظ ابن كثير في تفسيره إلى أن هذه الآية مَكية لا مدنية، وأن فاطمة الزهراء رضي الله عنها لم تتزوج بعلي رضي الله عنه إلّا بعد غزوة بدر، من السنة الثانية من الهجرة، فهذه الآية نزلت قبل زواجها وولادتها، ثم تابع ابن كثير كلامه قائلاً بالحرف الواحد: «والحق تفسير هذه الآية بما فسرها به حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنه كما رواه عنه البخاري، وختم ابن كثير كلامه قائلاً: «ولا ننكر الوَصَاة بأهل البيت، والأمرَ بالإحسان إليهم، واحترامِهم وإكرامِهم، فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وُجِد على وجه الأرض، فخراً وحسباً ونسباً، ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية، الصحيحة الواضحة الجليَّة، كما كان عليه سلفهم، كالعباس وبنيه، وعليّ وأهل بيته وذريته، رضي الله عنه أجمعين».

# الربع الثالث من الحزب التاسع والأربعين في المصحف الكريم

وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ
بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِے يُنَزِّلُ
ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾
وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ
وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ
بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ
فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾
وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَا يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ
رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ
يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ
فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَےْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾

وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ
يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ
شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ
هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ
فَأَجْرُهُۥ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ الظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ
ظُلْمِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى
الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰٓئِكَ
لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ
الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَتَرَى
الظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾
وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ
خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّ الْخَٰسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ
وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ الظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾
وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن
يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن
قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ

يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ
عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا
الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا
قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ
إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا
وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

# الربع الثالث من الحزب التاسع والأربعين في المصحف الكريم

## عبـــاد الله

موضوع حديثنا اليوم تفسير الربع الثالث من الحزب التاسع والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اَللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِي اِلْاَرْضِ، وَلَـٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَّشَآءُ إِنَـٰثاً، وَيَهَبُ لِمَنْ يَّشَآءُ الذُّكُورَ، أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَـٰثاً، وَيَجْعَلُ مَنْ يَّشَآءُ عَقِيماً، اِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾.

في بداية هذا الربع يقرر كتاب الله حقيقة كونية طالما غفلت عنها الأنظار، ألا وهي أن الحق سبحانه وتعالى منذ اقتضت مشيئته أن يتكفل برزق الإنسان اقتضت حكمته أن لا يرزقه إلّا بحساب، وبقدر محدود، وأن لا يمنحه كل ما يطمع فيه، إذ أن أنانية الإنسان الجامحة، وميله إلى التبذير والإسراف، لا يحدهما شيء، فالإنسان كائن ضعيف تستهويه الملذات، وتغريه المغريات، ﴿ وَخُلِقَ اَلاِنسَـٰنُ ضَعِيفاً ﴾ (٤: ٢٨)، وقلما يعرف التوازن والاعتدال في سلوكه ومطالبه، بل إنه مَتى استغنى طغى وبغى ﴿ إِنَّ اَلاِنْسَـٰنَ لَيَطْغَىٰ أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ (٩٦: ٦)، وفقد توازنه،

ونسي ربه، واستغل عطاء الله الواسع في المزيد من المعاصي والسيئات، لا في المزيد من الحسنات والطاعات، والله تعالى حين يَقْدِرُ رزق الإنسان ولا يبسطه له إلى أقصى الحدود إنما يتصرف في ملكه عن خِبرة تامة بهذا الإنسان الذي خلقه من العدم، وعن علم محيط بخلَجات نفسه، وهواجس حسه، ولأجل أن لا ينقلب الإنسان طاغياً باغياً مطلق العَنان في هذا الكون بالمرة جعل الحق سبحانه وتعالى مقاليد رزق الإنسان بيده، واضطر الإنسان لأن يبقى معلقاً بين الخوف والرجاء دائماً، ذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اَللَّهُ الرِّزقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِي الاَرْضِ، وَلَـٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَّشَآءُ، اِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرُۢ بَصِيرٌ ﴾.

وعلى ضوء هذه الآية الكريمة لا يَسْتَغرِبُ أحد أن يسمع صَيْحَاتِ الخطر والإنذار، التي تطلقها المنظمات الدولية المختلفة، بقرب مجاعة عالمية قد تكتسح العالم، وتكون كارثة كبرى على البشرية، فالشعور بهذا الخطر قائم لا محالة بشكل أو آخر، ومن مقتضيات الحكمة الإلٓهية أن يكون شَبَح هذا الخطر ماثلاً للأنظار، حتى يتذكر الإنسان ـ تحت تأثيره ـ رسالتَه الحقيقية في هذا الكون، ويعود إلى حظيرة الاعتدال والتوازن في مطالبه وشهواته قدر الإمكان، وكما قال تعالى في هذه الآية: ﴿ وَلَـٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَّشَآءُ ﴾، قال في آية سابقة عند الكلام على خلق الأرض: ﴿ وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا ﴾، ثم عقَّب على ذلك فقال: ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (٤١ : ١٢).

وبعد تقرير القرآن الكريم لهذه الحقيقة الكونية أتْبعها

كتاب الله بالتعقيب عليها، مبيِّناً أن لطف الله بالإنسان، ورحمتَه إياه، لن يُمْسِكَهُما عن خلقه كلما احتاجوا إليهما، وتوقفوا عليهما، إذ أن رحمته وسعت كل شيء، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ اَلذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ، وَهُوَ اَلْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾، وفي سياق هذه الآية جاءت كلمة «الغَيْـثِ» بالخصوص، بدلاً من كلمة «المطر» التي هي أكثر استعمالاً وشيوعاً، إشارةً إلى أن الحق سبحانه وتعالى متكفل بأن يغيث عباده ويرحمهم بعد اليأْس والقُنوط، فيُنجدهم بإنزال المطر كلما بسطوا أكف الضراعة إليه، سائلين الغوث والنجدة من خالقهم ورازقهم على الدوام، على غرار قوله تعالى في سورة الروم: (٤٨ ـ ٤٩) ﴿فإِذَآ أَصَابَ بِهِ مَنْ يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ، وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَنْ يُّنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ، فَانظُرِ اِلَىٰ أَثَرِ رَحْمَتِ اِللَّهِ﴾.

وقولُه تعالى في نفس السياق: ﴿وَهُوَ اَلْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾، إشارةٌ إلى أن الحق سبحانه وتعالى لا يتصرف لخلقه إلاّ بما ينفعهم دنيا وأخرى، فهو «وليهم» الحق، الذي يتولاهم بفضله وإحسانه، والذي يجب أن يتولَّوْهُ بالسعي إلى مرضاته، والانقياد لأوامره، وهو سبحانه «الحميد» أي المحمود العاقبة في جميع ما يُقدِّره ويفعله، لتوجيه خلقه ومصلحتهم.

ومضى كتاب الله يتحدث عن آيات الله الباهرة في كونه الفسيح، وفي الطليعة: خلق السماوات والأرض وما بثه سبحانه في العالم العُلْوي والعالم السُفْلي من كائنات وأَحياء لا يحصيها عد، وقد مضى على الإنسان منذ ظهوره على سطح الأرض مئآتُ

الآلاف من السنين، وهو لا يزال عاجزاً عن فهم هذا النظام العجيب، مشدوهاً أمام أسراره وعجائبه.

وبيَّنَ كتابُ الله أن الخالق الذي خلق هذه الكائنات والأحياء، وبثها ووزعها في السماوات والأرض قادر على أن يجمعها جميعاً في صعيد واحد مَتى شاء، وفي ذلك مظهر آخر من مظاهر قدرته المبسوطة على كل شيء، ومظاهر علمه المحيط بكل شيء، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ خَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ، وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾، ولفظ «دابة» في هذه الآية حمله ابن كثير على ما يشمل الملائكة والجن والإنس وباقي الحيوانات، بخلاف لفظ «دابة» الوارد في قوله تعالى (٣٥: ٤٥): ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾، فإنَّ معناهُ قاصرٌ على ما يَدِبُّ من الكائنات الحية فوق ظهر الأرض.

وقولُه تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾، يشير إلى ما يأمر به الحق سبحانه وتعالى عند قيام الساعة من «جَمْعِ المخلوقات» كلها عند النشر والحشر والحساب في عَرَصات القيامة، وفقاً لقوله تعالى فيما سبق من هذه السورة (٧): ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَـآ إِلَيْكَ قُرْءَاناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا، وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ، فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾، ولقوله تعالى في سورة التغابن (٩): ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ: ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾، ولقوله تعالى في سورة الكهف (٩٩): ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَـٰهُمْ جَمْعاً﴾ ولقوله تعالى في سورة آل عمران (٩): ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ، إِنَّ اللَّهَ

لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾، ولقوله تعالى في سورة الواقعة (٥٠): ﴿ قُلِ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾، ولا يصح حمل هذه الآية على «رواد الفضاء» كما ارتآه بعضهم، فإن ذلك تكلُّف لا تُطَاوعه هذه الآية ولا الآيات الأخرى التي تفسر معناها أوضح تفسير.

وتناولت آيات هذا الربع الحديثَ عن قدرة الله القاهرة في تحريك الرياح وتسكينها، وما لها من تأثير بالغ على نشاط الإنسان في عالم الملاحة البحرية، والحديثَ عن «الذين يجادلون في آيات الله»، والحديثَ عن «الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون»، والحديثَ عن «الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق»، والحديثَ عن الخاسرين «الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة». كما تناولت الآيات ذكر «الشورى» بين المسلمين، ومن أجل ذلك أُطلِق على هذه السورة اسم «سورة الشورى» تنويهاً بها، فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰئِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ، وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ، وَالَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ، وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ، وَالَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾، ففي هذه الآية الكريمة وصَفَ اللَّهُ المؤمنين حقاً بالأوصاف الكاشفة عن حقيقتهم، وبالنعوت المنبثقة عن عقيدتهم، فهم قبل كل شيء مجتنبون للآثام والفواحش، بحيث لا يقرَبُونها، ملتزمُون للاعتدال والرضي في علاقاتهم، مَالِكُون لأنفسهم عند الغضب، سالمون من الحقد على غيرهم، وهم لا يتخلفون عن الاستجابة لأوامر الله والعمل

بتوجيهاته في مختلف الشؤون، وهم قوامون بالصلاة التي هي عماد الدين، يؤدونها ويؤدون لها حقها، فتنعكس آثارها الظاهرة والباطنة في حياتهم اليومية، وهم كرماء الأيدي لا يبخلون بالإحسان والإنفاق مما رزقهم الله، في وجوه الخير وسبيل المعروف، وهم أعزاء النفوس، لا يتحملون من خصوم الحق أي ضَيْم أو هوان، بل ينتصفون منهم، وينتصرون للحق وبالحق عليهم، وهم إلى جانب هذا كله، وفي هذاالجو الأخلاقي السليم، والروحي الطاهر، يتشاورون فيما بينهم في شؤونهم العامة، بنفوس طاهرة، وقلوب صافية، ولا غرض لهم من الشورى إلّا تحقيق أهداف الإسلام السامية، ولأمر ما أُدمجت الآيةُ الكريمة صفة «التشاور بين المسلمين» ضِمْنَ مجموعة متناسقة من الصفات الضرورية، التي لا غنى للإسلام عنها، والتي لا يتحقق مدلوله بدونها، ولم تأت بصفة «الشورى» وحدها مجردةً عن بقية الصفات، ولا منفصلةً عن بقية الشروط، لأن الشورى في نظر الإسلام لا توتِي أُكلها، ولا تؤدي الغرض منها، إلّا إذا كانت تحيطها كافة الضمانات الدينية والأخلاقية والنفسية المطلوبة في أهل الشورى، فهذه الآية الكريمة تعطي للمسلمين التوجيه الكافي، وتضع أيديَهم على الصفات الضرورية، والمؤهلات البارزة، المطلوبة فيمن يختارونه ليكون من أهل الشورى، ومما تجب ملاحظته في هذا المقام ـ ونحن في سورة الشورى المكية ـ أن الشورى في الإسلام كانت من عقائده الأساسية التي بَرَز بهَا وهو لا يزال في نفس مكة، والإسلامُ إذ ذاك لم يتمكن بعدُ من إقامة دولته الأولى بالمدينة المنورة، فعقيدة

الشورى وعقيدة التوحيد بَرَزَتا في الإسلام في وقت واحد، وهما من خصائص المجتمع الإسلامي ومميزات الدولة الإسلامية منذ نشأتهما الأولى. قال القاضي أبو بكر «ابن العربي» المعافري عند تفسيره لهذه الآية: «الشورى أُلفة للجماعة، ومِسْبار للعقول، وسبب إلى الصواب، وما تشاوَر قوم إلّا هدُوا. ونقل عن بعض العقلاء أنه قال: ما أخطأتُ قط: إذا حَزَبني أمر شاورت قومي، ففعلت الذي يرون، فإن أصبتُ فَهم المصيبون، وإن أخطأتُ فهم المخطئون».

وفي ختام هذا الربع تناولت الآيات الكريمة موضوعاً قوي الحساسية بالنسبة للنسل والذرية، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ، يَهَبُ لِمَنْ يَّشَآءُ اِنَـٰثاً، وَيَهَبُ لِمَنْ يَّشَآءُ الذُّكُورَ، أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَـٰثاً، وَيَجْعَلُ مَنْ يَّشَآءُ عَقِيماً. اِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾، وبديهي أن موضوع «الذرية» له علاقة وثيقة بموضوع «الرزق» الذي أشارت إليه أول آية في هذا الربع: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اَللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِي اِلْاَرْضِ ﴾، فكما أن الله يُنَزِّلُ بقَدَر ما يشاء من الرزق، كذلك يَهَب من يشاء من الذرية أو لا يهب. قال ابن كثير في تفسيره تعليقاً على مضمون هذه الآية: «فجعل الناس أربعة أقسام، منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكوراً وإناثاً، ومنهم من يمنعهم هذا وهذا، فيجعله عقيماً لا نسل له ولا ولد، ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ ﴾ أي بمن يستحق كلُّ قسم من هذه الأقسام، ﴿ قَدِيرٌ ﴾، أي على مَا يشاء من تفاوت الناس في ذلك»، ثم مضى ابن كثير يقول: «وهذا المقام شبيه بمقام آخر،

حيث خلق الله الخلق على أربعة أقسام، فآدم عليه السلام مخلوق من تراب، لا من ذكر ولا أنثى، وحواء عليها السلام مخلوقة من ذكر بلا أنثى، وعيسى عليه السلام مخلوق من أنثى بلا ذكر، وسائر الخلق سوى عيسى عليه السلام مخلوقون من ذكر وأنثى، فهذا المقام في الآباء، والمقام الأول في الأبناء، وكل منهما أربعة أقسام، فسبحان العليم القدير».

## الربع الأخير من الحزب التاسع والأربعين في المصحف الكريم

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُّكَلِّمَهُ اُ۬للَّهُ إِلَّا وَحْيًا اَوْ مِن وَّرَآءِے حِجَابٍ
اَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾
وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ اَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِے مَا اَلْكِتَٰبُ
وَلَا اَلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِے بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ
عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِے إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ اِ۬للَّهِ اِ۬لذِے
لَهُۥ مَا فِے اِ۬لسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِے اِ۬لْأَرْضِ أَلَآ إِلَى اَ۬للَّهِ تَصِيرُ اُ۬لْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

بِسْمِ اِ۬للَّهِ اِ۬لرَّحْمَٰنِ اِ۬لرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَٰبِ اِ۬لْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِے أُمِّ اِ۬لْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾
اَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ اُ۬لذِّكْرَ صَفْحًا اِن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾
وَكَمْ اَرْسَلْنَا مِن نَّبِےٓءٍ فِے اِ۬لْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَاتِيهِم مِّن نَّبِےٓءٍ اِلَّا
كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ

ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ
خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِے جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ
مِهَٰدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾
وَٱلَّذِے نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ
تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِے خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ
ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ
تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمُۥٓ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ
ٱلَّذِے سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا
لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ
مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَيٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾
وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ
مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يَنشَؤُاْ فِے ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ
فِے ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ
هُمْ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا أَ۬شْهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ
شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم
مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمُۥٓ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ

كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ
ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢٢﴾
وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ
إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾

# الربع الأخير من الحزب التاسع والأربعين في المصحف الكريم

**عبـــاد الله**

حديث هذا اليوم يتناول تفسير الربع الأخير من الحـزب التاسع والأربعين في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى في سورة الشورى المكية: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً، أَوْ مِنْ وَّرَآءِ حِجَابٍ، اَوْ يُرْسِلُ رَسُولاً فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ﴾، ونهايته قوله تعالى في سورة الزخرف المكية أيضاً: ﴿وَكَذَالِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ اِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ، وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.

يتحدث كتاب الله في مطلَع هذا الربع عن مقامات الوحي الذي يتلقاه الأنبياء والرسل عن الله عزّ وجلّ، وقد ثبت في كتب السنّة النبوية عن رسول الله ﷺ أنه تلقى الوحي عن ربه من أربعة طرق:

الطريق الأول: أن يُلقِي المَلَك في رُوعِه وقلبه ما يوحَى إليه، من غير أن يرى الملك، كما جاء في صحيح ابن حبان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن روح القدس نَفَثَ في رُوعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب».

الطريق الثاني: أن يأتيه الوحي في مثل صَلْصَلَة الجَرَس، وكان هذا النوع هو أشد أنواع الوحي عليه، حتى أن جبينه ليَتَفَصَّدُ عرقاً في اليوم الشديد البرد.

الطريق الثالث: أن يتمثل له المَلَك رَجُلاً فيخاطبه حتى يَعِيَ عنه ما يقول.

الطريق الرابع: أن يرى المَلَك في صورته التي خُلق عليها، فيوحِي إليه ما يشاء اللَّهُ أن يوحيه. قال ابن القيم في كتابه «زاد المعاد»: (وقد وقع هذا له مرتين، وورد ذكره في سورة النجم).

وهذا الموضوع موضوع الوحي من الله إلى أنبيائه ورسله هو ما تضمنه قوله تعالى في هذا الربع: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً، اَوْ مِنْ وَّرَآءِ حِجَابٍ، اَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ، اِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾،

فقولُه تعالى: ﴿إِلَّا وَحْياً﴾ يندرج تحته الطريق الأول والطريق الثاني للوحي، كما عرفهما رسول الله ﷺ.

وقولُه تعالى: ﴿اَوْ مِنْ وَّرَآءِ حِجَابٍ﴾، يندرج تحته ما أوحاه الله إلى موسى الكليم، بعد تكليمه وحَجْبِه عن الرؤية، رغماً عن سؤاله لها.

وقولُه تعالى: ﴿اَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ﴾ يندرج تحته الطريق الثالث والطريق الرابع للوحي، كما وصفهما الرسول عليه السلام، وكما وقع لكثير من الأنبياء والرسل، حيث

نزل عليهم بالوحي جبريلُ وغيره من الملائكة المقربين، بإذن الله العلي الحكيم.

وانتقل كتاب الله للحديث عن الوحي بالقرآن إلى الرسول عليه السلام، وعن مبلغ النعمة التي أنعم الله بها على نبيه، عندما اختاره لختم الرسالة من بين خلقه، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنَ اَمْرِنَا، مَا كُنتَ تَدْرِي مَا اَلْكِتَٰبُ وَلَا اَلِايمَٰنُ، وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾، ففي هذه الآية وصف للقرآن بأنه «روح» من عند الله، أنزله لإحياء نفوس الأشباح من البشر، الذين فقدوا مقومات الحياة، وفي هذه الآية وصف للقرآن بأنه «نور» من عند الله، أنزله لهداية الضالين الحيارى من مختلف الأمم والملل.

وكم كان هذا الوصف صادقاً، وكم كانت هذه الحقيقة أمراً واقعياً، بالنسبة للبشرية جمعاء، فمنذ نزل القرآن ودَخلت البشرية تحت رايته، عرفت من ألوان التقدم والازدهار والحضارة ما لم يسبق له مثيل في آلاف السنين التي سبقت نزول القرآن، ولا يزال موكب العلم والكشف عن حقائق الكون يواصل طريقه بإذن من الله، منذ فَتَح له القرآنُ السبيل، ومهد له الطريق.

وأكد كتاب الله مرة أخرى ما في اتِّباع رسالة خاتم الرسل من ضمانة حقيقية لصلاح الخلق ورشادهم، حيث أن هذا الرسول إنما يهدي الناس إلى النهج القويم الذي رسمه لهم، وارتضاه لسلوكهم، خالقُهم وخالق الكون كله، وإذا كان الكونُ كلُّه مطواعاً

وفي قبضة الله، لَا يَتَخَلَّف عن إرادته ورضاه، فيتّبع النواميس والسنن التي رسمها له دون تردد ولا اعتراض، فَأَحْرِ بالإنسان الذي كرمه الله بالعقل، وبالخلافة عنه في الأرض، وبحمل الأمانة التي أشفقت منها بقيةُ المخلوقات، أن يكون أكثر طواعية للنواميس الخلقية، وأشد التزاماً للتعاليم الإلٰهية، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ، صِرَٰطِ اِللَّهِ اِلذِي لَهُۥ مَا فِي اِلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي اِلْأَرْضِ، أَلَآ إِلَى اَللَّهِ تَصِيرُ اُلْأُمُورُ﴾.

وَهنا تُودِّعُنا «سورة الشورى» المكية، لِنَنتقل منها إلى «سورة الزخرف» المكية أيضاً، وإنما سميت «سورة الزخرف» أخذاً مِن قوله تعالى في آيتها الخامسة والثلاثين: ﴿وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ وَزُخْرُفاً، وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَا مَتَٰعُ اُلْحَيَوٰةِ اِلدُّنْيا﴾، ومعنى «الزخرف»: الزينة من كل شيء، وقد اتجهت الآيات الأولى من هذه السورة إلى مُواصلة الحديث عن كتاب الله، وعن تعداد مزاياه، فقال تعالى: ﴿بِسْمِ اِللَّهِ اِلرَّحْمَٰنِ اِلرَّحِيمِ. حمٓ، وَالْكِتَٰبِ اِلْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَاناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ اِلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾، وها هنا بيّن الحق سبحانه وتعالى منزلة كتابه في الملأ الأعلى، ليقدسه ويعظمه ويُطيعَه أهل الأرض، أسوة بالملائكة المقربين. والمراد «بأمّ الكتاب» اللوح المحفوظ، كما فسره ابن عباس ومجاهد رضي الله عنهما، وبقوله «لَعَلِيٌّ» أي ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل، قاله قتادة، وبقوله «حكيم» أي مُحكَم بريء من اللبس والزيغ والتناقض.

وفي معنى التنويه بكتاب الله وبيان عظيم مكانته جاء أيضاً

قوله تعالى (٨٠: ١١): ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ، فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ، فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ، مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ، بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾، وجاء قوله تعالى (٥٦: ٧٧ ـ ٨٠): ﴿ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ فِي كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ، تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾.قال ابن كثير: «ومن هاتين الآيتين استنبط العلماء أن المُحْدِث لا يمس المصحف، وإذا كان الملائكة يعظمون القرآن في الملأ الأعلى، فأهلُ الأرض أولى بذلك وأَحْرى، لأنه نزل عليهم، وخطابُه متوجه إليهم،فهم أحق أن يقابلوه بالإكرام والتعظيم، والانقياد له بالقبول والتسليم».

ثم اتجه كتاب الله إلى خطاب المنحرفين عن الحق من المشركين والكافرين، مستفسراً لهم: هل من الخير أن يتركهم الحق سبحانه وتعالى هَمَلاً، فلا يبعث إليهم الرسل، ولا يُنزل عليهم الكتب: ﴿ أَيَحْسِبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ (٧٥: ٣٦)، وهل من مصلحة الإنسانية ونفعها أن تقف الدعوة وهي في حالة جَزْر لا في حالة مَدّ، وأن تتعطل حكمة الله البالغة في تَوَالي النبوات والرسالات على الخلق، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا إِن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾، وكأنَّ الله تعالى يقـول: «إِنَّ رُبُوبِيَتِي لَكُمْ تَقْتَضِي أَنْ أُمِدَّكُمْ بِرَحْمَتِي وإحسَـٰنِي، وَلَوْ كُنْتُمْ مُسْرَفِينَ ظَـٰلِمِينَ مُنْحَرِفِـينَ»، وهذا هو السر في مواصلة الأنبياء والرسل للدعوة الإلّهية، حتى يتحقق الهدف منهـا وهو إرشاد الخلق وإصلاحهم جميعاً، أو رَشَاد فريق منهم وصلاحه على الأقل ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (٤: ١٦٥). فمن لطف الله ورحمته بخلقه أن لا يترك دعاءهم

إلى الخير، وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل أَمَرَ رسله بذلك، ليهتدي من يريد الهدى، ولتقوم الحجة على من يريد الضلال. قال قتادة: «والله لو أن هذا القرآن رُفع حين رَدَّتْهُ أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله عاد بعائدته ورحمته، فكرَّره عليهم، ودعاهم إليـــه عشرين سنة أو ما شاء الله من ذلك».

واهتمت الآيات الباقية من هذا الربع بالحديث عن موقف أعداء الرسالات عَبْرَ القرون والأجيال، فقال تعالى: ﴿ وَكَمَ اَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٓءٍ فِي اِلاَوَّلِينَ، وَمَا يَاتِيهِمْ مِّن نَّبِيٓءٍ اِلَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾، وبالحديث عن حقائق الإيمان وعقائد التوحيد التي يدعو إليها كتاب الله، مؤيَّدةً بالحجج القاطعة، والبراهين الساطعة، فقال تعالى: ﴿ الذِي جَعَلَ لَكُمُ اَلاَرْضَ مِهَٰداً، وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ، وَالذِي نَزَّلَ مِنَ اَلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً، كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ، وَالذِي خَلَقَ اَلاَزْوَٰجَ كُلَّهَا، وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ اَلْفُلْكِ وَالاَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ إلى آخر الآيات الواردة في هذا السياق. كما اهتمت نفس الآيات بوصف معتقدات الوثنية وخرافات الجاهلية، وصفاً مصحوباً بتسفيه دُعاتها وأتْباعَها، وهدم الدعائم المنهارة التي قامت على أساسها، ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾، ـ ﴿ وَجَعَلُواْ اُلْمَلَٰٓئِكَةَ اَلذِينَ هُمْ عِندَ اَلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثاً، اَ. شْهِدُواْ خَلْقَهُمْ، سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾، ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ اِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴾ أي على دين مشترك ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾.

# الربع الأول من الحزب الخمسين في المصحف الكريم

قُلَ اَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدٜىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ
أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ اُ۬لْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِے
بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا اَ۬لذِے فَطَرَنِے فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾
وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِے عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ
هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ اُ۬لْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ
اُ۬لْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ
هَٰذَا اَ۬لْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ اَ۬لْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ اَهُمْ
يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِے اِ۬لْحَيَوٰةِ
اِ۬لدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم
بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ

أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ
لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾
وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن
كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ
شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ
وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ
بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ
ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ
ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ
بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا
عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ
عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ
وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ
أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾
وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا
عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ
إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ
أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ
أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ
وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ
أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ
فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا
ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا
وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا
قَوْمُكَ مِنْهُ يَصُدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا
ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا
عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾
وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾

وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ
مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾

# الربع الأول من الحزب الخمسين
# في المصحف الكريم

**عبـــاد الله**

موضوع الحديث في هذا اليوم هو تفسير الربع الأول من الحزب الخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ قُلَ اَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ﴾، إلى قوله جلّ علاه: ﴿ وَاتَّبِعُونِ هَـٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ، وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَـٰنُ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾.

بعدما أشارت الآيات الكريمة في نهاية الربع الماضي إلى ما اعتاده خصوم الرسالات الإلٓهية من التكذيب بها، والتصدي لمحاربتها بالجهل الفاضح والتقليد الأعمى، منذ فجر الحياة، وبعدما أشارت إلى وقوف مشركي العرب، من خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام، موقفاً مماثلاً لموقف مَن سبقهم إزاء بقية الرسل، اتجه خطاب الله في بداية هذا الربع إلى نبيه ﷺ، ملقِّناً إياه سؤالاً وجيهاً، موجَّهاً إلى مشركي قريش، المعتصمين بالتقاليد البالية، والمتسترين وراء تقديس ما كان عليه الآباء والأجداد، وهكذا يقول الله تعالى: ﴿ قُلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ ﴾، أي هل من المنطق والعقل ن تتبعوا التقاليد الفاسدة،

والمعتقدات الباطلة، لمجرد أن آباءكم اتبعوها وآمنوا بها، ولو كان الذي جئتُكُم به هو أفضل وأرشد، وأحق وأصدق، مما وجدتم عليه آباءكم؟ أليس من الحكمة والتبصر في العواقب أن تتأملوا فيمَا أعرضه عليكم، وأن تقارنوا بينه وبين ما وجدتم عليه آباءكم، لتهتدوا بعد الضلال، وتؤمنوا بعد الكفر.

ثم تشير الآيات الكريمة مرة أخرى إلى قصة إبراهيم الخليل عليه السلام مع أبيه وقومه، وما كان له من صراع عنيف معهم، من أجل إحقاق التوحيد الحق، وإبطال الشرك الباطل، وفي ذلك رد صريح على ما يدعيه مشركو العرب لأنفسهم، من كونهم على ملة أبيهم إبراهيم، إذ ملته الحقيقية هي ملة التوحيد لا ملة الشرك، وعقيدة التوحيد هي التي أوصى بها إبراهيم بَنِيه، وهي التي حملها من أبنائه وعَقِبه: موسى، وعيسى، ومحمد خاتم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وذلك قوله تعالى في هذا السياق: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ، إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ، وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

ويتحدث كتاب الله عن عهد «الفَتْرة» التي مرت بجزيرة العرب، دون أن يُبعَث فيها نبي أو رسول، وأن الله لم يؤاخِذ المشركين خلال تلك الفترة بما ارتكبوه من ذنوب، وبما اعتقدوه من ضلالات، بل إنه ـ تفضلاً منه وكرماً ـ قد امْهَلَهُم، و«مَتَّعَهُم وآباءهم»، في انتظار حلول الوقت الذي تقتضي الحكمة الإلهية أن تَبرُز فيه الرسالة المحمدية، وها هي تلك الرسالة قدحان

موعدها لإخراج المشركين من الظلمات إلى النور، وذلك قوله تعالى: ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾.

غير أن مشركي العرب، إمعاناً منهم في الشقاق والعناد، واسوة بمن سبقهم من خصوم الرسالات المكذبين بالرسل، بدَلاً من أن يُقبِلوا على اعتناق الحق، ويعتزلُوا الباطل، وبدلاً من أن ينتقلوا إلى دين التوحيد الخالص، ويَنبِذوا معتقدات الشركِ، أخذوا يواجهون خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام بمثل ما واجه به فرعونُ وقومُه موسى الكليم، وكما وصف فرعونُ موسى بأنه «ساحر» وادعى أن دعوته إنما هي مجرد «سحر» ها هم مشركو قريش يرددون نفس الاتهام، ويكررون نفس النغمة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ الْحَقُّ قَالُواْ هَـٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَـٰفِرُونَ ﴾، على غرار ما حكاه كتاب الله عن فرعون وقومه في نفس هذا الربع وهم يخاطبون موسى عليه السلام: ﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ (٤٩).

ثم يُبرِز كتاب الله ما انطوى عليه تكذيب مشركي قريش للرسول عليه السلام من اعتبارات وأسباب سياسية ومادية، فهم بالرغم عن كونهم لا ينكرون شرف مَحْتِد الرسول، وكونه «خياراً من خيار»، نسباً وحسباً، إلّا أنهم يرون أنه لا يتمتع بزعامة قَبَلية، ولا برياسة زمنية، وإذن فليس هناك ما يؤهله في نظرهم لحمل الرسالة، وهم يرون أنه إذا كان ولا بد من إرسال رسول إليهم، فالأَوْلَى أن يكون هذا الرسول أعظم رجل في مكة أو في الطائف

عصبية ونُفُوذاً، طبقاً «لاعتبارات الجاهلية» الخاصة، وذلك ما يحكيه عنهم قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ وكأنَّ مشركي قريش كانوا بهذه الاعتبارات ينظرون إلى الموقف الذي وقفه قبلهم فرعون من موسى، عندما أخذ يحُطُّ من مقامه، مدعياً أنه غيرأهل للرسالة، لأنه لا سلطان له ولا مال، ولا يلبس مثله أساورة من ذهب، وذلك ما حكاه كتاب الله عن فرعون في هذا الربع نفسه، إذ قال: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ، وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِي، أَفَلَا تُبْصِرُونَ، أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ، وَلَا يَكَادُ يُبِينُ. فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ (٥٣).

لكنَّ كتاب الله رد على المشركين ادعاءهم، مبيناً أن اعتباراتهم الواهية ما بين مادية وسياسية، لا عبرة بها عند الله، بالنسبة إلى النبوة والرسالة، وأن الله تعالى هو الذي يتولى اختيار الأنبياء والرسل، بمحض مشيته، وأنه يختارهم لحكمة سامية هو المنفرد بعلمها قبل ظهورها للناس، وذلك قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ؟﴾، إشارةً إلى أن النبوة والرسالة مظهر من مظاهر رحمة الله، وأنه يختصُّ برحمته من يشاء كما يشاء، وأنه هو الذي «يعلم حيث يجعل رسالاته» دون بقية الخلق، فالرسالة عطية إلّهية مجردة، واختيار إلّهي صرف، بحيث لا ينفع فيها التمني، ولا تنال بالسعي والاكتساب، ولا بالاقتراح والترشيح من الأحباب والأصحاب.

وفي هذا السياق، رفع كتاب الله الستار عن حقيقة اجتماعية واقعية لها تأثير في نظام المجتمع البشري، وما يلزم أن يكون عليه من تعايش وتعاون وتكامل، فقال تعالى: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ﴾، أي: قسمنا لكل إنسان حظه في العيش، من المطعم والمشرب والمسكن وما يتوقف عليه من المنافع، وأَذِنَّا له في تناوله، على أن يسلك في تناوله الطرق المشروعة، حتى تكون قسمته حلالاً طيباً، ثم قال تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾، أي: أن الله تعالى فاوت بين خلقه، فيما وهبهم من العقول والفهوم والقُوَى الظاهرة والباطنة، والاستعدادات المختلفة، والميول المتعددة، فسَلكَ بعضُهم طريقاً، وسلك بعضهم طريقاً آخر، إذ لم يكونوا في درجة واحدة من تلك الهبات، وبذلك تنوعت أعمالهم ومكاسبهم، واحتاج بعضهم إلى ما عند البعض الآخر، وأصبح كل فريق منهم متوقفاً على خبرة الآخر ومعونته، مسخَّرا لخدمته، وذلك لخير المجتمع كله، وخدمة الصالح العام، وهذه هي الحكمة الإلٰهية من وراء التفاوت الذي جعله الله بين خلقه ﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً ﴾، كما قال تعالى، وليس المراد أن فريقاً يعتبر «أعلى» وفريقاً يعتبر «أدنى»، فلا طَبَقية في الإسلام، وكلمة «سُخريّاً» الواردة في هذه الآية من «التسخير» بالمعنى الوارد في قوله تعالى: ﴿ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ (٣١: ٢٠)، لا من «السُّخْرِيَة» بمعنى الاستهزاء، الوارد في قوله تعالى: ﴿ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ ﴾ (١١: ٣٨)، قال الإمام القشيري: «لو كانت المقادير متساوية

لتعطلت المعايش، ولبقي كلٌّ عند حاله».

ولِيُرِيحَ كتابُ الله ضمير الرسول من كل قلق يساوره، بعد أن بلَّغ الرسالة وأدى الأمانة، ولم يستجب له في الحين «الصُّمّ» الذين لا يسمعون، و«العُمْي» الذين لا يهتدون، خاطبه ربه قائلاً: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وكأنه يذكره بخطابه الآخر: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (١٣: ٤٠)، وبيَّن كتابُ الله أن الحق سبحانه وتعالى قادر على الانتقام من خصوم الرسالة، حتى لو انقطعت عنهم الرسالة، بحلول أَجَل الرسول، وأن تملصهم من الاستجابة لها لا يغنيهم شيئاً، كما أنه سبحانه قادر على أن يُطيل حياة رسوله حتى يُرِيَه رأى العين ما يصيبهم من هزيمة وخذلان، وإلى ذلك يشير قوله تعالى في نفس السياق: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ، أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾.

وفي هذه الغمرة من غمرات الكفاح ضد الشرك والمشركين يتوجه كتاب الله إلى الرسول عليه السلام مخاطباً إياه، وموصياً لَهُ بالثباتِ على ما جاء به من عند الله، فقال تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾، وهذه دعوة إلى المزيد من الثباتِ والصُّمود، وعدم التبرم والضجر، والتصلب في الحق والدفاع عنه إلى آخر رمق. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، تأكيداً لما عليه الرسول من ثبات في الفؤاد، ورسوخ في الاعتقاد، فكتاب الله هو المُفضِي إلى صراط الله المستقيم، والموصِّل إلى جنات النعيم، والخير الدائم المقيم، وهذا

الخطاب موجه أيضاً بالتَّبَع إلى كل مسلم ومسلمة في القديم والحديث.

وإمْعَاناً في تكريم الرسول والرسالة، وإنْعَاما عليه بأعلى درجات التوقير والجلالة، خاطبه ربه قائلاً: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ وكلمة «الذِّكْر» هنا تحتمل معنيين لا تعارض بينهما، فكتاب الله يتضمن تذكير الرسول وتذكير عشيرته الأقربين، كما يتضمن تذكير الناس أجمعِين، مصداقاً لقوله تعالى (٢١ : ١٠): ﴿ لَقَدَ انزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾، وكتاب الله في نفس الوقت هو شرَف للرسول الذي اصطفاه الله لرسالته، وشرف لقومه ولغته، وشرف لِمجموع أمته، ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (٩٤ : ٤)، ولما كان السابقون الأولون أَفْهَمَ الناس لكتاب الله كانوا أقوم الناس به وأَعْمَلَهم بمقتضاه، ﴿ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ ﴾، أي: سوف تُسألون عن هذا القرآن: هل قمتُم بحقه، وشكرتم الله على أن خصكم به؟ ومن هنا كان فهم اللسان العربي المبين، أكبر عَون على فهم الدين، والتمسك به عن بينة ويقين، فهذه الآية الكريمة عند نزولها تنبأت بما سيؤول إليه أمر رسالة الإسلام التي حملها إلى الخلق رسول الهدى والحق، وأن هذه الرسالة سيكون لها وله بفضلها، ذكر خالد في العالمين، وسيستمر هذا الذكر العاطر إلى يوم الدين: ﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَـٰنُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾.

# الربع الثاني من الحزب الخمسين
# في المصحف الكريم

وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ
لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾
إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾
فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ
عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن
تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ
عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ
تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ
وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ

تَعۡمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٧٣﴾
إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ
وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم
مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾
أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ
وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ
وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ
ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ
يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي
ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيۡهِ
تُرۡجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ
إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ
لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ
لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ
إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾
أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ
إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ
ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ
تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١﴾
رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ
وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ
مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ
عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾
وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾
أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى
ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ
أَن تَرۡجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ

هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ ٢٢ فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ٢٣ وَٱتۡرُكِ
ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ٢٤

# الربع الثاني من الحزب الخمسين في المصحف الكريم

**عبـــاد الله**

في حديث هذا اليوم نعالج تفسير الربع الثاني من الحزب الخمسين في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى في «سورة الزخرف» المكية: ﴿وَلَـمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَـٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ، وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ اَلذي تَخْتَلِفُونَ فِيه﴾، ونهايته قوله تعالى في «سورة الدخان» المكية أيضاً: ﴿وَاتْرُكِ اِلْبَحْرَ رَهْواً، اِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾.

في الآيات الأخيرة من الربع الماضي جرى الحديث عن عيسى بن مريم عليهما السلام، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَلَـمَّا ضُرِبَ اَبْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً اِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصُدُّونَ﴾، وذلك في سياق الرد على المشركين الذين أرادوا أن يساووا بينه وبين معبوداتهم من الأوثان والأصنام، نظراً لأن النصارى يتوجهون إليه بالعبادة كما يتوجهون هم بها إلى معبوداتهم، وفي بداية هذا الربع جاءت تتمة الرد عليهم، وإبطال قياسهم الفاسد، فقد نقلت كتب السيرة أن مشركي قريش هالهم ما تلاه رسول الله ﷺ أمامهم من قوله تعالى في خطابه لهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اِللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ

أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ (٢١ : ٩٨)، إذ إن مضمون هذه الآية يقتضي أن المشركين وجميع معبوداتهم التي يعبدونها من دون الله سيكونون في جهنم، فأورد المشركون على رسول الله ﷺ «إشكالاً» بما يقوم به النصارى من عبادة لعيسى بن مريم، وسألوه هل سيكون عيسى بنُ مريم أيضاً في جهنم كما تكون فيها أصنام المشركين وأوثانهم التي يعبدونها من دون الله، هذا وهم يعلمون مُسْبَقاً أن عيسى بن مريم كان رسولاً ولم يكن صنماً، لكنهم أرادوا أن ينتقلوا من هذا القياس الفاسد ـ لأنه قياس مع وجود الفارق ـ إلى أن آلهتهم ومعبوداتهم لن تكون في النار، ما دام عيسى بن مريم لا يدخل النار، وهو في نظرهم ليس خيراً من آلهتهم، ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾، فغرضهم في الحقيقة هو الجدل والمشاكسة، لا الوصول إلى جوهر الحق في الموضوع: ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَاۢ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾، وقد كانوا ينتظرون من رسول الله أن يقول لهم: إن آلهتكم خير «فيكون ذلك إقراراً لهم على عبادتها» أو يقول: «إن عيسى خير من آلهتكم» فيكون إقراراً منه بأن عيسى أهل للعبادة، أَوْ أن ينفي «الخَيْرية» عنهم جميعاً، وذلك طعن في عيسى، فكان فحوى جواب النبي ﷺ: «إن عيسى خير من آلهتكم، ولكنه لا يستحق أن «يعبد». وذلك قوله تعالى في نفس السياق: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ، وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلاً لِّبَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ ﴾.

وهكذا تولي كتاب الله إبطال قياسهم لعيسى بن مريم على آلهتهم، وبيّن أن الدعوة التي دعا إليها عيسى النصارى كانت

قاصرة على إفراد الله بالعبادة، والاعتراف له بالعبودية، والتعريف بإلوهيته ووحدانيته المطلقة دون سواه، فهو لم يَدْعُ أحداً من أتباعه لا إلى عبادته ولا إلى تأليهه، ولا إلى اعتباره ابناً للإلّه، كما ادعاه النصارى المبطلون، وذلك قوله تعالى في بداية هذا الربع: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسى بِالْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ، وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ اَلذِي تَخْتَلِفُون فِيهِ، فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ، إِنَّ اَللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ، فَاعْبُدُوهُ، هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ على غرار ما جاء في آية أخرى حكايةً عن عيسى ابن مريم (٥: ١١٧): ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمُ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِ أَنُ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ، وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ اَلرَّقِيبَ عَلَيْهِم، وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾.

ثم عَقّبَ كتاب الله على هذا الرد المفحم الذي أبطل شُبَه المشركين، موضحاً مصدر العقائد الباطلة التي انتشرت عن المسيح بين فِرَق النصارى المختلفة، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَاخْتَلَفَ اَلاحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ﴾ إشارةً إلى الشِّيَع والمذاهب والفرق التي انقسمت إليها النصرانية بعد عيسى عليه السلام، والتي اخترعت بمحض خيالها عقيدة «المسيح الإلّه»، أو «المسيح ابن الله»، وما شابههما من المعتقدات الزائفة، التي هي «ظلم في حق الله» - إذ يصدق على معتقِديها أنهم ما قَدَرَوا الله حق قَدْره - «وظلم في حق المسيح»، لأنه لم يكن سوى عبدٍ لِلّه، فغالى فيه أَتبَاعُه ورفعوه إلى مرتبة الإلّه، وهذا الظلم الصارخ هو الذي يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ فَوَيْلٌ

لِّلذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ اَلِيمٍ ﴾ عقب الإشارة لاختلاف الفِرَق والمذاهب النصرانية، التي تضمنها قوله تعالى: ﴿ فَاخْتَلَفَ اَلاَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ﴾.

وأشار كتاب الله في هذا السياق إلى ما يقوم بين أهل الأهواء والضلالات من صداقة مدخولة، وخُلَّة مشبوهة، أساسها التضامن ضد الحق وأهله، والتعاون على الإثم والعدوان، مُبَيِّناً أن هذه الصداقة مهما طالت فمآلها إلى عداوة صريحة، وكراهة بالغة، بحيثُ تنفصم عُرَاها لأول احتكاك يقع بينهم من أجل المغانم أو المغارم، فلا يلبث بعضهم أن يتبرأ من بعض، وتتجلى هذه القطيعة بينهم على أشدها يوم القيامة، حيث لا ينفع أحد منهم الآخر، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ اَلاَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾، على غرار قوله تعالى حكايةً عن إبراهيمَ الخليل وهو يُخَاطِبُ قومَه الضالين (٢٩ : ٢٥): ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اَتَّخَذتُّم مِّن دُونِ اِللَّهِ أَوْثَـٰناً مَّوَدَّةَ بَيْنَكُمْ فِي اِلْحَيَوٰةِ اِلدُّنْيَا، ثُمَّ يَوْمَ اَلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً ﴾. أما الصُّحْبة في الله من أجل التعاون على البر والتقوى، والتزام الحق والصدق دون مُدارة ولا مُداهَنة، فهي نافعة في الدنيا، وأثرها ممتد إلى الآخرة بفضل الله وكرمه، وذاك ما يشير إليه قوله تعالى هنا بصيغة الاستثناء: ﴿ اِلَّا اَلْمُتَّقِينَ ﴾، وبَشَّر كتاب الله المتآخين في الله، الذين قامَت أخوتهم على تقوى من الله ورضوان، بأنهم سيُدْعَون يوم القيامة بأفضل نداء يُدْعَى به المقربون عند الله، فقال تعالى: ﴿ يَـٰعِبَادِي لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾، ثم بيَّنَ السر

فيما أعد الله لهم من نعيم مقيم، إذ قال تعالى في وصفهم: ﴿ اَلذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِـمِينَ ﴾، فقد آمنوا بآيات الله حقاً وصدقاً، وقد أسلموا وجوههم لله رِقّاً وعِتْقاً.

وعرَّج كتاب الله بعد ذلك على العقيدة الباطلة التي يعتقدها المشركون وبعض اليهود والنصارى، حيث يدَّعون أن لله ولداً، وهذه العقيدة هي التي أشار إليها كتاب الله في الآية الخامسة عشرة من هذه السورة، حيث قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً، اِنَّ اَلانسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾، وفي الآية الثلاثين من سورة التوبة حيث قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ اِلْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ، وَقَالَتِ اِلنَّصَـٰرَى اَلْـمَسِيـحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾، واتجه الخطاب الإلهي إلى الرسول ﷺ في هذا الربع ملقناً إياه ماذا يقوله لمن يعتقد هذه العقيدة الباطلة: ﴿ قُـلِ اِن كَـانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَـدٌ فَـأَنَـآ أَوَّلُ الْعَـٰبِدِينَ ﴾، أي: فأنا أول من يعظم ذلك الولد، لكن الله واحد أحد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤاً أحد.

ومن هنا انتقلت الآيات الكريمة إلى تَنزيه الله عن كل صفة من صفات النقص، وإلى تمجيده بكل صفة من صفات الكمال: ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّ اِلسَّمَـٰوَاتِ وَالاَرْضِ، رَبِّ اِلْعَرْشِ، عَمَّا يَصِفُونَ ﴾، ﴿ وَهُوَ اَلذِي فِي اِلسَّمَآءِ اِلَـٰهٌ وَفِي اِلاَرْضِ إِلَـٰهٌ ﴾ على غرار قوله تعالى في آية أخرى (٦: ٣) ﴿ وَهُـوَ اَللَّهُ فِي اِلسَّمَـٰوَاتِ وَفِي اِلاَرْضِ ﴾، أي: لا إله سواه، لا في الأرض ولا في السماء، ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ اَلْحَكِيمُ الْعَلِيمُ، وَتَبَـٰرَكَ اَلذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالاَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

واتجه الخطاب إلى الرسول عليه السلام مرة أخرى يدعوه إلى انتظار وعد الله بشأن مصير المشركين، فقال تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُواْ يَوْمَهُمُ الذِي يُوعَدُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَقِيلَهُ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُومِنُونَ، فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾.

والآن وقد انتهينا من سورة «الزخرف» المكية ننتقل بعون الله إلى «سورة الدخان» المكية أيضاً، وقد أُطلق عيها هذا الاسم، أخذاً من قوله تعالى، فيها: ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَاتِي اِلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾، وبمجرد الشروع فيها نجد أنفسنا أمام آيات كريمة تنوه بكتاب الله، وتصف «الليلة المباركة» التي أنزله الله فيها على قلب رسوله الصادق الأمين، وتَلفِت نظر الإنسانية جمعاء إلى أن كتاب الله إنما هو رحمة مرسلة من عند الله، أنزله لهداية البشر، والأخذ بيدهم لسلوك مسالك الرشاد والسداد، وذلك قوله تعالى: ﴿ حمٓ . وَالْكِتَـٰبِ الْمُبِينِ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ اِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ، فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ اَمْراً مِّنْ عِندِنَآ، إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ، إِنَّهُ هُوَ اَلسَّمِيعُ الْعَلِيمُ، رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالَارْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ ﴾. ويتصل بنفس الموضوع قوله تعالى (٢ : ١٨٥): ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ اَلذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ اِلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ اَلْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾، وقولُه تعالى: (٩٧ : ١): ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِي لَيْلَةِ اِلْقَدْرِ، وَمَآ أَدْرِيكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنَ اَلْفِ شَهْرٍ ﴾ فبمقتضى هذه الآيات الكريمة يتبين أن كتاب الله ابتدأ نزوله في شهر رمضان المبارك، الذي شُرع صيامُه ذكرى

لنزول القرآن، وأن أول ليلة وقع بدأ نزوله فيها هي إحدى ليالي رمضان، وهي بالذات «ليلة القدر» التي هي عند الله خير من ألف شهر، وهذه الليلة هي التي نوه بها كتاب الله في فاتحة هذه السورة التي نحن بصدد تفسيرها، حيث وصفها بأنها «ليلةٌ مباركة»، لأن القرآن الذي ابتدأ نزوله فيها كان أكبر بركة أنعم الله بها على بني آدم، بما فتح لهم من آفاق جديدة في العلم والمعرفة، وما هداهم إليه من وجوه الإصلاح الروحي والمادي لمختلف مرافق الحياة، وما أتاح لهم من الوسائل الفعّالة، لترميم صرح الحضارة المتداعي، وبعث الإنسانية من مرقدها الطويل.

وقولُه تعالى: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ، أَمْراً مِّنْ عِندِنَآ ﴾ إشارةٌ إلى ما تولى كتاب الله الكريم بيانه من معالم الدين، وما شَرَعه من الأوامر والنواهي التي جعلها شرعة خالدة للمسلمين، ومنهاجاً دائماً للمؤمنين، فما من أمر أو نهي في كتاب الله إلاّ وهو يتضمن من الحكمة والرشاد، ما يضمن صلاح العباد ﴿ أَلَيْسَ اَللَّهُ بِأَحْكَمِ اِلْحَـٰكِمِينَ ﴾ (٩٥ : ٨).

وقولُه تعالى في وصف كتابه: ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ تعريف لعباده المؤمنين بأبرز خاصَّة من خواص كتابه الكريم، فلا يُعرف في تاريخ البشرية أن كتاباً غيرَ القرآن ماثَله ـ فضلاً عن أن يفوقه ـ في الأخذ بيد الإنسان، وتحريره من سيطرة الأوهام ورِقِّ الأوثان، ودفع عَجَلة تقدمه ونهضته إلى أقصى حدود الإمكان، ويكفي لِتقدير فضله الواسع، ومعرفة تأثيره العميق، إلقاء نظرة ولو بسيطة

على تـاريـخ الأمم التي دخلت، بفـضله، فـي عـداد الأمم المتحضرة، والتي أصبح لها في ظله كِيان وسلطان، والتي في إمكانها إذا عادت إلى حظيرته بعزيمة وإخلاص أن تستعيد مجدها وتفرض وجودها إلى آخر الزمان.

# الربع الثالث من الحزب الخمسين
# في المصحف الكريم

كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾
وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا
قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾
وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ
كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾
وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ
هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ
كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾
مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾
إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾

طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾
خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ
عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا
كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ
وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ
وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾
لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾
فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ
بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حم ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾
وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا
بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ
آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾
وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا

كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا
ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ
وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ
وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ
لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ
ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾
وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ
لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾

# الربع الثالث من الحزب الخمسين في المصحف الكريم

**عبـــاد الله**

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الثالث من الحزب الخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في «سورة الدخان» المكية: ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَـٰكِهِينَ﴾، إلى قوله جل علاه في «سورة الجاثية» المكية أيضاً: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

في بداية هذا الربع يضرب الله الأمثال لِمُشركي قريش بما وقع للأمم السابقة من قبلهم، فيتحدث كتاب الله عن الكارثة التي نزلت بفرعون وقومه، جزاء تحديه للرسالة الإلٓهية التي برزت على يد موسى الكليم، ومُحارَبَته لها مع الملأ من قومه بجميع وسائل التمويه والتهريج والتعذيب، ومُجارَاة عامة قومه له ضد الحق المبين، ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَـٰسِقِينَ﴾ (٤٣ : ٥٤). وقد نعى كتاب الله ما خلَّفوه وراءهم من بساتين ناضرة، وزروع مثمرة، ومياه جارية، وقصور عالية: ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ، وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا

فَـٰكِهِينَ، كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْماً ـاخَرِينَ ﴾.

وبيّن كتاب الله هَوَانَ فرعون وقومه على الله وعلى الناس أجمعين، حتى أنه لم يَأْبَه أحد لنكبتهم، ولم تبك عين على ما أصابهم فجأة من العقاب والعذاب، إذ لم يتركوا وراءهم أي عمل صالح، أو ذكرى طيبة يذكرهم بها أهل الأرض أو أهل السماء: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَآءُ وَالاَرْضُ، وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴾، قال قتادة: «كانوا أهونَ على الله عزّ وجلّ من أن تبكي عليهم السماء والأرض»، وقد سئل أحد أئمة التفسير الأولين: «أتبكي الأرض والسماء؟ فقال: أتعجب؟ وما للأرض لا تبكي على عبد كان يَعْمُرها بالركوع والسجود؟ وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دوِيٌّ كدوي النحل؟».

وأشارت نفس الآيات الكريمة إلى بعض الأسباب التي أوجبت غضب الله على فرعون وقومه، فهذا عذاب مُهين كان يُعَذِّب به الذين آمنوا بموسى من بني إسرائيل، ظلماً وعدْواناً، وهذا إسراف بالغ كان لا يفترُ عنه في اللذات والشهوات، وهذا استعلاء وكبرياء كان يتحدى بهما قدرة الله المطلقة، وسطوته البالغة، ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِّنَ اَلْمُسْرِفِينَ ﴾، ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي اِلاَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ، وَيَسْتَحْيِ نِسَآءَهُمْ، إِنَّهُ كَانَ مِنَ اَلْمُفْسِدِينَ ﴾ (٢٨ : ٤).

وتناولت الآيات في هذا السياق ما يدَّخِره الحق سبحانه وتعالى للمعذَّبين في الأرض المغلوبين على أمرهم، من النجاة والفوز والنصر، في نهاية الأمر، وفي هذا تثبيت للمسلمين الأُوَل،

الذين كانوا يتحملون من مشركي مكة أنواع الأذى وصنوف الإساءات، فتحدث كتاب الله ضارباً لهم المَثَل بنجاة بني إسرائيل من عذاب فرعون، وخروجهم من قبضته، واختيارهم على غيرهم من أهل زمَانهم لحمل الأمانة، بقيادة موسى الكليم عليه السلام، إذ أنهم كانوا وقتئذ أفضل معاصريهم وأولاهم بحمل الأمانة، رغماً عما يعلمه الحق سبحانه وتعالى فيهم من وجوه النقص المتعددة، التي كان يعالجها بالتهذيب والتشذيب موسى وأخوه هارون ومن جاء بعدهما، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ ـ عَلَىٰ عِلْمٍ ـ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ، وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْأيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ ﴾، أي: آتيناهم من الحُجَجِ والبراهين وخوارق العادات ما فيه اختبار ظاهر، وامتحان جلي، لمن اهتدى به وكان من المهتدين.

وبعد ما تحدث كتاب الله عن إنكار مشركي قريش لعقيدة «البعث» الأساسية في الدين، وعن ادعائهم أنه لا نشر ولا بعث بعد الموت، وعن مطالبتهم للرسول عليه السلام ببعث آبائهم من القبور فوراً، وإرجاعهم إلى الحياة الدنيا، حَتى يُذْعنوا ويؤمنوا بالبعث المنتظر يوم القيامة، تساءل كتاب الله هل مشركو قريش خير عند الله من قوم «تُبَّع» الذين أهلكهم وأهلك من قبلهم بشركهم وإجرامهم، وكأنه يقول: إن المصير الذي انتهى إليه قوم تُبَّع، ومَن ماثلهم من الأقوام المنحرفة عن الحق، سيكون هو نفس المصير الذي يؤول إليه أمر مشركي قريش، وذلك قوله تعالى مشيراً إليهم: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا

ٱلْأُولَىٰ، وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ، فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ. أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ، وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَـٰهُمْ، إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾.

وفي تفسير ابن كثير: «إن قوم تُبَّع هم «سَبَأ» أهلكهم الله فخرب بلادهم، وشردهم، ومزقهم كل ممزق، وقد كانوا عرباً من قَحْطان، كما أن هؤلاء المشركين عرب من عدْنان، وقد كانت حِمْيَر - وهم سبأ - كلما ملك فيهم رجل سمّوه «تُبَّعاً» كما كان يقال «كسرى» لمن ملك الفرس، و«قَيْصَر» لمن ملك الروم، و«فرعون» لمن ملك مصْر، و«النجاشي» لمن ملك الحبشة، وغير ذلك من أعلام الأجناس»، قال قتادة: «ذُكِر لنا أن كَعْباً كان يقول في تُبَّع: إنه نُعت نعت الرجل الصالح، فقد ذم الله تعالى قومه، ولم يذُمَّه، قال: وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: «لا تسبوا تُبَّعاً فإنه قد كان رجلاً صالحاً»، ثم قال ابن كثير: «وحجَّ تُبَّع البيت الحرام في زمن الجُرْهُميين، وكساه المُلاَءَ والوَصَائل من الحرير وَالحبِير، ونحَرَ عنده ستة آلاف بَدَنة، وعظمه وأكرمَه، ثم عادَ إلى اليمن، وقد ساق قصته بطُولها الحافظ ابن عساكر من طرق متعددة».

وانتقل كتاب الله إلى تأكيد حقيقة إسلامية طالما قررها وأكدها لترسخ في الأذهان، ألا وهي أن الله تعالى لم يخلق هذا الكون عبثاً ولا لعباً، وإنما خلقه لحكمة سامية اقتضت خلقه، ولأمر عظيم أراده من وراء إبداعه، وهذه الحكمة السامية وهذا الأمر العظيم ينبغي أن يحاول الإنسان فهمهما، والإلمام بهما، إذ

عن طريق هذا الفهم وهذا الإيمان يدرك الإنسان ما لخالق الكون من جلال وجمال بارزيْن في خلقه، ويدرك السر الذي اقتضى خلق الإنسان، وترشيحه للخلافة عن الله في هذا الكون، فمن لم يعرف الغاية من خلق الكون عموماً لم يدرك الغاية التي من أجلها خُلق الإنسان، الذي هو جزء لا يتجزأ من هذا الكون، وذلك ما يشير إليه قولُه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا اَلسَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ، مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. إِنَّ يَـوْمَ اَلْفَصْـلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، على غـرار قـولِـه تعـالى (٣٨ : ٢٧): ﴿وَمَا خَلَقْنَا اَلسَّمَآءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا. ذَٰلِكَ ظَنُّ الذِينَ كَفَرُواْ، فَوَيْلٌ لِّلذِينَ كَفَرُواْ مِنَ اَلنَّارِ﴾، وقوله تعالى (٢٣ : ١١٥): ﴿أَفَحَسِبْتُمُ أَنَّمَـا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَـا لَا تُرْجَعُونَ، فَتَعَـٰلَى اَللَّهُ الْـمَلِكُ الْـحَقُّ﴾.

ومضى كتاب الله يصف أهوال الجحيم، التي تنتظر أعداء الحق من المشركين والكافرين، كما يصف مَسرَّات دار النعيم، التي تنتظر أهل الحق من المؤمنين المتقين، ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا اَلْـمَوْتَ، إِلَّا اَلْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ، وَوَقَيٰـهُمْ عَذَابَ اَلْجَحِيمِ، فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ، ذَٰلِكَ هُوَ اَلْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وها هنا ننتهي من «سورة الدخان» المكية لننتقل إلى سورة الجاثية» المكية أيضاً، وإنما أُطلق عليها هذا الاسم، أخذاً من قوله تعالى فيها: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾، وفي مطلعها نجد أنفسنا أمام حديث مستأنَف عن القرآن الكريم، والتنويه بمقامه العـظيم: ﴿بِسْمِ اِللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الـرَّحِيمِ. حمٓ. تَنزِيـلُ الْكِتَـٰبِ

مِنَ اَللَّهِ اِلْعَزِيزِ اِلْحَكِيمِ ﴾، ثم تشرع السورة في تعداد آيات الله المبثوثة في آفاق الكون الواسعة، وتعداد آيات الله الناطقة في كل إنسان إنسان وحيوان حيوان، وآيات الله البارزة في الظواهر الكونية، التي تتعاقب وتتوالى دون انقطاع وفي كل وقت، مما يَحْمِلُ على الإذعان لِقدرة الله وحكمته، ويقوِّي اليقين بعدله ورحمته، ويدفع إلى التطوع بعبادته وطاعته، نتيجةً لاهتداء العقل إلى معْرفته، وذلك قوله تعالى: ﴿ إنَّ فِي السَّمَـوَاتِ وَالاَرْضِ ءَلاَيَـتٍ لِّلْمُومِنِينَ، وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ـايَـتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ، وَاخْتِلَـفِ اِلْيلِ وَالنَّهارِ، وَمَآ أَنزَلَ اَللَّهُ مِنَ اَلسَّمَـآءِ مِن رِّزْقٍ، فَأَحْيَا بِهِ اِلاَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَتَصْرِيفِ اِلرِّيَـحِ ءَايَـتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾، وقد أحسن جار الله الزمخشري في تفسير هذه الآيات حيث قال: (المعنى أن المنصفين من العباد إذا نظروا في السماوات والأرض النظر الصحيح علموا أنها مصنوعة، وأنه لا بد لها من صانع، فآمنوا بالله وأقروا، ﴿ءَلاَيَـتٍ لِّلْمُومِنِينَ ﴾، فإذا نظروا في خلق أنفسهم وتنقلها من حال إلى حال، وهيئة إلى هيئة، وفي خلق ما على ظهر الأرض من صنوف الحيوان ازدادوا إيماناً، وأيْقنوا وانتفى عنهم اللبس ﴿ ـايَـتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾، فإذا نظروا في سائر الحوادث التي تتجدد في كل وقت، كاختلاف الليل والنهار، ونزول الأمطار، وحياة الأرض بها بعد موتها، وتصريف الرياح جنوباً وشمالاً، وقَبولاً ودَبوراً، عقلوا، واستحكم علمهم، وخلص يقينهم ﴿ ءَايَـتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ) وحلل ابن كثير قوله تعالى: ﴿ وَتَصْرِيفِ اِلرِّيَـحِ ﴾، فقال: أي جنوباً وشمالاً، ودَبوراً وصَباً، برية وبحرية، ليلية ونهارية، ومنها ما هو

للمطر، ومنها ما هو للِّقاح، ومنها ما هو غذاءٌ للأرواح، ومنها ما هو عقيم لا يُنتِجُ، وسُمِّي المطرُ في هذه الآية «رزقاً»، لأن به يحصل الرزق، ونبه إلى السر في قوله تعـالى أولاً: ﴿ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُومِنِينَ ﴾، وقوله ثانياً: ﴿ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾، وقوله ثالثاً: ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُـونَ ﴾، وأن ذلك ترَقٍّ من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى. وقال القشيري: «جعل الله العلوم الدينية كسبيَّةً مصحَّحة بالدلائل، محقَّقة بالشواهد، فمن لم يستبصر بها زَلَّت قدمه عن الصّراط المستقيم».

وهذه الآيات الكريمة شبيهـة بآيـة سورة البقـرة (١٦٤): وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ اِلسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضِ، وَاخْتِلَٰفِ اِلَّيْلِ وَالنَّهارِ، وَالْفُلْكِ اِلتِي تَجْرِي فِي اِلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ، وَمَآ أَنزَلَ اَللَّهُ مِنَ اَلسَّمَآءِ، مِن مَّآءٍ، فَأَحْيا بِهِ اِلَارْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَبَثَّ فِيهَا مِن كُـلِّ دَآبَّةٍ، وَتَصْرِيفِ اِلرِّيَٰحِ وَالسَّحَابِ اِلْـمُسَخَّرِ بَيْنَ اَلسَّمَآءِ وَالَارْضِ ءَلَأيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

وخُتِم هذا الربع بآية جامعة مانعة في هذا المجال، هي نقطة الانطلاق ومحور التفكير في الحال والمآل، فقال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي اِلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي اِلَارْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ءَلَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتفَكَّرُونَ ﴾.

# الربع الأخير من الحزب الخمسين في المصحف الكريم

قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ
لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ
فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ الْكِتَابَ
وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾
وَءَاتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ
الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا
فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ
أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ
الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا
بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ
اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾
أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ
عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ
مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا
الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ
إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ
مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾
قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ
جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾
هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾
فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَٰلِكَ
هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ
فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ
لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ

بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا
وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ
ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ
يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾
وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

# الربع الأخير من الحزب الخمسين في المصحف الكريم

**عبـــاد الله**

في حـديث هذا اليـوم نتناول الـربع الأخيـر من الحزب الخمسين في المصحف الكريم، وبدايته قولـه تعالى: ﴿ قُـل لِّلذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اَللَّهِ، لِيَجْزِيَ قَوْمَاۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾، ونهايته قوله تعالى في ختام «سورة الجاثية»: ﴿ وَلَهُ اُلْكِبْرِيَآءُ فِي اِلسَّمَـٰوَاتِ وَالاَرْضِ، وَهُوَ اَلْعَزِيزُ اُلْحَكِيمُ ﴾.

يتوجه الخطاب الإلّهي في مطلع هذا الربع إلى الرسول عليه السلام ليرشد السابقين من المؤمنين، الذين يتحملون معه بمكة صنوف الإذايات، وضروب الإساءات من طرف المشركين، إلى ضرورة الصبر على أذاهم، والاغضـاء عن إساءتهم، ذَلـك أن هؤلاء المشركين الضالين جديرون في هـذه المرحلة التمهيـدية بالإهمال والرثاء، أكثر مما هم جديرون بالمؤاخذة والجزاء، فهم لا يزالون عُمْـى البصائر، ضعفاء العقول، فاقدين لقوة التمييز بين الحق والبـاطـل، محـرومين من نـور الإيمـان، شـاكّين في «أَيَّـام الـله»، التي لا ريب فيها ولا شك، فالأَوْلى عدم الرد على أذاهم بمثله، وعـدم التسابق معهم في مجال الإسـاءآت

والمضايقات. وفي الموقف الذي يقفه المؤمنون من أذى المشركين، مساعدة لهؤلاء الحيارى على إدراك التأثير الروحي العميق، الذي أحدَثه الإسلام في معتنقيه، وعلى مقارنة التهذيب الإسلامي والأخلاق الإسلامية السمحة، بما هم عليه من أخلاق «الجاهلية الأولى» وتقاليدها الصبيانية والعدوانية.

يضاف إلى ذلك أن صبر المسلمين على أذى مشركي مكة يُحْسَبُ لهم عند الله من الأعمال الصالحة، التي يُجزَوْن عليها الجزاء الحسن، كما أن أذى المشركين للمؤمنين سَيضاعف لهم - إن لم يؤمنوا ويتوبوا - الجزاء السيء عندما يحُل موعد الجزاء، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اَللهِ، لِيَجزِيَ قَوْمَا بِـمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾.

وانتقلت الآيات الكريمة فوْراً للتذكير بمبدأ إسلامي أصيل، وعقيدة جوهرية من عقائده الأولى، ألا وهي أن كل فرد مسؤول عن نفسه، وأن كل فرد مَجزِيٌّ على عمله، وما دام الأمر هكذا فلا موجب لـمُغالاة المؤمن في حمل المخالف له على اعتقاد ما يعتقده هو، بوسائل الضغط والإكراه، بمعنى أن المؤمن، عندما يدعو المخالِفَ له إلى الإيمان، ويبلغه رسالة ربه بالتي هي أحسن، يكون قد أدى واجبه كاملاً غير منقوص، وليس مطالَباً بأن يحمل غير المؤمن على عقيدة الإيمان كَرهاً، فهؤلاء المشركُون الذين لا يزال المسلمون يعايشونهم في مكة، قبل أن يؤذَن لهم بالهجرة إلى المدينة، قد اسْتمعوا إلى كتاب الله، ودعاهم الرسول والمؤمنون

معه إلى الحق المبين، وبذلك أصبحوا مَسؤولين عن أنفسهم، موكولين إلى اختيارهم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في هذا الربع: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحاً فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ اَسَآءَ فَعَلَيْهَا، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾، على غرار قوله تعالى في آية ثانية (٥٢ : ٢١)، ﴿ كُلُّ امْرِيءِم بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾.

وأعاد كتاب الله الحديث عن قصة بني إسرائيل ليضرب بهم المثل للمؤمنين، حتى لا يسلكوا مسلكهم ولا يتَعَرَّضُوا للعزل عَنْ خلافة الله في الأرض، التي أراد أن يُعِدَّهم لها بخاتم كتبه، على يد خاتم أنبيائه ورسله، فقد مرّ بَنُو إسرائيل بفَتْرَة اختارهم الله فيها من بين جميع معاصريهم لحمل الرسالة الإِلَهية التي جاء بها موسى عليه السلام، وفي ذلك الطور آتاهم الله الكتاب والحكم، والنبوءة والعلم، ثم تبع هذا الطور طور آخر من الخلاف والانحراف، والعناد والفساد، والطغيان والعدوان، فبعث الله عيسى بن مريم، إذ «أنعمَ عليه وجعله مَثَلاً لبني إسرائيل»، وذلك ليبين لهم بعض الذي اختلفوا فيه، ويردهم إلى حَظِيرة الاستقامة، وطريق السلامة، وبدلاً من أن يستجيبوا لِدَعوته، كانوا حرباً عليه وعليها، فنزع الله عن بني إسرائيل أهلية الخلافة وشرف النبوة، واقتضت الحكمة الإِلَهية تكليف فرع آخر من عقب إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل الذبيح، عليهما السلام، بحمل الرسالة، وأداء الأمانة، وتجديد الدين الحق، بين الخلق، والخلافة عن الله في الأرض، على أساس ملة إبراهيم، وكان ذلك على يد سيدنا محمد بن عبدِ الله صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا السياق

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ، وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ، وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، أي: فضلناهم على معاصريهم وأهل زمانهم، ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾، أي: حُجَجاً بينة وبراهين قاطعة، من الشريعة التي جاء بها موسى، ﴿ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾، أي: أنهم من بعد قيام الحجج الثابتة بالوحي اختلفوا فِيمَا بينهم، وحرفوا الكَلِم عن مواضعه، ﴿ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ ﴾، أي: حسداً من بعضهم لبعض، وبغياً من بعضهم على بعض، اتِّباعاً للأهواء والأغراض والشهوات.

وعقَّب كتاب الله على الخلافات التي قامت بين بني إسرائيل ففرقت جمعهم، وأدت إلى نزع صَوْلَجان الخلافة عن الله من بين أيديهم، وإخراج النبوة نهائياً من سلالتهم، فخاطَب الرسولَ عليه السلام قائلاً: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾، كأَنَّ الحق سبحانه وتعالى يشير إلى أن الخلافات التي نشأت بين بني إسْرائيل فيما بينهم، وبين بقية الملل والأديان، أصبحت خلافات مُزمِنة لا سبيل إلى علاجها، بل إنها سترافقهم على مر الزمان إلى اليوم الموعود، وهذه الحقيقة ماثلة للعيان، منذ نزل القرآن، إلى الآن وحتى الآن.

غير أن كتاب الله ـ وهذا هو الغرض المقصود من الحديث عن بني إسرائيل، ووصِف ما تعرضوا له في حالتي الرضى والغضب من جانب الله ـ وجَّهَ الخطاب إلى خاتم الأنبياء والرسل،

وعن طريقه وجه الخطاب إلى كافة المؤمنين، داعياً له ولهم إلى وجوب التمسك بشِرْعة الإسلام التي حلت محل الشرائع السابقة، وإلى ضرورة اتِّباعها وعدم الخروج عنها، والحذر من الوقوع في شبكات الأهواء المفرِّقة، والاختلافات الممزِّقة، إذْ أن أصحاب الأهواء ودعاة الفرقة الذين يَدْعُون لأهوائهم، ويستدرجون إليها أهل الحق، لا يستطيعون أن يردوا غضب الله، عمن حاد عن شريعة الله، وتعدى حدود الله، وهم أعجز من أن يُبْقُوا على عرش الخلافة عن الله، مَن خان الأمانة وأشهر الحرب على الله، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ. إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، ويؤكد كتاب الله هذا المعنى لافتاً نظر الرسول عليه السلام إلى حال أهل الكتاب، الذين اتبعوا أهواءهم من بعدما جاءهم من العلم، وما هم عليه من تناقض وتخاذل وحيرة وارتباك، وذلك قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ، وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ، وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ، وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً، فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

ومما ينبغي الانتباه إليه في هذا المقام كلمة «الأمر»، التي تكررت في هذا الموضوع، ولأمر ما كان هذا التكرار والربط في نفس السياق، ففي الحديث عن بني إسرائيل سبق قوله تعالى هنا: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُم بَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾، وفي الخطاب للرسول عليه السَّلام ورد قوله تعالى هنا: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾، وكلاهما ينظر إلى قوله تعالى في سورة الأعراف (٥٤):

﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾، مما يوضح أن الله تعالى كما انفرد بخلق الإنسان وجميع الأكوان، فهو وحده الذي له حق «الحاكمية» على الإنسان، إذ هو سبحانه المنفرد بعلم حقيقته ووجوه نقصه في كل زمان ومكان، وإلى كتاب الله ومزاياه يشير قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾.

ومضى كتاب الله في المقارنة بين الصالحين والفاسقين، وما هنالك من فوارق أساسية وجوهرية بين الفريقين في الحياة وبعد الممات، فقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾.

ويصف كتاب الله عقيدة «الدَّهريين» الباطلة ومن لف لفهم فيقول: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ، وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾، ويبطل كتاب الله عقيدتهم بحجج الفطرة القاطعة، وشواهد التجربة الناطقة، مؤكداً مرة أخرى أنه سيجمع خلقه يوم الجمع ليفصل بينهم، ﴿ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾.

ويتحدث كتاب الله عن اليوم الموعود، واجتماع كافة الأمم فيه أمام خالقها وهي «جاثية» على رُكَبِها، وعن دعوة كل أمة منها إلى كتابها، إذ أن «العهد» بين الله وبينها هو ما أنزله إليها من كتبه، وما أرسله إليها من رسله، ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (٤ : ١٦٥)، «وَدَعْوة كُل أُمة إِلَى كِتَابِهَا»

تقتضي محاسبتها من الله حسَاباً عسيراً على ما فعلت بـالكتاب الذي أنزل إليها، هل اتبعته ووفَّت بما عاهدت الله عليـه، أم اتخذت كتابها مَهجوراً، ونبذته وراءَ ظهرياً، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا، اَلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُم تَعْمَلُونَ، فَأَمَّا اَلذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ، ذَٰلِكَ هُوَ اَلْفَوْزُ الْـمُبِينُ، وَأَمَّا اَلذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنَ ـايَـٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَـاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَـوْمـاً مُّجْـرِمِينَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ اَلْيَوْمَ نَنسيٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذا، وَمَأْوِيٰكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾.

وخُـتِمت هذه السورة بشكر الله على آثار نعمته وجمالـه والخشوع والخضوع أمام عظمته وجلاله، إذ قال تعالى: ﴿ فَلِلَّهِ اِلْحَمْـدُ، رَبِّ اِلسَّمَـٰوَاتِ وَرَبِّ اِلْأَرْضِ، رَبِّ اِلْعَـٰلَمِينِ، وَلَـهُ اُلْكِبْرِيَآءُ فِي اِلسَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ اَلْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.

# الفهرس

## تفسير الحزب الواحد والأربعين من المصحف الكريم


الربع الأول من الحزب الواحد والأربعين ............... ٥
(وفيه نهاية سورة العنكبوت وبداية سورة الروم)
الربع الثاني من الحزب الواحد والأربعين ............... ٢٠
الربع الثالث من الحزب الواحد والأربعين ............... ٣٧
الربع الأخير من الحزب الواحد والأربعين ............... ٥٠
(وفيه نهاية سورة الروم وبداية سورة لقمان)


## تفسير الحزب الثاني والأربعين في المصحف الكريم


الربع الأول من الحزب الثاني والأربعين ............... ٦٦
(وفيه نهاية سورة لقمان وبداية سورة السجدة)
الربع الثاني من الحزب الثاني والأربعين ............... ٨٠
(وفيه نهاية سورة السجدة)
الربع الثالث من الحزب الثاني والأربعين ............... ٩٣
(وفيه بداية سورة الأحزاب)
الربع الأخير من الحزب الثاني والأربعين ............... ١٠٩


## تفسير الحزب الثالث والأربعين من المصحف الكريم


الربع الأول من الحزب الثالث والأربعين ............... ١٢١

الربع الثاني من الحزب الثالث والأربعين ............... ١٣٩
الربع الثالث من الحزب الثالث والأربعين ............. ١٥٤
(وفيه نهاية سورة الأحزاب وبداية سورة سبأ)
الربع الأخير من الحزب الثالث والأربعين................ ١٦٩

## تفسير الحزب الرابع والأربعين من المصحف الكريم

الربع الأول من الحزب الرابع والأربعين ................ ١٨٧
الربع الثاني من الحزب الرابع والأربعين.................. ٢٠١
(وفيه نهاية سورة سبأ وبداية سورة فاطر)
الثمن الأول من الربع الثالث في الحزب الرابع والأربعين ....... ٢١٦
الثمن الثاني من الربع الثالث في الحزب الرابع والأربعين ....... ٢٢٩
الربع الأخير من الحزب الرابع والأربعين ................ ٢٤٠
(وفيه نهاية سورة فاطر وبداية سورة يس)

## تفسير الحزب الخامس والأربعين من المصحف الكريم

الربع الأول من الحزب الخامس والأربعين ............... ٢٥٨
الربع الثاني من الحزب الخامس والأربعين ............... ٢٧١
(وفيه نهاية سورة يس وبداية سورة الصافات)
الربع الثالث من الحزب الخامس والأربعين................ ٢٨٦
الربع الأخير من الحزب الخامس والأربعين ............... ٣٠٠

## تفسير الحزب السادس والأربعين من المصحف الكريم

الربع الأول من الحزب السادس والأربعين ............... ٣١٦
(وفيه نهاية سورة الصافات وبداية سورة ص)
الربع الثاني من الحزب السادس والأربعين ............... ٣٢٥
الربع الثالث من الحزب السادس والأربعين .............. ٣٣٤
(وفيه نهاية سورة ص وبداية سورة الزمر)

الربع الأخير من الحزب السادس والأربعين ............. ٣٤٣

## تفسير الحزب السابع والأربعين من المصحف الكريم

الربع الأول من الحزب السابع والأربعين ............. ٣٥٣
الربع الثاني من الحزب السابع والأربعين ............. ٣٦١
(وفيه نهاية سورة الزمر)
الربع الثالث من الحزب السابع والأربعين ............. ٣٧١
(وفيه بداية سورة غافر)
الربع الأخير من الحزب السابع والأربعين ............. ٣٨٠

## تفسير الحزب الثامن والأربعين من المصحف الكريم

الربع الأول من الحزب الثامن والأربعين ............. ٣٩١
الربع الثاني من الحزب الثامن والأربعين ............. ٤٠١
(وفيه نهاية سورة غافر وبداية سورة فصلت)
الربع الثالث من الحزب الثامن والأربعين ............. ٤١١
الربع الأخير من الحزب الثامن والأربعين ............. ٤١٩

## تفسير الحزب التاسع والأربعين من المصحف الكريم

الربع الأول من الحزب التاسع والأربعين ............. ٤٢٨
(وفيه نهاية سورة فصلت وبداية سورة الشورى)
الربع الثاني من الحزب التاسع والأربعين ............. ٤٣٧
الربع الثالث من الحزب التاسع والأربعين ............. ٤٤٧
الربع الأخير من الحزب التاسع والأربعين ............. ٤٥٨
(وفيه نهاية سورة الشورى وبداية سورة الزخرف)

## تفسير الحزب الخمسين من المصحف الكريم

الربع الأول من الحزب الخمسين ............. ٤٦٧

الربع الثاني من الحزب الخمسين ................ ٤٧٨
(وفيه نهاية سورة الزخرف وبداية سورة الدخان)
الربع الثالث من الحزب الخمسين ................ ٤٩٠
(وفيه نهاية سورة الدخان وبداية سورة الجاثية)
الربع الأخير من الحزب الخمسين ................ ٥٠٠
(وفيه نهاية سورة الجاثية)

دار الغرب الإسلامي
لصاحبها : الحبيب اللمسي
شارع الصوراتي (المعماري) ــ الحمراء ــ بناية الأسود
تلفون : 340131 - 340132 ــ ص.ب. 5787-113 بيروت ــ لبنان

رقم الإيداع القانوني
٤٢٧ - ١٩٨٣
الرباط

الرقم 85/4/3000/49

التنضيد : كومبيو تايب للصف الطباعي الالكتروني

الطباعة: مؤسسة جواد ــ بيروت

دار الغرب الإسلامي
لصاحبها : الحبيب اللمسي
شارع الصوراتي (المعماري) ــ الحمراء ــ بناية الأسود
تلفون : 340131 - 340132 ــ ص.ب. 113-5787 بيروت ــ لبنان

رقم الإيداع القانوني
٤٢٧ - ١٩٨٣
الرباط

الرقـم 85/8/3000/49

التنضيد : كومبيو تايب للصف الطباعي الالكتروني

الطباعة: مؤسسة جواد ــ بيروت